

مجموع يشتمل على

كتاب الأصداف على جواهر الأشراف

شرح الحكم

للسيد الشريف العارف بالله والداعي إلى هداه ورضاه

سيدنا الإمام الحبيب عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس (ت : ١١٩٢هـ)

تأليف الشيخ الفاضل العالم النحرير حسن بن عوض زين بن مخدَّم الحضرمي

ويليه

وصية ونصيحة للإخوان في دين الله من أهل السنة والجماعة والطريقة العلوية

للشيخ حسن بن عوض مخدَّم

يليهما كتاب

فتح الرحمن شرح صلاة أبي الفتيان سيدي القطب أحمد البدوي (ت : ٦٧٥هـ)

للحبيب عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس

تشرف بخدمته الفقير إلى الملك القدوس

علي بن محمد المستور العيدروس

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة مختصرة لصاحب الحكم : الحبيب عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس رحمه الله تعالى

هو الحبيب عبد الرحمن بن مصطفى بن شيخ بن محمد المصطفى بن زين العابدين بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبدالله بن أبي بكر العيدروس الشافعي الحسيني اليمني التريمي ، الأستاذ العارف الكامل العالم العامل ، أحد الأولياء الراسخين والأصفياء العارفين ، العلامة الحبر المحقق النحرير ، صاحب الكرامات والمكاشفات ، مربي المريدين ومرشد السالكين ، قطب العارفين أبو الفضل وجيه الدين ، ولد بمدينة تريم بعد الغروب ليلة الثلاثاء تاسع صفر سنة (١١٣٥هـ) ، وبها نشأ وقرأ ، وأخذ عن كبار علماء الوادي في ذلك الوقت وفي مقدمتهم جده العلامة شيخ بن مصطفى العيدروس والعلامة عبدالرحمن بن عبد الله بلفقيه ، ورحل للنفع والانتفاع والدعوة إلى الله تعالى إلى اليمن والحرمين الشريفين والهند ومصر التي ارتحل إليها وتوطنها وتوفي بها عام (١١٩٢هـ) ، وقد ترجم له ابنه الحبيب مصطفى في كتاب أسماه : « فتح المهيمن القدوس في مناقب سيدنا الحبيب عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس ».

وله تآليف لطيفة ؛ منها رسالته المسماة بـ« العرف العاطر في معرفة الخواطر » وغيرها من الجواهر وشرحها ، و« فتح الرحمن بشرح صلاة أبي الفتيان » ، و« رسالتان في الطريقة النقشبندية » ، وديوان شعر سماه : « ترويح البال وتهييج البلبال » وغير ذلك ، وكان من أفراد العالم علماً وعملاً وقالاً وحالاً .

ترجمة مختصرة لشارح هذه الحكم الشيخ حسن بن عوض مخدَّم رحمه الله تعالى

والشارح لهذه الحكم هو الشيخ الجليل الفاضل العالم العارف حسن بن عوض بن زين مخدَّم أحد أحفاد الشيخ جعفر مخدَّم القادم من البصرة مع الإمام المهاجر سيدنا أحمد بن عيسى صاحب الشعب المهيب ، ولعله سمي الشعب شعب مخدَّم ؛ نسبة اليه والله أعلم .

وشيخنا حسن طلب العلم منذ صغره ، وقد رعته عناية والده منذ صغره ، ثم أدركته نفحة من شيخه سلطان البحر والبر خليفة الله في أرضه القطب الغوث الحبيب أبوبكر بن عبدالله العطاس ؛ حيث رعته عنايته ، انظر قصته معه في كتابه « أنموذج خاص في بعض الخواص » مخطوط ، وتردد أيام طلبه للعلم بين العلماء والصلحاء بمدينتَي تريم وسيئون ؛ فمن علماء تريم : الحبيب عمر بن حسن أحمد الحداد ، والحبيب حامـد بن عمـر با فرج والحبيب حسين ابن سهل وغيرهم ، وحطَّوا نظرهم عليه .

وفي الغُرفة حيث شيخ فتحه الثاني الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي ، وقد أثنى عليه كثيراً في بعض وصاياه وذكر ارتباطه به في أبياته الشعرية ؛ فالشيخ حسن آية من آيات الله ، ستعرفه من خلال قراءتك لهذا الشرح العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

الحمد لله فاتح الغيوب ، لأسرار القلوب ، والمفيض عليها من جوده ، علم التوحيد ومعرفة وجوده ، فجلى القرآن ، لحضرة الإنسان ؛ ليطالع حضرة كل يوم هو في شأن ، وما الشأن متجدد بتجدد الزمان ؛ إنما ذلك أمر رباني يعرفه أهل الذوق والوجدان ، والشهود والعيان .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فظهور الشئون الإلهية ، في الآثار الكونية .. أوقعَ اللبسَ في بعض المحجوبين عن الكمال ؛ إذ ظنوا أنه خلق جديد ، وما عثروا على سِرِّ قوله تعالى :﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

ومن العجيب الغريب مجاورة السر الروحاني ، والأمر الإلهي للجسم الحادث الكثيف المعاني ، وانقياده له وانحصاره فيه ، مع مطالعته لحضرة : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ حتى رده الجسم إلى الشرب والمطعم ، والنوم والكلام مع البُهم ، ومعاملة العرب والعجم ، أتعجبون من أمر الله ومن أسمائه العليم الحكيم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ؛ مظهر الوجود الروحاني ، وترجمان العالم القرآني ، وعلى آله وصحبه الذائقين من شراب قربه وحُبه ، وعلى التابعين إلى يوم الدين ...

أما بعدُ :

فإن الأكوان لأهل البصائر ميدان ، ولأهل المعارف ترجمان ، ولأهل القرب والحب قرآن ؛ يقرؤون من تجلي الشئون عليها حقائق المعان ، بلا حرف ولا لسان ؛ إذ الأكوان محل تجلي الحكمة في المكان والزمان ، ومن مشاهدة آثار الحكمة الترقي إلى شهود الحكيم ، ثم إلى شهود القدرة ، ثم إلى شهود الذات الجامعة لكل الصفات ، ثم يكون بعد ذلك إما ذهاب واستغراق وفناء واحتراق ، أو ثبات وتمكين في تلاوة الكتاب المبين ، الذي نزل به الروح الأمين ، على قلب سيد المرسلين ، وإمام المقربين صلى الله عليه وسلم .

ومن اتسع قلبه وصفا لبه .. حُفظت عليه أنفاسه ومعانيه وحواسه ؛ فجمع بين الخدمة والمراقبة ، وفهم الحكمة في المخاطبة ، ثم إنه لابد من السلوك للمقيد والمفكوك ، إلى حضرة ملك الملوك ، ومن أبطت به البطالة ، وعوَّقته نفسه حتى خيبت آماله .. حُرم لذة الجلوس على البساط ، وإن سلِم من السياط ، وما ذاقه ذو المجاهدة والمكابدة لا يطيب ولا يصفو لغيره من ذوي العناية والمساعدة ؛ وذلك لأن بالمجاهدة تعظُم الأذواق ، في حضرة التلاق ، من رحيق الأرياق ، وخمور ثغور عرائس الوفاق ، ويدوم القرار ، في حضرات الأنوار ، ويهاب الرقباءَ والأغيار .

ولا يكون بغير المجاهدة في حضرة المشاهدة إلا بروق لا تدوم ، وأذواق تسلب المهوم والعلوم ؛ فيبقى المجذوب بالعناية مبهوتاً بلا دراية ، ومصطلماً بلا رعاية .

وحقيقة السلوك وضع القدم على القدم ، والوقوف عند كل علَم ، وحفظ الفم والقلم ، عن المخالفة للأخلاق والشيم ، ثم التخلق بالأخلاق ؛ طمعاً في الأذواق ، وفزعاً من النفاق ، إلى أن تبيْن له بلدة الصدق والإخلاص ، فيها أهل الحق والاختصاص ؛ فحينئذ تيأس نفسه البطَّالة ، من الرجوع إلى وطن البطَالة ؛ فيجد في السير ، ويرغب عن الغير .

ورب طاوٍ لمسافات السلوك ، واصل إلى حضرة الملوك .. لم يقاسِ ولم يعانِ ولم يباشر شيئاً من الذل والهوان ؛ فلا بد في رجوعه إلى الأكوان من تخلية نفسه من فضلات الزمان والمكان ، غير أنه بسهولة

وسرور ، ومن غير فتور وقصور ، ورجوعُه إلى الأكوان هو مباشرته لوظائف الشرع ، ومعاملته الخلق بالعطاء والمنع ، والوصل والقطع ، هذا والخلق مع الحق أطوار ، على حسب القضاء والأقدار ؛ فلا محيص لأحد عما يراد به .

وقد وقفتُ على حِكمٍ عجيبة ، مشتملة على أسرار غريبة ، من أنفاس سيدنا الإمام ، العارف بالله والداعي إلى هداه ورضاه ؛ الحبيب عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس رضي الله عنه ، فاستحسنتُها وشممت منها روائح المعرفة الكاملة بالله تعالى من المتنفِس بها ، فاستخرت الله تعالى في تعليق عليها ؛ يكون كاللفاف لها ، والصدف على جوهرها ؛ ابتغاء القرب من الله بجاه جامعها ، ومحبةً في الكون في زمرة آل البيت النبوي .

وقد أشار عليَّ بذلك بعض بني المنتسبين إلى صاحب تلك الأنفاس ، ففرحت بذلك ، وإن كنت لست أهلاً لما هنالك ، وسميت هذا التعليق : «**الأصداف على جواهر الأشراف**» ؛ لكون ما أُكرموا به سادتي بنو علوي من الميراث الخاص فوق الميراث العام .. لا يكون عند غيرهم من سائر الأولياء إلا بواسطتهم ، وقد قيل : (فيهم مددهم منهم) والمراد بهذه العبارة كما سمعنا من بعض مشايخنا العلويين رضي الله عنهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم خصَّ السيدة الزهراء والسيدين الحسن والحسين رضي الله عنهم بسر لم يطَّلع عليه غيرهم ؛ فبقي ذلك السر في بيتهم يتوارثونه لا يتجاوزهم إلى غيرهم إلا بواسطتهم ، ثم إنهم شاركوا سائر الأمة المحمدية في أسرارها نبيها صلى الله عليه وسلم التي أودعها العلماء والصلحاء وسائر الأولياء من قوله عليه الصلاة السلام : «**العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ**» .

وما ورثه الصحابة رضوان الله عنهم من أخذ عنهم من التابعين من السر الذي أودعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يكون كذلك متوارثاً بين عباد الله ؛ فالكامل من حظي بالسر الخاص لأهل البيت والسر العام لسائر المؤمنين ، ومن أُكرم بسر أهل البيت دون الثاني .. لم ينقص عليه شيء ، ومن أُكرم بالثاني

دون الأول .. نقص عليه كثير من مواجيدهم وأذواقهم الشريفة ، ولطائفهم المنيفة ، ومعارفهم الصافية العفيفة ، ثم الحشر في زمرتهم ، ودخول الجنة في وفدهم .

ولا شك أن سرهم لا يوجد إلا عندهم ، وإن وُجِد عند غيرهم .. فبواسطتهم ؛ فمن ثَمَّ يُقال : (مددهم منهم) وهذا السر المخصوص يكون عند الأكابر منهم ؛ لا يودعونه إلا لأهله .

ولهم رضي الله عنهم طرق خاصة ، وسِيَرْ مشهورة ممتازة عن سائر الطرق والسِيَرْ ، ولهم اصطلاحات في أعمالهم معروفة ؛ يعرفها من طالع تراجمهم ومارس كتبهم ووصاياهم ؛ فلله ربنا الحمد حيث أكرمنا بحبهم ، وجعلنا من الآخذين عنهم ، والمتمسكين بهم ، وقد قيل : (محب القوم منهم) ، (ومن كثَّر سواد قوم .. فهو منهم) فهم الفرقة الناجية في الحديث الصحيح من بين سائر الفرق ، وإلى ذلك أشار سيدنا القطب الغوث الوارث الكامل خاتمة المحققين الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه :

فهـــــمُ القـــــومُ الـــــذينَ هُـــــدُوا وبفضـــــــلِ اللهِ قـــــــدْ ســـــــعِدُوا
ولغـــــيرِ اللهِ مـــــا قصـــــدُوا ومـــــعَ القـــــرآنِ فـــــي قـــــرَنِ

وصاحب الأنفاس رضي الله عنه ونفعنا به : السيد الشريف ، العالم العامل ، الكامل الواصل ، الذائق المتحقق بعلم الحقائق والرقائق ، الحبيب عبدالرحمن بن مصطفى بن شيخ بن محمد المصطفى بن زين العابدين ابن الشيخ عبدالله ابن الشيخ شيخ ابن الشيخ عبدالله ابن الشيخ شيخ الثاني ابن القطب الغوث الفرد الجامع المجمع على ولايته وقطبيته وفردانيته ، أستاذ العارفين ، وإمام الواصلين ، وسلطان الصوفية المحققين ، الجامعين بين علمَي الظاهر والباطن ، الحبيب عبدالله بن أبي بكر العيدروس رضي الله عنه .

ثم إن نسبته رضي الله عنه إلى الأستاذ الأعظم ، سيدنا الفقيه المقدَّم رضي الله عنه .. شهيرة كشمس الظهيرة ، ونسبة سيدنا الأستاذ الأعظم رضي الله عنه إلى سيدنا الحسين بن علي وابن سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها .. لا يكاد يجحدها ولا يشك فيها إلا منافق مرتاب ، وقد خالف السنة والكتاب ؛ فالإناء

يرشح بما فيه ، والابن سِر أبيه ، وما انفلتت هذه العصابة العلوية عن العلم والعمل ، ولم يتطرق اليها خلل .. حتى وضعت قدم النهاية على قدم البداية المحمدية ؛ فربطت الأسرار بشمس الأنوار ، وأدت الأمانات إلى أهلها ؛ فبقي سر حياة الخصوصية متصلاً اتصال الماء بعروق الشجرة ، من الأصل إلى الفرع والثمرة .

ولنشرع في المقصود ، مستعينين بالمعبود ، راجين منه صلاح وحسن القصود ، في الصدور والورود ، سائلين منه تعالى أن يوفقنا للصدق والإخلاص ، ويمنَّ علينا بالخروج عن أنفسنا والخلاص ؛ فنقول :

قال سيدنا الإمام العارف بالله والداعي اليه الحبيب عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس العلوي الحسيني رضي الله ونفعنا به :

(بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ)

ابتدأ بالبسملة ؛ لاختصاصها بالبركة في الأقوال والأعمال ، ولكونها فاتحة أم الكتاب ، ولأن معناها قيام الوجود بالذات الإلهية ، والصفة الرحمانية ، ثُمَّ قال رضي الله عنه :

١-(كنْ عبداً للهِ محضاً .. تسترِحْ)

أمر رضي الله عنه السالك أن يكون عبداً لله ؛ ليستريح من تعب الأكوان ومنها نفسُه ، وبيَّن أن الراحة في العبودية المحضة ، وقوله : (كُنْ) أي : اجعل جميع كونيتك عبودية لا تشُبْها بشيء من أوصاف الربوبية ، وقوله : (للهِ) أي : للذات الإلهية ، الجامعة للأسماء الإلهية ؛ فتعطي كل اسم من عبوديتك حقه ، وهذه رتبة عالية لا يتصف بها إلا أهل الكمال ؛ لأن دوام شهود الحضرة الإلهية بجميع أوصافها وأسمائها بكمال العبودية المحضة .. عسِرٌ ثقيل ، لكن فيه راحة للعبد من تعب الأكوان ، وضيق الزمان والمكان ، وحصر النفس في مطالعة الأكوان .

غير أن العبد حينئذ مستريح بالنسبة لغيره ، وإلا .. فهو غريق المطالعة للصفات ، حريق المشاهدة للذات ؛ فلو فرضنا أنه فيه شعور بوجوده مع شهوده .. لأدرك أنه في غاية الراحة .

نعم ؛ إن رجع من هذه الجمعية ، وبقيت فيه من أنوار تلك المطالعة والمشاهدة بقية .. نظر إلى الأكوان وإلى نفسه بالتلاشي ، وأنها لا شيءٌ .. استراح من معاناتها ، ومقاساة حالاتها ؛ فكأنه ليس في الأكوان ، ولا في الزمان والمكان .

وقوله : (**محضاً**) أي : صافياً خالصاً ، ولا تتمحض العبودية للحضرة الإلهية إلا بدوام المجاهدة واتصال المكابدة ، ثم مع ذلك لابد من شروق أنوار التوحيد ، في قلب ذلك العبد السعيد ؛ لتحرق تلك الأنوار ما لا تقدر على استئصاله المجاهدة من الآثار ، واستمرارُ المجاهدة مع شروق الأنوار .. يُظهر ما خفي ودق من أخلاق النفوس ؛ لأنها تتجدد بتجدد الأنفاس ، وتستمد من الأكل والشرب ومخالطة الناس ، وما يرد عليها من منافذ الحواس .

ثم مع استمرار المجاهدة كذلك لابد من موالاة الأذكار آناء الليل والنهار ؛ لأن بالذكر يتبين خفي دسائس النفوس ؛ فتحرقها حينئذ أنوار التوحيد ، وهكذا إلى أن تكمل في العبد جميع أخلاق العبيد ؛ فيقال فيه : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ و ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي : راجع من مشاهدة العبودية ، إلى الجمع في حضرة الربوبية ؛ فهو بين منزلتين : إن نزل من جمعيته بالربوبية .. بقي في رتبته بالعبودية ؛ فبعبوديته يعيش ، وبجمعيته يفنى بالكلية ، ويخرج عن الفريش ، ولا ثَمَّ إلا عظْم وريش .

ومن استغرقته جمعيته ، حتى أذهلته عن عبوديته .. فليس بكامل ؛ إنما الكامل الذي مدحه الله في الكتاب بقوله : ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، والأواب هو الذي أدَّى جميع الحقوق بظاهره ، ولم يغب عن الحقيقة بسرائره .

نعم ؛ إن استغرقته جمعيته حيث لا حق ولا خلق .. فهذا لابأس به عند بعض أهل الصدق ؛ كما أشار إلى ذلك في حديث : «**لِيْ وقتٌ لا يسعُني فيهِ غيرُ ربيْ**» .

ثم قال رضي الله عنه ونفعنا به :

٢-(كلُّ حالةٍ لمْ تلاحظْها عنايةُ اللهِ .. فهيَ خُذلانٌ)

المراد بالحالة هنا : ما يباشره السالك من أحوال السلوك ؛ فإن كانت مصحوبة بعناية الله .. فهي من التوفيق ، وإلا .. فهي من الخذلان ؛ والمراد بعناية الله في الأحوال أن تكون محفوظة من الرياء والعجب والبدعة ، وأن تكون على سعة من العلم وتمسك بالمشايخ ؛ فإذا خلت عن ذلك كله أو بعضه .. فلا وثوق بها .

ثم علامة ملاحظة عناية الله للأحوال .. أن لا تكون معها فترة ، بل يبقى السالك في السير مجداً مشمراً ، وأن تكون تلك الأحوال مقوِّية ومعينة على الترقي ؛ فإذا ارتقى منها إلى أعلى منها وأصفى وأوسع .. كان ذلك دليلاً على ملاحظة عناية الله فيها ... وهكذا ؛ لأن الاغترار في السلوك له أبواب كثيرة ، وأسباب شهيرة ، لا يعرفها إلا الواصلون ، ولا وصول للعبد إلى حضرة الرب إلا بتمحض العبودية وخلوصها من شوائب رعوناتها ودسائسها ، وقد قيل :

لَمَّا بلغْنَا بالنفوسْ ما شقْ نلْنا المُنى

فلا تظننَّ أن العبد ينتهي إلى حضرة الرب ، وهو غير مهذب الأخلاق ؛ فإن الله عز وجل ما مدح نبيَه صلى الله عليه وسلم إلا بالخُلق العظيم والتنزيه من الهوى ، وبداية السلوك استرقاق العبد لحرية العلم ، حتى يصرِّفه كيف يشاء ، ثم امتثاله لأمره في العمل فرضاً وندباً ، ثم لباسه لقميص التوبة أبداً ، لا ينزعه حتى يلقى الله عزَّ وجلَّ .

ثم يقتحم عقبات النفوس بالورع والقناع ، والعفة والحياء والزهد ، والحرية عن الأطماع في الخلق ، والثقة بوعد الله ، والرجاء والخوف لله ، والصبر والشكر والرضى عن الله ، ومخالفة النفس عند امتثال أمر الله ، واجتناب نهيه ، وحسن الخلق في المعاشرة مع الخَلق ، وحفظ القلب من الظنون السيئة ، وتطهيره من الحقد والعداوة ، والمكر والخيانة والخديعة ، والحسد والحرص بوجود المال ، والحزن والأسف على فقده أو فواته .

وإلى هذا أشار سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه بقوله :

لقــــدْ علمَـــــتْ ذوو الألبــــابِ طـــــراً	بــــــأنَّ الخـــــيرَ في طلـــــبِ الكـــــمالِ
بفطـــمِ الــــنفسِ عـــــنْ مـــــألوفِ حـــظٍّ	ورفـــــضِ الفانيـــــاتِ بــــلا احتفـــــالِ
وفي ظمــــــأِ الهواجـــــــرِ واعتـــــــزالٍ	عـــــنِ الأشـــــرار مـــعْ ســــهَرِ الليـــالي
وإدمــــــــانِ التوجُّـــــــهِ بافتقــــــارٍ	وإقبــــــالٍ عـــــلى مولـــــى الموالـــــي

وحقيقة عناية حفظ الله العبد من المخالفات ، وتوفيقه إياه للصالحات ، والخذلان عكس هذه نعوذ بالله منه ، وقد قيلَ : (ما خلتْ عنه العناية هو عنا) وأدل دليل على ملاحظة العناية لأحوال العبد .. زهده في الدنيا ، وقطع طمعه مما في أيدي الناس منها ، والزهد فيها يشمل حبَّ المال والجاه جميعاً ، وقد روي عن سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ونفعنا [به] أنه قال : (شيئان الجاه والمال ؛ فمن زهد فيهما .. فهو صدِّيق) انتهى .

واعلم أن كثيراً تعبوا ، وكثيراً يُتعبون أنفسهم في أنواع العبادات ؛ من الأذكار والتلاوة والقيام والصيام وغير ذلك من ظاهر الطاعات ، ثم لا يجدون في أنفسهم شيئاً من مواجيد العارفين ، وأذواق المقربين ؛ وذلك لاستقرار حب المال والجاه أو هما جميعاً في نفوسهم ؛ فإن حب المال والجاه وأن قلَّا .. حجاب عظيم للقلب من رحمة الله المؤدية للقلب إلى حضرة الرب ؛ لأنه ورد : «**لكلِّ أمةٍ عِجلٌ ، وعِجلُ أمتي الدينارُ**» .

فمن لم يُخلِ قلبه بالكلية من حب المال والجاه .. فلا علاج لقلبه ، ولا مطمَع له في الدخول إلى حضرة الله ؛ لأن العارفين بالله والمقربين من الله .. أحرار خالصون ، صافون من الميل إلى ما سوى الله بالكلية .

وإذا أحب الله عبداً وأراد به العناية .. قلع من نفسه حبَّ الدنيا ، ثم ألهمه الطاعة ، ثم لاحظه بالعناية فيها ، حتى إذا دام يتقرب إلى الله بالنوافل ، ودامت ملاحظة العناية في أحواله .. خُلعت عليه خلعة المحبة ؛ فتذيب من الفرح والابتهاج بها قلبه ؛ فتنعدم الموجودات في وجوده ، وتنهدم المشهودات في شهوده .

فالمغبون من رضي بالدُّون ، وما أرى حب المال في البال ، ولو في بعض الأحوال .. إلا من ضعف اليقين ، وعدم إشراق شمس التوحيد على جميع عالم القلب ؛ فما دام القلب فيه شيء وإن قلَّ من حب متاع الحياة الدنيا .. فبينه وبين معرفة الله كما بين العرش والفرش ، وإلى هذا أشار سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ونفعنا به بقوله : (ولن تحل معرفة الله في القلب وفيه شيء مما سوى الله) انتهى بمعناه .

فلولا فضل الله على العارفين ؛ بإشراق نور اليقين في سرائرهم .. لما زهدوا في الدنيا ، ولولا الزهد .. لما صحت حسنة من حسناتهم ، ولولا كون ذلك الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .. لنالَهُ كل عامل وكل مدعٍ ومغرور ، لكن ومن لم يجعلِ الله له نوراً .. فما له من نور ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا .

ثم إن حب الدنيا لا يزيد العبد شيئاً في رزقه ، والزهدَ فيها لا ينقصه شيئاً منه ، وإنما الحكمة الإلهية تجلت في الوجود ؛ فهذا أعمى وهذا في غاية الشهود ، لا يُسأل عما يَفعل وهم يُسألون .

وفائدة ظهور الحكمة في الزاهد والراغب .. تفاوت الناس في العقل ، وظهور الحماقة في الحمقى ؛ فبقدر الرغبة والحب لمتاع الدنيا ينقص العقل ، حتى لا يبقى في الإنسان مثقال ذرة ؛ فبقدر الزهد والاستنكاف والميل عنه يتكامل العقل في العبد ، حتى يكون مثل الجبال بل مثل السموات والأرض ، وبقدر ما أعطي الإنسان من العقل يفهم عن الله كتابه وأمره ونهيه حتى يكون مثل الملائكة ؛ لا يكاد يفتُر عن ذكر الله لحظة ، وبالعكس ضده لا يكاد يذكر الله بقلبه وجمعيته لحظة ، وإلى معنى ما ذكرنا أشار سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ونفعنا به بقوله :

ولا يحرصْ عليها سوى أعمى البصيرةْ عديمُ العقلْ ... إلخ

وبقوله : (إن الله براها ؛ كي يميز بها بين الفريقين ؛ أهل الحمق والفطن) :

فذو الحماقةِ مَنْ قدْ ظلَّ يجمعُها يعاني السعيَ مِنْ شامٍ إلى يمنِ

إلى أن قال :

وذو الحجا يَقلِها زهداً وينبذُها وراءَهُ نبذةَ الأقذارِ في الدَّمَنِ

انتهى .

فبهذه يتبين معنى قول سيدنا المؤلف رضي الله عنه : **(كلُّ حالةٍ لمْ تلاحظْها عنايةُ اللهِ .. فهيَ خذلانٌ)** فمن يهن عليه نفسه في العمل بالعلم حتى يكون مثل التراب ؛ رغبة في وعد الله ورهبة في وعيده ، ولم تهن عنده الدنيا حتى يكون فرحه بعدمها أغلب أحواله .. فما معه في الطريق قدم ، ولا له عند أهل التحقيق علم ، بل هو في دائرة العامة وإن قام ليله وصام نهاره .

فليرمِ نفسه بين يدَي أهل الصدق والإخلاص والحق والاختصاص ، وليكن ميتاً بين يديه ، ويشكر الله الذي هداه اليه ؛ فإن الورثة المحمدية قد أُكرموا من الله بهداية الخلق الى الله ، والله تعالى أعلم .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٣-(لوْ كانتْ تنفعُهُ طاعتُكَ .. لمْ يخلقْ فيكَ سواها ، ولوْ كانتْ تضرُّهُ معصيتُكَ .. لمْ يخلقْها فيكَ ، ولكنَّ الضررَ والنفعَ عائدانِ إليكَ ، واللهُ هوَ الغنيُّ بذاتِهِ عنْ أنْ يصلَ إليهِ النفعُ منكَ ؛ فكيفَ لا يكونُ غنياً عنْ خلقِهِ جلَّ ربُنا وتعالَى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾).

قوله رضي الله عنه : **(لو كانت تنفعه طاعتك ، ولو كانت تضره معصيتك)** اعلم أنه سبحانه خلق الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وما زال غنياً عن طاعة المطيع ، وعليّاً عن ضرر العاصي ، وهو القديم الحقيقي والعالَم حادث فانٍ ؛ فمن يضره ومن ينفعه قبل خلق الطائع والعاصي ؟! فبقِدمه الذاتي الحقيقي يتبين لك غناه المطلق عمّا سواه ، وكذا بحدوث العالَم وهلاكه .

ولو فُرض أنه تنفعه الطاعة من المطيع ، وتضره المعصية من العاصي .. لم يخلق في المطيع غير الطاعة ، ولم يخلق المعصية في العاصي ؛ لقدرته على ما يشاء ، لكن متى وُجد الطائع والعاصي ؟! وأنَّى له من وجود في تجليه باسمه الأول والآخر والقديم والباقي ؟! .

وقوله : **(ولكنَّ الضرر والنفع عائدان اليك أيها العبد)** والمعنى : أن الله خلق في الإنسان أسباب الطاعة والمعصية ، وجعل له في الطاعة الصلاح والمنفعة ، وفي المعصية الهلاك والضرر في الدنيا والآخرة ؛

فالسعيد تقهره أسباب الطاعة على فعلها ، والشقي تقهره أسباب المعصية على فعلها ، وهو سبحانه يحكم بما يريد في الشقي والسعيد .

وقوله : **(والله هو الغني بذاته عن أن يصل إليه النفع منك)** ؛ وذلك لكمال وجوده ذاتاً وصفاتٍ وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ؛ فإن النفع والضرر من أوصاف الخلْق ، وقد خلقهما من العدم ؛ فكيف يحتاج إلى خلق من خلقه وهو قد كان غنياً بذاته ولا شيء معه ؟! ، ثم هو لم يزل لا شيء معه ، وما زاد في ملكه ولا تجليه بأحديته وجود الموجودات شيئاً ؛ فكأنها في حقائق العدم ، وكأنه في رتبة الأحدية وتجلي القِدم ، وما كانت الموجودات إلا أظلة لا حقيقة لها ، امتدت من أنوار الظاهر والخالق والمصور ، والفعَّال والمعطي والمانع والضار والنافع الى أجل مسمى ، ثم هي – أعني تلك الموجودات – ممحوَّة في مذاهب العارفين الذاهبين في الله إلى الله على صراط محض التوحيد ، ما برزت من كون العدم ولا شمت رائحة الوجود .

وقوله : (**فكيف لا يكون غنياً عن خلقه جلَّ ربنا وتعالى**) والمعنى : أنه تعالى لَّما كان كاملاً في وجوده ذاتاً وصفاتٍ ، وكان ولا شيء معه ، وأبدع العالَم من العدم باختياره .. لم يحتج إلى ما سواه ؛ إذ لو كان محتاجاً إلى غيره .. لكان الغير مماثلاً له في القِدم والوجود ، ولم يكن حادثاً من العدم والجحود وهذا محال ، وقد قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ومنه القِدم والبقاء ؛ فليس شيء مثله فيهما ، وقال : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فجلَّ ربنا وتعالى عن أن يُشَبَّه بخلقه .

ومَن عرفَه مِن خلقه قبل أن يخلقه ؟! ؛ فوصفه القديم الأول ما عرفه إلا هو ، وغاية معرفة العارفين به تعالى من الملائكة والنبيين والصدّيقين .. أن ثبتوا لمشاهدة أنوار أسمائه ، وطالعوا لطائف أسرار صفاته ، وما حاموا بمعارفهم حول حجُب ذاته ؛ إذ لا وجود لأحد مع الذات ، وبينهم وبين الذات حُجُب عدد

ذرات الموجودات من الأزل إلى الأبد ، ألم تر أن الكليم عليه السلام قيل له : ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ؛ أي : ترى ذاتي الحقيقية الأَحدية أبداً ؛ لأن (لن) حرف استقبال .

فهلاك العارفين في الله عند تجليه تعالى باسمه القديم الأول ؛ لأنهم لا قِدم لهم في هذا العالم ، وهكذا لا قِدم لهم في عالم تجليه باسمه الباقي الآخر ، ولهم مراتب في الوجود معلومة ودوائر موسومة .

وقوله حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ ... إلى آخره ؛ أي : غني بذاته وصفاته عن أن يؤذيَه الكفر أو يضره أو ينقص من ملكه شيئاً ؛ كما في حديث : «**لوْ أنَّ أولَكُمْ وآخرَكُمْ وإنسَكم وجنَّكم كانُوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكمْ** ... الحديث» .

فإذا فهمت أن الحاجة والفقر والضعف والحدوث والهلاك وصف هذا العالَم .. فاعلم أن الحق تعالى مباين للعالَم في جميع أوصافه ؛ فإن وُفقت للطاعة .. فاشكر الله تعالى ، وإن بُليت بالمعصية .. فافزع إلى الله تعالى بالتوبة منها .

ولا تغترَّ بطاعتك وإن خلُصتْ وصفتْ ؛ لأن قبولها عند الله بالله ومنه ، لا بكونها خالصة صافية ؛ لكونه تعالى غنياً ؛ إن شاء .. قبِلها ، وإن شاء .. ردها ؛ فقد يُكرم بعض العبيد بجُود لم تنله الطاعات المقبولة عند الله بحسنة من حسناته ، ولا تقنط أو تيأس بمعصيتك ؛ فإنه تعالى لم تُغضبه المعاصي ؛ لكونها لا تضره ، بل غضبه وصف من أوصافه القديمة كرحمته .

وإنما يقال : إنه خبأ رضاه في طاعته ، وسخطه في معصيته ؛ فقد يرضى عن العبد بغير طاعة أصلاً ، وقد يغضب عليه بغير معصية أصلاً ، هذا في ظاهر الوجود ، وأما في باطن العِلم الإلهي .. فقد أوجد هذا في دائرة الرضا وهذا في دائرة الغضب ، ولم يزل يتجلى على كل دائرة بما علم ، والله أعلم .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٤ – (أفعالُ اللهِ كلُّها حسنةٌ ؛ لأنَّها إما فضلٌ وإما عدلٌ) .

فلا يقال في شيء منها بشيء ؛ أما الفضل .. فظاهر جلي ، وأما العدل .. فالكون كله ملكه ؛ أوجده من العدم باختياره ، ليس لسواه فيه شرك ، ولا لذات الكون في ذاته مِلْك ؛ فإذا فعل في ملكه ما شاء .. فقد عدل ؛ لأنه لا يسمى ظالماً إلا مَن ظلم غيره وتصرف في ملكه ، وهو سبحانه لا سواه ، والكون ملكه واستحقاقه ، ولا يشهد أفعال الله كلها حسنة إلا أهل الكمال في اليقين والثبات والتمكين ؛ لأن حظ العبد من الرب شهوده لأوصافه ، ثم لا عليه بعد كون ظهورها في الآثار عطاءً أو منعاً ؛ فإن الشهود لا تمييز فيه ؛ لأن ذات الحق تعالى تتجلى في الصفات ؛ فلا تعدد ولا تجزي .

نعم ؛ يكون في شهود الأصاغر والضعفاء نوع تمييز بين العطاء والمنع والجلال والجمال ؛ وذلك لضعف حدقة معرفتهم عن شهود نور الذات في مطالعة الصفات ، وهذه الطائفة منهم القائلون : إن صفات الحق غير ذاته ، وأكمل منهم القائلون : إن صفات الحق لا عين ذاته ولا غير ذاته ، وهذه العقيدة الصافية بين أهل السنة ، وطائفةٌ من المحققين قائلون : إن صفات الحق عين ذاته وهذه مشهدها محق الوجود ؛ لدوام المواصلة بين أسرارهم وبين الحقيقة ، وبُعدهم عن شهود الآثار .

ثم إن قول سيدنا المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به : (**أفعالُ اللهِ كلُّها حسنةٌ** ... إلى آخرها) قال : وذلك أن عِلم الحق تعالى بالموجودات .. علم قديم اقتضى أن تجري المعلومات كما هي في علمه ؛ فالعلم يمدها ؛ إذ هو زوجُها ؛ فكما نقول : إنا لا نقول : لِمَ هذا خُلق ذكراً وهذا أنثى ، وهذا أسود وهذا أحمر وهذا بهيمة ... وهكذا في سائر تنوع الموجودات واختلافها وتفاوت خلقها وأشخاصها ؛ فلا نقول : لِمَ أعطى هذا ولِمَ منع هذا ، ولِمَ أسعد هذا ولِمَ أشقى هذا ؛ لأن عِلم المعلومات على ما هي عليه في علم الله لم يعلمه أحد .

فلو فرضنا عارفَينِ كاملينِ بالله تعالى وصفاته كمال المعرفة ، وأحدهما تجلَّى عليه بالفضل والآخر بالعدل ، ثم كشف الله لذي الفضل تجليه لذي العدل وأذاقه لذة العدل والمنع ، وأشهده حضرة قربه ووده وحبه .. لما اختار الفضل على العدل ، ولعَلِم أن تدبيره في الخلق عين الحق والكمال ، وأن عِلمه تعالى بخلقه وأحوالهم يقتضي الشكر والرضى في العدل ؛ فكيف في الفضل ؟! إذ في خفيٍّ ودقيق علم الله في المعلومات لمن كَشف الله له عن مشاهدة صفة العلم الإلهي كمال الكشف .. أذواقٌ حالية صافية ، وأسرار جلية غير متناهية ؛ فأنَّى للحادث اعتراض وانتقاد على القديم العليم الحكيم .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٥- (كلُّ ما في الوجودِ أفعَالُهُ معَ أنَّهُ حرَّمَ الفواحشَ ؛ فسلِّمْ ولا تُناقشْ) .

ومعنى أفعاله : أي : أنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله ، ولكنه حرَّم الفواحش على ألسنة الرسل ، وهذا التحريم من أفعاله ؛ فسلم لأمره ولا تناقش هذه العبارة ؛ فإنها مزلة قدم ولا تثبت فيها إلا أقدام الراسخين في العلم اللدني الإلهي ؛ فكل ما في الوجود فعله ؛ فلا تنقض فعله بفعله ، وأنت وأفعالك وأقوالك وعقائدك من فعله ؛ فسلوك سبيل السلامة أليق بذي العقل ، وهي سبيل الرسل عليهم السلام ؛ فالانقياد والتسليم لهم أولى من التفتيش ؛ لأنهم أكمل علماً وعقلاً ومعرفة وأدباً ؛ لأنهم أمناء الله تعالى على أسراره في ملكه وملكوته .

فامتثال الشريعة هو الحق ، ومخالفتها هو الباطل ؛ لأنها بعلم الله واختياره ، وما زاد الرسل ولا نقصوا باختيارهم واستقلالهم مثقال ذرة ؛ فما في الوجود فعل الله ، وتحريم الفواحش فعل الله تعالى ، فمن ادعى أنه أكمل علماً أو عقلاً من الرسل حتى أنه استحل الفواحش ، وقال : إنها من جملة خلق الله ، وجميع المخلوقات فعل الله .. فقد كفر بالرسالة ، وليس له عند الله بينة ولا دلالة ، وقد بين الله تعالى الفواحش ما

ظهر منها وما بطن على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم حتى لا تكاد تخفى على كل ذي عِلم بالكتاب والسنة ؛ فالاستقامة هي السعادة في الدنيا والآخرة ، ولها العاقبة الحسنى في الدارين ، ومن يضلل الله .. فلا هادي له ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، اللهم ؛ اهدنا فيمن هديت .

ثم قال المؤلف :

٦- (مجذوبٌ سالكٌ ، وسالكٌ مجذوبٌ ، ويجمعُ الكلَّ قولُهُ تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾) .

معنى الجذب : طي المسافة بسرعة ، والسلوك بترتيب وحط وترحال ، واقتحام حال بعد حال ، وعلى خطر غرق وأوحال ؛ فالمجذوب محمول ، والسالك سائر ؛ فالمجذوب السالك ، هو المحمول في المهالك ، وسلوكه في الجذب مروره على المسافات وحطه وترحاله ، والسالك المجذوب هو السائر بنفسه ، وإنابته في سلوكه أدته الى نهاية أهل الجذب ؛ لكونه مهدياً في سلوكه بالله .

فالأول مجتبى ؛ أي : مخصوص بالفضل والجود ، محمول إلى حضرة الشهود ، والثاني باذل للمجهود ، واصل بهداية الله وصدق إنابته إلى المقصود ؛ فالإنابة هي الحاملة على السلوك ، والهداية هي الباعثة للإنابة ؛ فكلما بردت الإنابة ورقدت .. أزعجتها وحركتها الهداية ، وكل ذلك بفضل الله وعنايته ، غير أن الأول محبوب والثاني محب مقبول المحبة ، ومثالهما مثال الراكب والسائر .

ثم إنه لابد من قطع المسافات بين العبد والمعبود للمجذوب والسالك ؛ فإذا اجتمع في العبد الجذب والسلوك .. وصل بقرب وسرعة إلى حضرة ملك الملوك ، واذا لم يحصل الجذب .. تعب القلب من عقبات النفوس ، وتقطع من خوف قطاع الطريق ، ووحشة التجريد والتعويق ، ومن هذا رجع من أثناء الطريق إلى

البطالة والأماني ، ولعدم المساعد وكون الطريق لم يُر فيه إلا اثنان أو واحد ، وإلى هذا أشار سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه في تائيته الكبرى :

خليليَّ هلْ مِنْ مُسعِدٍ منكما على ... سلوكِ سبيلٍ دارسٍ وخفيةِ

تأخرَ عنها الأكثرونَ وأعرضُوا ... ما علَمُوا في قطعِها مِنْ مشقةِ

رياضةُ نفسٍ واعتزالُ عوائدٍ ... وقطعُ حظوظٍ للقلوبِ مميتةِ

إلى أن قال :

وجمعٌ على الملأِ العظيمِ بتركِ ما ... عنِ الذكرِ يُلهيْ والتزامِ العبادةِ

فمن لا سلوك له .. لا وصول له ، ومن لم يصل .. فهو في جريدة البهائم ، ولولا مسافات النفوس .. ما تحقق سير السائرين ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٧- (العقلُ على قسمَينِ ؛ قسمٌ ينظرُ به أمرَ الآخرةِ ، وقسمٌ ينظرُ بِهِ أمرَ الدنيا ، وهوَ مِنْ نورِ الرُّوحِ ومسكنُهُ الدماغُ ، ومِنْ علاماتِ الأوَّلِ : أنكَ اذا توجهْتَ تدعو اللهَ أوْ بتوجهٍ إلى بعضِ أولياءِ اللهِ .. تكونُ ناظراً إلى جهةِ القلبِ ، وإذا كنْتَ تتفكرُ في بعضِ أحوالِ الدنيا مِنْ نحوِ فلوسٍ وغيرِها .. تكونُ ناظراً إلى جهةِ الرأسِ).

المراد بالعقل في القسمين جميعاً التمييز : فالقسم الأول هو المحمود في الدنيا والآخرة ، وهو من نور الهداية الذي يهدي الله به بعض عباده ، وهو من النور الإلهي في قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ ، ومسكن هذا النور القلب الذي هو محل الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة ، ومحل السير إلى الله ،

وهو سر في العبد في رتبة بين ثلاث مراتب : رتبةٍ تحت القلب ؛ وهي النفس الأمارة بالسوء والمائلة إلى البطالة والدعة والشهوات ، وهي معدن الغرور ومعشعَش الشيطان ، ولها تُراد المجاهدة والرياضة ، ورتبتين فوقه : وهي الروح والسر .

فالروح : هي الأمر الرباني المشار اليه في الآية : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ وهي التي تدخل الحضرة الإلهية وتشاهد ، ويكون القلب مصغياً لما تلقيه إليه من أسرار حضرة الربوبية وحفظ العلم اللدني ، والسر هو حقيقة الروح ؛ مثل القلب في الجسد والروح جسده ؛ فبقدر صفاء السر تصفو المشاهدة للروح ، وبصفاء المشاهدة يكمل شراب القلب من كؤوس العلوم الغيبية اللدنية ، ويكون حظ القلب حب التلاوة والأذكار وحضور الصلاة والأوراد .

وحظ الروح الإخلاص لله ، والذهاب في الله والغيبة به عما سواه ، وحظ السر مطالعة نور الذات في حضرة الصفات ، وملاحظة سر القدر الذي يحرم إفشاؤه لظاهر الوجود .

ثم النفس تكون في هذه الأحوال كالنار الميتة تحت الرماد ، بل تخرج منها الأخلاق المحمودة ؛ مثل صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والنصيحة للإخوان ، وقضاء الحاجات ، وستر العورات ، واحتمال الأذى من الخلق ، والعفو عنهم ، والبعد عن أذيتهم ما أمكن ، مع كمال التواضع والخمول والبذاذة في الزي ، والتعفف عن ما في أيدي الناس ، وهذه هي الكنوز التي لا تفنى ، ومنشؤها من القسم الأول من العقل .

وأما القسم الثاني الذي ينظر به إلى أمر الدنيا : شعاع يخرج من نور الروح ، يستضيء به الإنسان في مصالح ومنافع الدنيا ، وهو الذي تميز به الإنسان عن غيره من الحيوان وفضَّله الله به ، ومسكنه الدماغ ؛ فمتى خف الدماغ وييس .. نقص في الإضاءة ؛ لأن الدماغ مثل الفتيلة ، والعقل فيها مثل النور من النار ؛ فالنار مددها من الروح ، ومسكنها فتيلة الدماغ ؛ فمتى يبست من دهن الدماغ .. انطفأ النور وذهب بالكلية

؛ فمن لم يكرمه الله بالقسم الأول .. لم ينفعه الثاني ، بل يكاد الثاني يضله كما هو أصل كثير من أبناء الدنيا ، ومن أكرمه الله بالأول .. لم يفته شيء من الثاني ؛ لأن الثاني لتدبير الحياة الدنيا ، وهو مشير كيف كان ، ولا يُخلق أحد بلا دماغ ، والدماغ معدنه ، والروح تمده بشعاعها ، وأي جسم بلا روح ولا دماغ ؟!

ويتكامل القسم الثاني في الإنسان ببلوغه إلى أربعين سنة ، وبمجالسة العقلاء وممارسة أخلاقهم ، ومن أكرمه الله تعالى بالقسمين جميعاً .. صار ترياقاً لعباد الله ، بل غذاء لهم في معاشهم ومعادهم ، ينتفع به الخاص والعام ، ومن يعرفه ومن لا يعرفه .

قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٨ – (كُنْ في طاعتِكَ ناظراً إلى مِنْ دونَكَ وإلى مَنْ فوقَكَ ؛ لتشهدَ فضلَ اللهِ عليكَ وتسلمَ مِنَ العجُبِ) .

المراد بالنظر إلى الطاعة الاعتبار فيها ؛ فبالاعتبار بمن دونك في الطاعة .. تشهد فضل الله عليك بأن منَّ عليك ، وجعل من هو دونك في طاعته ، وزادك من الهمة والجد والتشمير وعظم الهمة في طلب الخير ، وتشهد نفسك بالعجز والتقصير ؛ فتسلم من العجُب بطاعتك ؛ لأنك لو لم تجد أحداً فوقك من أهل الطاعات والقربات .. لخيف عليك العجُب الذي هو أعظم من الذنوب ، ولو لم تجد أحداً دونك من أهل الطاعات .. لخيف عليك السآمة والملل ؛ فإذا توسطت بين الرتبتين .. سلمت من العجُب والسآمة ، وبقيت في السير طالباً من فوقك ، هارباً ممن دونك أن يلحق بك ؛ فهذا شيء عجيب إن تيسر ودام معه العمل ، وهو من فضل الله على العبد .

وهذه الحكمة من النصائح العزيزة ؛ فجزى الله المؤلف خير الجزاء ، وتُخص هذه النصيحة بأهل السلوك في طريق الله تعالى ، وأما الواصلون .. فقد ارتقوا من خوف الإعجاب ، وأمنوا من السآمة في

الأعمال ؛ بما سقوا من كؤوس الوصال ، ومطالعة الجلال والكمال ؛ فمذهبهم الذهاب إلى حضرة الكمال ، الجامعة للجلال والجمال ، وهمتهم صفاء الأسرار ، في حضرة الأقدار ، من ملاحظة الأغيار ، وإن كانت من الأنوار ، واستقامتها تحت تيار بحورها ؛ حتى تكون كالجبال الرواسي في البحور ؛ تجري عليها الأمواج في سائر الدهور ؛ فالتنزه من الإعجاب ، وشهود الفضل من الله في التوفيق للأعمال .. رتبة عزيزة ، لا تُنال إلا بتوفيق الله وحفظه وعنايته ، والله ولي التوفيق .

ثم قال رضي الله عنه ونفعنا به :

٩- (كُنْ في أحوالِ الدنيا ناظراً إلى مَنْ دونَكَ .. تسترِحْ ، ولا تكنْ ناظراً إلى مَنْ فوقَكَ .. تتعبْ)

.

والمراد بهذا النظر الاعتبار ؛ لأن من نظر إلى من دونه في أحوال معيشته .. استراح وشكر ، ومن نظر إلى من فوقه .. تعب ، ولا يتيسر هذا النظر والاعتبار إلا بالعقل الكامل والتوحيد الصحيح ؛ إذ الأكوان كلها مدبرة بعلم الله الأزلي ، وقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة .

فالمراد بالراحة هنا ما يباشره العبد من لذة القناعة والعفة ، والاكتفاء بعلم الله والرضاء بقسمته ؛ حيث قال : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ وعظم الأمل فيما له عند الله في الدار الآخرة ؛ لأن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، «**وما أُوتِيَ عبدٌ مِنَ الدنيا شيئاً .. إلا نقصَ بقَدْرِهِ عندَ اللهِ ولوْ كانَ على اللهِ كريماً**» كما في الحديث ، وفي الحديث : «**ما مِنْ غنيٍّ إلَّا ودَّ يومَ القيامةِ إنما أوتيَ منَ الدُّنيا كفافاً ؛ فأفٍ للدنيا وأفٍ للناظرينَ لأهلِها ، ونِعمَ الحرُّ العفيفُ القانعُ بعلمِ اللهِ ومشيئتِهِ**» وفي الحديث : «**الفقراءُ الصُبَّرُ جلساءُ اللهِ يومَ القيامةِ**» .

وكان السلف رضوان الله عليهم يفتخرون بالفقر غاية الفخر ، ومن ودَّ أن يكون غنياً وكره أن يكون فقيراً .. فقد آثر الحياة الدنيا على الآخرة ، ومن أدركه أدنى حزن على فوات شيء من الدنيا وإن عزَّ

وكثُر .. فقد خليَ قلبه من حب الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فالفرح بوجود الشيء أهون من الحزن على فواته وإن كان مما يكرهه الله .

نعم ؛ إن دام الفرح في القلب بوجود الشيء زمناً طويلاً .. استغرق من القلب وقتاً كاد أن يغفل به عن ذكر الله ، أو تخلل صلاته المفروضة وقطع حضوره فيها .. فهو مذموم كالحزن ، وإنما جعلنا الفرق بينهما لكون الإنسان مقهوراً على الفرح بالنعم ، غير أن الناس متفاوتون في ذلك .

وأما الفرح مع الابتداء بوجود النعمة لحظاتٍ خفيفة .. فلا بأس به ، ولأنه في طبع البشر إلا الأقوياء من الأولياء ؛ فإنه لا يؤثر فيهم حدوث النعمة شيئاً ؛ لخلو قلوبهم من الالتفات إلى الحياة الدنيا ، حتى أن منهم من ينسى نفسه في الأكل والشرب ؛ فإذا أُتي إليه بالأكل .. أكل وبالشرب .. شرب ، وقد كان صلى الله عليه وسلم لم يشكُ جوعاً ولا عطشاً ، وتمضي عليه الأيام الكثيرة ؛ فإن وجد طعاماً .. أكل وإلا .. سكت ، وكان يكتفي بماء زمزم شرباً وغذاء طول نهاره وليله ، وفي حديث : «**إنَّ اللهَ ليرضَى عنِ العبدِ بأكلِ الأُكلةِ فيحمدُهُ عليها** ... الحديث» ، وفي الحديث : «**إنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يَرى أثرَ نعمتِهِ على عبدِهِ**» .

وفي حديث موسى عليه السلام : «**إذا رأيْتَ الفقرَ مقبلاً .. فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ ، وإذا رأيْتَ الغنَى مقبلاً .. فقلْ : ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبتُهُ**» والشعار : ما يباشر الجسد وبشرته من اللباس ؛ وذلك عن كون الفقر أخص لباس الصالحين بين يدي الله عز وجل ؛ فمن كرهه .. فقد كره وصف الصالحين ، مدحهم الله به وأمر أنبياءه عليهم السلام بأن يرحبوا به ؛ أي : يوسعوا له في القلب من الفرح والاستبشار ، وإلى هذه الإشارة أشار بقول سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ونفعنا به حيث يقول شعراً :

أنا عبدٌ صارَ فخرِي ضمنَ فقريْ واضطرارِيْ

انتهى .

والفقر على معنيين ؛ أحدهما وهو الأعلى : افتقار العبد بكمال العبودية الى الله ؛ بحيث يكون غنياً بالله عما سواه من الوجود ، وبهذا الوصف سمي الصوفية فقراء ، وقيل فيهم شعراً :

مــــا لــــذةُ العــــيشِ إلَّا صــــحبةُ الفقــــرَا هــــمُ الســــلاطينُ والســــاداتُ والأمــــرَا

والثاني : خلو اليد من المال ؛ والمراد من هذا الفقر خفة الحساب والمناقشة والسؤال في موقف القيامة ؛ إذ لا أكمل من سيدنا عبدالرحمن بن عوف وكان من أهل بدر والسابقين الأولين ؛ فورد فيه أنه لا يكاد يدخل الجنة إلا حبواً ، وأنه آخر المهاجرين دخولاً الجنة ، وورد : يدخل الجنة بعدهم بعشرين عاماً ، وورد : آخر الصحابة دخولاً الجنة ؛ فلا شك أن يفتخر الفقراء من المال في الدنيا والآخرة ؛ أما في الدنيا .. فبالأمن والسلامة من آفات المال وتسلط السلاطين والأشرار ، ومقاساة حفظ الأموال ، ومعاناة الأجلاف والأعراب ، وهتك العروض وهتك المروءات ، واقتحام الأذيات والمشقات ؛ إذ لا يتيسر حفظ المال إلا بذلك ، إلى غير ذلك من راحات الفقراء وسكون أحوالهم ، وأما في الآخرة .. فالآيات والأحاديث في الفقراء كثيرة شهيرة ، لا تخفى على ذي بصيرة في الدين وعلم وتبين .

ثم قال المؤلف :

١٠-(وافقْ لكلِّ عملٍ بنيةٍ معَ اللهِ) .

والمراد بموافقة الكل : معاشرة الناس بحسن الخلق ، وأن تكون نيته في تلك المعاشرة مع الله لله ؛ بأن لا يداهن ولا يرائي بطاعة الله ، ولا يغش أحداً من عباد الله في مرضات غيره من خلق الله .

ومعنى كون النية مع الله : أن يكون قصده بتلك الموافقة طلب مرضات الله عز وجل ، وشهود وحدة الله فيهم ، ومطالعة تدبير الله فيهم ؛ فيترقى بمشاهدتهم إلى شهود علم الله وقدرته فيهم .

والمراد بموافقة الكل : في غير معصية الله ، أو تضييع حق من حقوق الله ، أو أذية عبد من عباد الله ، لا على الإطلاق ؛ فإن رضاء الناس غاية لا تدرك ، وفي الحديث : « **مَنِ التمسَ رضاءَ اللهِ بسخطِ المخلوقينَ .. رضيَ اللهُ عنْهُ وأرضَى عنهُ خلقَهُ ، ومَنِ التمسَ رضاءَ المخلوقينَ بسخطِ اللهِ .. سخِطَ اللهُ عنهُ وَأسخطَ عنهُ المخلوقينَ** » انتهى .

وقال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

١١- (اتخذِ الناسَ كلَّهمْ أصدقاءَ ؛ بمحبةِ الموافقينَ ومداراةِ المخالفينَ).

المراد بمصادقة الموافقين : معاونتهم وقضاء حوائجهم ، والموافقون هم المستقيمون على طاعة الله ، ثم حفظ القلب من سوء الظن بهم .

والمراد بمدارات المخالفين مراعاة أحوالهم حيث لا معصية ، ولا يسلم الإنسان مع المخالطة أبداً ، وإنما السلامة في العزلة ؛ لأن مداراة المخالفين صعبة جداً ، ولا يقدر عليها إلا من كمُل حسن خلقه ، وهانت عليه نفسه ، وصغرت الدنيا في قلبه .

وأما محبة الموافقين وصداقتهم .. فبالضرورة تكون في قلب كل مؤمن تقي ، سليم القلب ، صحيح العقيدة ، عالم بالكتاب والسنة ، مهذب الأخلاق ؛ فصحبة المتقين سعادة في الدنيا والآخرة ، والله يحب المتقين .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

١٢- (أنتَ لمْ تجدْ مِنْ نفسِكَ كلَّ ما تريدُ ؛ فكيفَ تريدُ مِنَ الناسِ كلَّ ما تريدُ ؟!) .

المعنى : أنك لا تطالب الناس بمراداتك كلها ؛ فخذ واقبل منهم ما تيسر ؛ لأنه لا يكون ذلك أبداً ، وانظر إلى نفسك ؛ فإنك لم تجد منها كل ما تريد ؛ أي : لم يتيسر لك من نفسك جميع أحوالك ؛ فإن الإنسان قد يطالب نفسه بحالة فيها صلاح معاش ، فيغلبها الكسل والعجز ، فيفوته ذلك ويندم عليه ، ولا يقدر على قهرها ثانياً وثالثاً ... وهكذا ، فإذا لم تعطه نفسه من نفسه ما فيه صلاحه وفلاحه في دنياه وأخراه .. فكيف يطمع في الخلق أن يعطوه كل ما يريد ؟! وإن كان مطلوبه ومراده من الخلق مثلاً في الدين ، بل يرى حتى في أهله وأولاده غير مايريد ؛ وهذا لكونهم مقهورين تحت القدرة الإلهية والتوفيق والمشيئة والقضاء والقدر .

وإذا لم تطع الإنسان نفسه في كل ما يريد في صلاح معاشه أو معاده .. فلا يطمع في طاعة الناس له ، مع أن الإنسان لا يخلو من عدو وحاسد ومناظر ومخالف .

والمراد من هذه الحكمة : قطع الطمع والنظر في كون الناس يعطونه كل ما يريد وإن كان من الصالحين ؛ إذ لا أكمل من الأنبياء عليهم السلام ولم يُدركوا من الناس كل ما أرادوا ، بل أُوذواً كثيراً .

ثم قال المؤلف رضي الله تعالى عنه ونفعنا به :

١٣- (العاملُ المرائيْ خيرٌ مِنَ المخلصِ البطالِ ؛ فإنَّ العملَ الصالحُ إذا استمرَ .. لابدَّ أنْ يحصلَ لهُ نورٌ بسرِّ العملِ مِنْ حيثُ ذاتُهُ ؛ فيردُّه إلى الإخلاصِ) .

وقوله : (**خيرٌ مِنَ المخلصِ البطالِ**) من أنه حفظ وقته وجوارحه من البطالة ؛ لأن البطالة لا خير فيها ، والمخلص بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ؛ فيتبين غبنه عند فوات عمره ؛ فإن دوام العمل الصالح من صيام وقيام وتلاوة واعتكاف وصدقة وحج .. له تأثير في النفس ؛ كتأثير الماء في الأرض .

ثم إن العمل لا يخلو من بعض الإخلاص في بعض العمل ؛ فلعل الله أن ينظر الى ذلك البعض له ، فيجاوز عن العبد بسببه ، فيشرق نور الإخلاص في جميع العمل ، فيرده كله الى الإخلاص ، وهذا كله إذا

دخل في الأعمال بنية خالصة ثم طرأ عليه الرياء ؛ فأما العمل الذي دخل فيه بنية الرياء .. فهو ميت لا حياة له وإن أخلص في بعضه ؛ لحديث : «**إنما الأعمالُ بالنياتِ**» ؛ فالنيات أرواح الأعمال .

وأما المخلص البطال إن تصور وجوده .. فهو أحمق مغرور ، والغالب أن المخلصين لا يكونون إلا مسارعين ومجدين ومشمرين في الإقبال على الله والدار الآخرة ؛ لأن الإخلاص من أسرار التوحيد وكماله ، ولا يكمل في العبد التوحيد حتى يكمل علماً بالله ورسله وكتبه والدار الآخرة ، ومن كان كذلك .. فبالضرورة يخلع لباس البطالة ويلبس ثياب التشمير .

ثم اعلم أن الرياء بطاعة الله مذموم بكل وجه وحال ، وقد فصل الكلام فيه بغاية البيان سيدنا الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه فجزاه الله خيراً ؛ فمن أراد أن يشفي غليله .. فليطالع ذم الرياء والعجب من «الإحياء» .

والرياء من النفاق ، ويسمى الشرك الخفي ، ومدده من حب الجاه والمال ؛ لحديث : «**حبُّ الجاهِ والمالِ يُنبتَ النفاق في القلبِ ؛ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ**» فمن أحب السلامة في أعماله من الرياء .. فليزهد في الجاه والمال ، وحديث البداية المشهور عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في صعود الحفظة بعمل العبد ..في غاية من التشديد ، ولا يخاف منه إلا الأقوياء الذين انمحت الموجودات من قلوبهم ، وتهذبت نفوسهم بالرياضات الأكيدة ، حتى امتلأت قلوبهم نوراً من مشاهدة أوصاف الحقيقة ، والله تعالى أعلم .

ثم قال المؤلف رضي الله تعالى عنه ونفعنا :

١٤- (أعطِ مَنْ يستحقُّ ومَنْ لا يستحقُّ .. يعطِكَ اللهُ ما تستحقُّ ؛ فإنَّ الجزاءَ مِنْ جنسِ العملِ ، واللهُ يضاعفُ لمنْ يشاءُ) .

والمراد : ليكن عطاؤك لله ؛ فإذا كان كذلك .. بذلته لمن كان كيف كان من غير تمييز ، وهكذا يكون جزاؤك من الحق تعالى من غير نظر إلى عملك ؛ فيعطيك سبحانه بحسب ما يليق بكرمه وجلاله ؛ لأنه الجواد المطلق الحقيقي .

ثم إنه سبحانه إنما ينظر إلى النية والهمة في العبد لا إلى الفعل ؛ فإذا علم الله تعالى بنية عبد وهمته ووجدها فوق فعله وقوله .. أعطاه ما لا يدخل في الحساب ولا يسطر في كتاب ؛ لأن خزائن جوده عن (كُنْ) ؛ فلا تنفد بالبذل والجود ؛ كما في حديث : «**لوْ أنَّ أولكمْ وآخِرَكمْ وإنسَكمْ وجنَّكمْ قامُوا فيْ صعيدٍ فسألونيْ فأعطيْتُ كلّاً مسألتَهُ** ... الحديث» ؛ فالعبد محل العطا والرب هو المعطي ، ولن يُحرَم العطا إلا شقي .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

١٥- (**المؤمِنُ ثلثاهُ تغافُلٌ**) .

أي : عن أقوال الناس وأفعالهم ، والتغافل فوق الغفلة ؛ وهو أن يسمع القول ويرى الفعل ويقول في نفسه : ما رأيت ولا سمعت ولا كان شيء ، ومعنى (ثلثاه) ؛ أي : ثلثا وقته ، وهذا في حق من يخالط الناس ، وأما من اعتزل وفرَّ بنفسه ودينه .. فجميع وقته له ، وأما المنافق .. فجميع وقته بحث وتفتيش وفتنة وهموم .

والقلب إنما يضره ما يدخل عليه من الحواس ؛ فإذا اعتزل أو تغافل .. سلم القلب واستقام ، ومخالطة الناس فتنة .

ثم قال رضي الله عنه :

١٦- (شرطُ الأُلفةِ : تركُ الكُلفةِ)

فلا تدوم ألفة مع كلفة ؛ لأن الكلفة هي أن تتكلف لأخيك ويتكلف لك ؛ أي : يتحمل مالا يطيق من الحشمة والمراقبة في القول والفعل ، وهذا يؤدي إلى كراهة واستثقال أخيك ، حتى يكاد يفرح ببُعده وغيبتك عنه .

ثم قال رضي الله عنه :

١٧- (مجمعُ الخيراتِ : صدقٌ معَ الحقِّ ، وخُلقٌ معَ الخَلقِ)

وهذا وصف عباد الله الصالحين ؛ إذ الصدق مع الله من أعلى مقامات اليقين ، وحسن الخُلق مع الخَلق .. من كمال التواضع لله والمعرفة بجلاله وهوان النفس وقطع طغيانها ورعونتها ، ولا يكون ما ذُكر إلا من سعة العلوم بالله ورسله وكتبه والدار الآخرة ، وفي ذلك جميع الخيرات الدنيوية والأخروية ، وهذا كله فضل الله يؤتيه من يشاء ويختص من يشاء ، والعلم سبب سعادة الدارين والجهل عكسه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال المؤلف :

١٨- (إيَّاكَ والتدللَ على اللهِ بطاعتِهِ ، وإيَّاكَ والتنفُّرَ منهُ معَ معصيتِهِ ، وإيَّاكَ واليأسَ على كلِّ حالٍ)

الإدلال على الله مع شهود الطاعة وكونها هي سببه .. على خطر ، والنفرة ؛ أي : الفرار منه تعالى ؛ معصيةً ؛ بأن يبقى في المعصية هارباً من التوبة تاركاً للطاعة .. ليس المراد ، بل المراد التوبة عند المعصية ، والشكر عند الطاعة ، والفرح بها من حيث إنها نعمة عاجلة وآجلة .

وأما الإدلال بها على الله ؛ بحيث تظن أنها مقبولة ، وأنه محبوب عند الله ومقرَّب له ، وأن له لدنه فضلاً بها على غيره .. فمذموم ؛ لأن قبول الطاعة مجهول ، والعلم بالسعادة عند الله والقرب منه .. مجهول .

وأما الفرار من الله عند المعصية .. فمذموم ؛ لأن بُعد العبد عن التوبة بعد المعصية ولو لحظات خفيفة .. مخوف جداً ؛ فربما يدركه الموت وهو في الفرار وعدم التوبة والعياذ بالله .

فالمحمود التوبة حالاً ، وإنْ عظُم الذنب وتعسَّرت أسباب التوبة ؛ لأن معظم أركان التوبة الندم ، والعزم على ألا يعود ، وأما رد المظالم واستحلال المظلومين .. فتكملة للتوبة ؛ وذلك من باب المؤاخذة في الآخرة ، هذا فيما بينه وبين المخلوقين ، وأما فيما بينه وبين الله الخالق .. فيكفي الندم الكلي من باطن القلب ، الثائر من الخوف والحياء من الله لا من الناس فقط ، والعزم القطعي الكلي الجزمي على ألا يعود إلى هذا الذنب ولو أن يحرق بالنار ؛ بأن يرى الذنب هو النار بنفسه ؛ فيفر من المعصية فراره من النار المحرقة ، والمياه المغرقة ، والسموم المهلكة .

وأما اليأس من رحمة الله إما عند فعل الطاعة ؛ بأن ييأس من قبولها عند الله ؛ لظنه أنها مدخولة ومعلولة ، وإما عند فعل المعصية ؛ بأن ييأس من قبول توبته والتجاوز عنه ؛ لعظم ذنبه .. فحرام ومن كبائر الذنوب القلبية ؛ لأن الله تعالى غني عن طاعة خلقه ومعصيتهم ؛ فلا الطاعة سبب رضاه ، ولا المعصية سبب غضبه ، بل رضاه وغضبه وصفان من أوصافه الذاتية ؛ فلو لم يطعه أحد ولم يعصه أحد .. كان متجلياً بوصف غضبه ورضاه في نفسه .

وما خلَق الخلق ليرضى عنهم أو يغضب عليهم ، بل خلَقهم من غير حاجة له فيهم ، ولا سبب حدث لديه اقتضى وجودهم ؛ فإن إيجاد الوجود وعدمه عنده تعالى .. بمثابة ؛ من حيث كمال ذاته وصفاته ، ومن ذا الذي يقول له : لِمَ خلقت الخلق وأنت غير محتاج اليهم ؛ بأي معنى وأي وجه من الحاجة ؟ ثم من ذا

الذي يقول له : لِمَ لمْ تخلقهم من قبل ، ولِمَ لا تهلكهم بعد ؟ فهو الخالق والمحيي والمميت ، والمبدي والمعيد ، والفعال لما يريد ، وهو مع ذلك الغني الحميد ، لا يُسْأل عما يفعل .

ومن ييأس منه عند المعصية ، ويكون آمناً مكرَهُ عند الطاعة .. فهو جاهل بالله وصفاته ، وذنب جهله بالله أعظم حجاباً عن الله من ذنب يأسه وأمنه من مكره ، ووجهه أنه لا يجوز الأمن من مكر الله للمقربين ، ولا اليأس من رحمة الله للعاصين .

هو أعلم بأن الله غني عن العالمين ، وليس المراد العلم الإجمالي الذي يرجع إلى الإيمان الذي هو التصديق فقط ، بل لابد من ذوق هذا العلم ووجدانه في القلب ضرورةً ؛ مما كشف الله للقلب من أسرار حضرته ؛ بحيث إنه وجد هذا العلم من نفسه نازلاً في سره بغير سبب ولا وسيلة ، يعلم به قطعاً على مذهب أهل الحق والسنة إن الله تعالى غني عن العالمين ، غنى مطلقاً يستوي في وجودهم وعدمهم ، وهذا العلم هو المشار اليه في آية : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ ، وحديث : «**مَنْ عمِلَ بما علِمَ .. أورثَهُ اللهُ علمَ ما لمْ يعلمْ**» وآية : ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ ، وبنيتِّه فيما بين العبد وبين الله أنه حق تقوى الله ، والعمل فيها على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثته السالكين سبيله ؛ شدة ورخاء ، وحلواً ومراً ، فإذًا من أكرمه الله تعالى بهذا العلم .. لم يأمن مكره ، وإن اشتد قربه وصفا شربه .

وأما القنوط من رحمة الله تعالى عند معصية الله .. فإنما يكون في الجهال ؛ لأن العارف بالله تعالى لا يكاد يخالف أمره طرفة عين ، ثم إن سها وغفل وخالف .. تدارك ذلك بالتوبة الصادقة الخالصة ؛ لأنه ؛ أي : العارف بالله في حضرة الله ، لا يغيب عن مراقبته ؛ لانبساط جمال الحق في جميع عوالم معرفته ؛ فلا تكاد تخطر منه خطرة أو يتنفس منه نفس أو يلحظ لحظة في غير المشاهدة والمراقبة .

ومن انبسط جمال الحقيقة على جزئياته وكلياته ، واستغرق حواسه الظاهرة والباطنة .. ذهبت ظلمة الوجود الحادث من سائر وجوده ، حتى تكاد تذهب نفسه فيفتش عنها ولا يجدها ؛ لاستئصال نور جمال الحقيقة بشريته بسيوف الفنا والذهاب في الجمال المطلق ، وقد بلغ ببعضهم هذا الحال أن ذاب جسمه جميعه ولم يُرَ منه الا مثل النخامة ، وجل جمال الحق تعالى أن يشاهد أو يطالع ؛ فمن أُكرم بلحظة أو خطرة من شهوده أو مطالعته .. ذهبت حواسه وتعطل عليه قياسه ؛ أي : ميزان عالمه الحادث ، وفنيت بشريته وهي مصطلمة لا عليه ولا له ، هذه سنة الله في خواص حضرته وأهل وده ومحبته .

ولا تدوم هذه المشاهدة والمطالعة لجمال حضرة الذات الإلهية إلا في الدار الآخرة ، ولولا وجوده وكرمه .. ما ذاق تلك اللحظة ولا الخطرة ذائق ، ومن خُصَّ بهذا الجود والكرم ولو لحظة في الحياة كلها .. فهو المنعَّم أبداً في دار القرار بلذة النظر إلى وجه الله الكريم ، بلا نهاية ولا غاية ، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بذلك آمين .

وقال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

١٧ – (ما خسرَ صاحبُ حُسنِ الظنِّ وإنْ أخطأَ ، وما استفادَ صاحبُ سوءِ الظنِّ وإنْ أصابَ) .

وفي الحديث : «**خصلتانِ ليسَ فوقَهما شيءٌ منَ الخيرِ : حسنُ الظنِّ باللهِ ، وحسنُ الظنِّ بخلقِ اللهِ ، وخصلتانِ ليسَ فوقَهما شيءٌ منَّ الشرِّ : سوءُ الظنِّ باللهِ ، وسوءُ الظنِّ بخلقِ اللهِ**» فكيف يخسر صاحب حسن الظن أو يستفيد صاحب سوء الظن وإن أخطأ الأول وأصاب الثاني ؛ لأن الخطأ في حسن الظن لا يضر ، والإصابة في سوء الظن تضر ؛ لأن حقيقة الأمر لا يعلمها إلا الله ، ورب رجل ترى ظاهر فعله موجباً لسوء الظن ، وهو في الباطن على خلافه ؛ فالقطع بسوء الظن شر محض .

وأما إذا رأيت رجلاً ظاهراً فعله موجباً لخبر لحسن الظن وهو في الباطن على خلافه ؛ كالمنافقين المرائين بأعمالهم .. فالقطع بحسن الظن خير محض ؛ لأنك إنما أحسنت الظن بسبب العمل الصالح ، والعمل الصالح من ما لا تنفى محبته ومحبة أهله ، وسبب سوء الظن بخلق الله خبث القلب ؛ فإن القلب الطيب لا تخطر منه إلا الخواطر الحسنة ، فإذا خطرت السيئة .. دفعها بسلامته وطهارته ، حتى لا يكاد يعتقد في أحد شراً .

ثم قال المؤلف :

١٨- (الطرقُ إلى اللهِ لا تُحصرُ في الكثرةِ ، وأقربُها إليهِ : الذلُّ والانكسارُ والافتقارُ)

فمعنى الطرق : المسالك الموصلة للقلوب إلى حضرة الله لا تُحصر من حيث الكثرة والعدد ، بل قيل : إنها عدد أنفاس الخلائق ، وأقربها وصولاً إلى الله الذل ؛ وهو ضد الفخر ، والانكسار ؛ وهو ضد الخيلاء والتبختر والإعجاب ، والافتقار ؛ الذي هو ضد الفخر والاستغناء والاستكبار ؛ فإن الغنى موجب للطغيان في كل إنسان إلا من عصم الله ورحم .

وكون هذه الطرق أقرب الطرق إلى الله ؛ لأنها لا تجتمع إلا في قلب زاهد في الدنيا ، قد أحرقته نيران التوحيد ، وصَفَّتْهُ من الأغيار الظلمانية ، ولينته أذكار الجلالة ؛ فصار كالثوب الخلِق ؛ إن رفعته .. لم يُرفع ولم يقبل إلا الاتضاع واللزوق بالأرض .

وكثرة الطرق إلى الله من جملة وجوه ومعان ؛ منها : أن الله خلق الخلق أطواراً مختلفة ، وأنواعاً غير مؤتلفة ؛ فلم يتفق اثنان في طريق في نفس واحد ، ولم يكونا لو اتفقا على ذوق واحد ومشهد واحد .

ومنها : أن أسماء الحق تعالى لا تتناهى في التجلي ، ولها من القلوب محل واستعداد بحسب عدم تناهيها ؛ فقد يبقى القلب في مراقبة اسم من أسمائه تعالى عمره ؛ كلما تجلى عليه بتجلي نوع له .. أظهر منه استعداداً ومحلاً لأوسع منه وهكذا .

ومنها : أن تجليات الحق بأسمائه وأوصافه في الآثار لا ؛ فكل ذرة من الوجود فيها طريق بل طرق كثيرة إلى الله تعالى ، ولما كان الحق قريباً من عباده ؛ لم يكن بينه وبينهم مسافات وحجب وصعود وهبوط وجنوب وشمال .. كانت الطرق إليه تعالى قريب لحظات خفيفة ؛ فيصل القلب إلى الرب في نفسه ولحظه ؛ وذلك بمشاهدة نور صفاته في آثار خلقه ؛ لأن الأكوان مظاهر أسمائه وأوصافه .

ومن استنار قلبه بمصباح النور الإلهي المشار اليه في آية : ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.. كانت خطراته ولحظاته طرقاً إلى الله تعالى ؛ لأن الحق لا يتجلى للعبد إلا في المظاهر الكونية ، وأما من غير مظهر .. فلا يطيقه العبد وإن عظم وتكامل قربه من الله تعالى ، غير أنها تكون له مظاهر لطيفة نورانية من عالم الملكوت .

ومن العجيب الغريب أن ذات العارف بالله وأوصافه وجميع ما اشتمل عليه وجوده .. مظهر بل مظاهر كبيرة لتجليات الحق ، والحق فيها متجلٍّ ، والعبد يصل إلى الحق تعالى بطرق أخر من مظاهر أخر ؛ فلو لم يخلق الله الأكوان إجمالاً وتفصيلاً وخلق العارف وحده .. لعرف الله بوجوده ، واستقل في معرفة الله بمظهر الحق فيه ، نفى كل عارف كل الطرق إلى الله تعالى على عددها ، ولكن الكامل يدرك ذلك أو بعضه ، والقاصر لا يدرك إلا القليل الأقل .

ثم العجب من شهود العبد كونه محجوباً وبعيداً عن الله تعالى ، ومتى طرأ الحجاب حتى يزول ؟! ومتى حدث البعد حتى يطلب القرب ؟! غير أن ركود الحواس الظاهرة وفترتها عن العمل بطاعة الله وعن حفظ الأنفاس والخواطر مع الله تعالى .. غشي عن البصيرة ، وأظلم مشاهدها كلها ، وإلا .. فلا حجاب .

فمن استيقظ بالله لله كمال اليقظة .. لم يكن له خاطر ولا نفَس ولا لحظة إلا مع الله ، حتى أن نومه ليذهب بالكلية بل أكله وشربه ، ودوام هذه اليقظة لا يكون إلا للرسل عليهم السلام وكُمَّل ورثتهم من الصدِّيقين ، نسأل الله أن يمنحنا ذلك ؛ إنه جواد كريم .

وأما الذل والانكسار والافتقار .. فهي أوصاف حميدة ، خصها المؤلف رضي الله عنه هنا بالذكر وبكونها أقرب الطرق إلى الله من جملة الطرق ، وهي تشتمل على كثير من الصفات الحميدة ، كلها طرق إلى الله .

ولما كملت معرفته صلى الله عليه وسلم بصفات الله ، وشاهدت عبوديته جميع أسماء الله ، وانحصرت تحت دائرة كماله جميع مراتب المقربين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وانبسطت في جزئياته وكلياته أنوار جمال الحضرة الإلهية .. نادى بلسان حال عبوديته وتواضعه : «**اللهمَّ ؛ أحينيْ مسكيناً ، وأمتنيْ مسكيناً ، واحشرنيْ في زمرةِ المساكينِ**» ، والمراد هنا مساكين الجود الإلهي والحضرة الإلهية ؛ فقد طلب صلى الله عليه وسلم دوام وجوده في تلك الحضرة ؛ حياة وموتاً وحشراً .

فالذل والانكسار والافتقار وغيرها من صفات المسكنة .. عوالم عظيمة لتجليات أوصاف الحق تعالى ؛ التي هي العزة والعظمة والكبرياء والغناء ؛ فإذا تكامل تجلي الحق تعالى بتلك الأوصاف على تلك الأوصاف .. اكتسبت أوصاف العبد بأوصاف الحق ، وتغطت وتوارت وانغمرت تحتها ، وخلعت عليه خلعة وصفَ : (كنتُ سمعَه وبصره ويده ومؤيده) .

ومن اتصف بضد أوصافه ؛ من الكبر والعلو والفخر والجبر .. بعُد من أوصاف الحق ومشاهدتها ، وتجلَّى عليه الحق بالانتقام ، وأهانه ومقته وحقره في أعين الموجودات ؛ فانظر ما فعل بإبليس لعنه حين تكبر واتصف بما ليس وصفه .

فحينئذ فالطرق الى الله تعالى عدد مظاهره في الوجود ، ولا تتناهى مظاهره في الدنيا والآخرة ؛ فلا نهاية للطرق إليه تعالى ؛ فليبق العبد في دائرة الانتظار والأمل والرجاء أن يفتح الله تعالى عليه بطريق واحدة أعلى التوكل تعاطي الأسباب مع الاعتماد على المسبب ؛ لتكون ناظراً إلى عالم الحكمة وعلم القدرة ، ومن جملة الرزق السبب والظهور{ ... } غالب في هذه الدار لعالم مرت معرفته إلى الأبد ؛ فمن عرفه تعالى .. لا يجهله أبداً ؛ والمراد المعرفة الخاصة ، والله تعالى أعلم .

ثم قال المؤلف :

١٩- (الحكمةُ معَ بطونِ عالمِ القدرةِ إلا عندَ خرقِ عادةٍ ، والظهورُ في تلكَ الدارِ بعدَ القدرةِ ، وعلى كلِّ حالٍ .. ففعلُ اللهِ عينُ الحكمةِ ، والكلُّ بقدرةِ الله ؛ سواءٌ ظهرتْ هذهِ وبطنَتْ تلكَ ، أوْ بطنَتْ هذهِ وظهرَتْ تلكَ ، ولهذا لابدَّ مِنَ الأسبابِ حتى في عالمَِ القُدرةِ إلَّا أنَّ الأسبابَ فيها خفيةٌ ، وإلَّا .. فهيَ موجودةٌ ، ومَنِ ادعى تركَ السببِ .. فقلْ لَهُ : كيفَ تأكلُ الرغيفَ ؟! وَكيفَ تشربُ الماءَ ؟! ونحوَهما ؛ فإنَّ جميعَ أعنيْ ما ذُكرَ مِنْ جملةِ الأسبابِ ، وسبحانَ المسببِ الفعالِ لما يُريدُ)

المراد بالأعلى الأقوى ؛ فإن ما ذُكر حال الأقوياء والأكابر ، وأدنى التوكل ترك الأسباب وعدم مباشرة ، وأما تعاطي الأسباب من غير توكل .. فذلك من شدة الحرص على الدنيا وعدم الثقة بالله تعالى ؛

فتعاطي الأسباب مع الاعتماد على المسبب .. شديد على النفس ؛ لأن في التجريد راحة للنفس من معاناة السبب ، ومعاشرة الخلق والصبر والصدق والنصح معهم ، والإحسان وإيثار حظ الآخرة على الدنيا .

نعم ؛ من كان من الأقوياء في التوكل ؛ بحيث لو دخل الأسباب لم تشغله وتركها .. فتوكله أعلى التوكل ؛ لأن مباشرة أسباب التوكل الكسب .. يورث ظلمة ؛ لكثرة مخالطة أبناء الدنيا وأهل الحرص والغفلة ، وطول الأمل ، والدخول عند أرباب الدنيا ، والنظر إلى زينتها وزهرتها ، وفي الفرار والعزلة سبب التجريد .. السلامة من ذلك كله وغيره .

وحقيقة التوكل سر من أسرار المعرفة بالله تعالى ، يختص به من يشاء ، وهو نور من الله تعالى ، أصله كمال العلم بالله وصفاته ووعده ووعيده ، وثمرته المشاهدة لأوصافه والاستغناء بذلك عما سواه حتى عن نفسه ، وعمله ترك الأسباب غالباً إلا ما أمر الشرع بفعله يفعله امتثالاً للشرع لا اختياراً للحظ العاجل ؛ كمن يتزوج طلباً للسنة وثواب التزوج والولد ، وكمن يلبس الثياب في الأعياد والجمعات للسُنة ؛ فهذا للشرع لا للحظ .

وقوله : (**ليكونَ ناظراً إلى عالمِ الحكمةِ وعالمِ القدرةِ**) فعالم الحكمة هو الأسباب ؛ فقد رتبت الحكمة الإلهية الأسباب وربطت بعضها ببعض ، وجرى بها العلم الإلهي على ما هي عليه ، وهذا مشهد واسع جلي من مشاهد التوحيد ؛ عمله التفكر في تجلي الحكمة الإلهية ؛ بحيث الآثار الكونية ، وهو طريق موصل إلى الله تعالى ، وعالم القدرة هو نفي الأسباب ؛ باستغراق النظر إلى محض القدرة الإلهية ؛ بحيث يرى أن الأسباب قد عطلتها القدرة ، وهذا مشهد أوسع من الأول وأقرب إلى شهود الذات منه ؛ فعند الاستغراق فيها تعمى البصيرة عن النظر الى الآثار جملة .

فمن جمع في توكله بين الأسباب وبين الاعتماد على المسبب .. فقد كمل له شهود الحكمة الإلهية وشهود القدرة ، ومن بقي في الحكمة دون القدرة .. فهو قاصر ، ومن استغرقه شهود القدرة .. فهو الكامل ، لكن الأكمل منه من جمع بينهما .

وقوله : **(ومن جملة الرزق السبب)** ؛ لأن الرزق ما ينفع المرزوق حساً أو معنى ، وكل وسيلة وسبب له فهي منه ، بل لا يصل الرزق إلى المرزوق إلا بعد أسباب كثيرة لا تكاد تحصى ، وبعضها أخفى من بعض حتى ينتهي الأمر إلى حضرة الأمر الإلهي ؛ فسبحان الذي أتقن كل شيء ، وحفظه وأحاط به وعلمه صغيراً أو كبيراً ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الوجود ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ .

فسبحانه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، الذي قدَّر فهدى ، وليس هذا بعلاج ولا مباشرة منه تعالى للأشياء ؛ فإنما أمره تعالى ليس كمثله شيء ؛ فتنفعل المفعولات بسريان روح العلم والقدرة فيها ؛ فالحكمة أبرزت الأشياء في عالم الظهور ، وأجرتها في مجاريها عياناً ، والقدرة بطنت فيها ؛ فظاهر الكون حكمة ، وباطنه قدرة ، ومن لم يذق ويشهد هذا في الأكوان .. فهو بهيمة ؛ فلا سبيل إلى علاجه .

فإذا نظر الغبي مثلاً إلى الشمس طلعت من مشرقها ، ثم جرت ومشت في برجها .. فقد تمت له مشاهدة القدرة في الحكمة ؛ فالحكمة بروز الشمس جارية في الآفاق والبروج ، والقدرة بطون السر الجاري بها ، وهذا أقرب دليل على وجود القادر ؛ لأن الحكمة والقدرة من أوصافه .

ثم لابد مع الحكمة والقدرة من علم وإرادة واختيار وسمع وبصر ، ثم لا بد مع هذه الصفات من وجود يسمى الذات له حياة كاملة ، وهذا علم من علوم التوكل ، ثم إنه مع هذا الوجود وصفاته لا شريك له في الملك ، وجميع ما سواه مقهورون تحت صفاته ، وهذا أيضاً هو روح التوكل وحياته .

فإذاً التوكل مقام شريف من مقامات اليقين ، وله أحوال كثيرة تختلف باختلاف الخلق ، ومن كملت فيه أحواله .. صار له مقاماً ، ومن لم تكمل فيه .. صار له حالاً ، والمقام أثبت من الحال .

فبداية التوكل بالنظر والاعتبار إلى الآثار ، ومداومة النظر إلى كلام الله تعالى بالتدبر والتفهم ومجالسة العارفين بالله والنظر إلى أخلاقهم ، ومطالعة كتب السلف وسير الصحابة وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فالمداومة على ذلك مع التحفظ من أكل الحرام والشبهات ومن المعاصي .. يشرق إن شاء الله نور الحق على القلب ؛ فيترقى به إلى مطالعة الصفات من وراء الآثار ، ولا يزال كذلك حتى يستقوي توكله .

وقوله : **(والظهورُ غالبٌ في هذهِ الدارِ لعالمِ الحكمةِ ، مع بطونِ عالمِ القدرةِ)** ؛ وذلك لكون العبد في دائرة الجسم الترابي الحسي .. يعسر عليه إدراك عالم القدرة ظاهراً ؛ كما جرت بذلك عادة الله ، حتى أن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ترتبت أولاً على عالم الحكمة ، ثم تجلت فيها القدرة ؛ كتكثير الطعام والشراب ؛ فكان صلى الله عليه وسلم يقول : «**هل من ماء ؟**» فيؤتى بقليل من الماء قدر مد أو نصف مد ؛ فيضع يده الشريفة عليه ؛ فيفور من بين أصابعه حتى يكفي الألف من الناس وغيرهم من البهائم ، وهكذا في المد من الطعام .

وفي قصة الخليل عليه السلام لما طلب ظهور القدرة في إحياء الموتى ، وكان في هذه الدار التي هي دار الحكمة ؛ فقال : ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ إلى آخر ما جاء عنه ، وفيه رده الله إلى الحكمة في القرآن المجيد .

وقوله : **(غالباً)** أي : فقد يندر ظهور عالم القدرة في هذه الدار ، لكن تكون الحكمة فيه خفية غير معدومة ؛ وذلك كخرق عادة من نبي أو ولي ؛ وذلك كأن يمشي على الماء ، أو يدخل في النار ، أو يقف في الهواء ؛ فإن الحكمة اقتضت أن يُغرق الماء ، وتحرق النار مَن يدخلها ، ولا يمسك الهواء أحداً .

ثم إن في خرق العادة ظهور عالم الحكمة بالنسبة لصاحب خرق العادة دون غيره ؛ فإنه ما جاوز عالم الحكمة ؛ لأن عالم القدرة لا يقدر على مباشرته بشر ؛ إذ لو قدر أحد .. لكان الخليل عليه السلام هو الأولى ؛ فما شاهد القدرة إلا في طي الحكمة .

وقوله : **(والظهورُ في تلكَ الدارِ لعالمِ القدرةِ)** أي : الدار الآخرة ؛ وذلك لانمحاق الجسم الترابي بالكلية وذهاب أوصافه ، حتى أنه لا مرض ثَمَّ ولا جوع ، ولا عطش ولا نوم ، ولا بول ولا غائط ولا أذى ؛ فيستحيل الجسم في حقيقة الروح في الدنيا ، والروح تكون في حقيقة السر الذي ينكشف له القدر ، وعالم الأمر موطن الروح ؛ فلذا ترى عيون الجسم الوجه الجميل الجليل الإلهي الذاتي من غير حجاب ولا نقاب .

ولأن عالم الدار الآخرة كله روحاني ، حتى إنك لو شئت أن تطوي سبعين حلة من حلل الجنة بين أصبعيك السبابة والإبهام أو تدخلها في حلقة الخاتم .. فعلت وأنت ترى وجهك في كفك وفي صدر زوجتك ، وترى مخ ساقها من وراء سبعين حلة .

وعالم الحكمة خافٍ جداً ؛ إذ لا مظهر له هناك وليس معدوماً بالكلية ؛ فكأن الإنسان في الدار الآخرة لا يخطر بباله شيء إلا كان بين يديه ، ولا يحجب عنه شيء ؛ فيرى الأقصى بين يديه كالأدنى ، حتى أن النهر يجري من عسل أو لبن تحت منزله ؛ فيخطر بباله الشرب فإذا هو بين يديه يخاطبه : اشرب مني أو يأتيه الكأس واقفاً في الهوى بين يديه من غير ظهور أحد يحمله من ملَك وغيره ، بل ظهور عالم قدرة مجردة عن الأسباب التي رتبتها الحكمة في دار الدنيا ؛ من كون الماء لا يطلع من البئر إلا بدلو وغرب وفعل وشخص ، ولا يقف إلا في إناء ، وثم يكون إناء الشراب منه ، ويقف في الهواء وحده ؛ فإن شئت .. شربته

كله هو وإناؤه ، وإن شئت تركت الإناء ؛ فيكون بترك إناء ، ويكون بشربك له لا إناء ، وعالم الحكمة تحير فيها العقول ؛ لأن القدرة وصف القادر ، وهو ليس كمثله شيء .

وقوله : (**وعلى كلِّ حالٍ .. ففعلُ اللهِ عينُ الحكمةِ**) أي : سواء كان الظهور لعالم القدرة أم لعالم الحكمة ؛ لأن الفعل فعله ؛ سواء ظهرت الحكمة أم ظهرت القدرة ؛ فالقدرة عين الحكمة والحكمة عين القدرة ، غير أن مشهد القدرة ألطف وأصفى وأخفى وأدق من مشهد الحكمة ، لكن يكون شهود عالم القدرة حكمة بالنسبة لمن يشهده ، ويكون عالم القدرة في حقه ما خفي عليه من السر الذي لم يدرك له ، فإذا كشف له وأدركه .. صار له حكمة ، وصار عالم القدرة في حقه ما وراءه ، حتى يشهد سر القدر بشهود الذات الحقيقية ؛ فحينئذ لا ينضبط له شيء ، وتتعطل عليه قوته ؛ فإن دام على ذلك .. فني وانسحق وذهب بالكلية وصار لا شيء .

فإذا فهمت قوله : (**وعلى كلِّ حالٍ** ... إلى آخره) .. عرفت أن العالم كله حكمة إلهية من كثافته إلى لطافته ، ومن ظاهره إلى خافيه ، ومن جسمانيته إلى روحانيته ، وهكذا من نور إلى نور حتى تنتهي الحكمة إلى الحكيم ، والقدرة حينئذ عين الحكمة كما قررناها من قبل ، أن صفات الحق تعالى تجتمع كلها في الصفة الواحدة التي تكون لها الظهور ؛ فيقال : وعلى كل حال .. ففعل الله عين القدرة ، وعين الحكمة ، وعين القدرة وعين الإرادة ، وعين العلم .

فالكامل يشهد جميع الصفات مندرجة في صفة الظهور من حكمة أو قدرة ؛ لأن مطالعة سره للذات فتكون مشاهدة قلبه لجميع الصفات ، ويكون وقوفه عند رتبة الصفة التي لها الحكم في الظهور من حكمة أو قدرة أو غيرهما ، وهذا كله لمن هو في مشاهدة الآثار مترقياً بها إلى الصفات ، ذاهباً منها إلى ما وراءها ، حتى يتبين له أنه الحق ؛ فيقال له : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

وأما من هو في مشاهدة الأنوار غائب عن الآثار .. فهو في حضرة : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ فلا حكمة في شهوده ، ولا قدرة في وجوده ؛ لذهاب عقله عن الحكمة ، وذوبان لبه في القدرة ؛ فما بقي معه إلا سر الروح ، يطالع به سر القدر ، ويخاطب به القادر .

وقوله رضي الله عنه : (**والكلُّ بقدرةِ اللهِ**) أي : ظهور عالم الحكمة وظهور عالم القدرة ؛ لأن ذلك عن تجلي أوصافه .

وقوله : (**سواءٌ ظهرتْ هذهِ**) أي : الحكمة (**وبطنتْ تلكَ**) أي : القدرة (**وبطنتْ تلكَ**) أي : الحكمة ؛ فبالظهور هو الظاهر ، وبالبطون هو الباطن ، والعالم كله فعله وقابل لتجليه بما شاء ، بل ما كان العالم شيئاً إلا عن تجلي الحق أصلاً ؛ فههنا يقال : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) فكل جائز وجوده فقد دخل في الإمكان ، وكل مستحيل وجوده فليس في الإمكان ، ولا مستحيل إلا وجود المثل لشيئية الحق تعالى ، وما سواه فقد دخل في الإمكان ؛ سواء كان موجوداً في الخارج أو معدوماً مما سيوجد ؛ فإن كمال صفات الحق أحاطت بإيجاد كل ممكن إيجاده ومتصور بأوصافه ؛ الخالق والمصور والمقدر والحكيم والمبدي والمعيد والمحيي والمميت وأمثالها .. اقتضت خلق كل ما يقبل الخلق ، وتصور كلما يقبل التصوير ، وتقدير كل ما يقبل التقدير وهكذا .

وليس شيء لا يقبل ما ذكر وغيره مما لا نذكره إلا المثل لشيئية الحق تعالى ؛ فإنه لا موجود إلا هو ولا معبود ولا إله إلا هو ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أي : السماوات والأرض وما بينهما ؛ لأنهما محل تجلي الحق بأسمائه وصفاته ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ أي : لو جاز وأمكن وجود أحد مع الله كمثله .. لفسد العام القابل لتجلي أوصاف الألوهية ، وبفساده تفسد الإلهية ، وبدوامه واستمراره ظهر كمال أحدية الألوهية .

ولعل مراد الشيخ الإمام حجة الإسلام سيدنا محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه بهذه العبارة .. أن كل شيء يتصور أو يتوهم أو يتخيل وجوده أزلاً وأبداً أو كائناً ومكوناً .. فقد دخل في حيز الإمكان ، وما خرج عن حيز الإمكان إلا وجود الشيء المستحيل وجوده ؛ وهو المثل لله عز وجل ؛ فإن في قدرة الله تعالى أن يجعل الذرة الواحدة ألف ألف صورة مختلفة الأشكال والأنواع ، ثم يجمعها في واحدة إن شاء ؛ فلا عجز في إمكان الأوصاف الإلهية مطلقاً ما شاءت ؛ فاختلاف الأوقات والأزمان بالتدبير الإلهي .. يدل على سعة القدرة وكمال العلم ، وقد قال تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ فلا يحيط ببعض أفعاله أحد ، فكيف يحيط بصفة فعله ، ثم أنى له دنو إلى حضرة ذاته ، ولولا ملاطفته وتنزله من علو ألوهيته لأحبابه الى حضرة صفاته .. لما وجد عارف به أزلاً وأبداً .

وقوله رضي الله عنه : (**ولهذا لابدَّ منَ الأسبابِ حتى في عالمِ القدرةِ ، إلَّا أنَّ الأسبابَ فيهِ خفيةٌ ، وإلَّا .. فهيَ موجودةٌ**) والمراد بهذا معنى قوله : (والكل بقدرة الله ؛ فلا بد من مباشرة الأسباب ؛ لأنه لا شيء يخرج من دائرة قدرة الله ، فصارت الأسباب لا تضر في التوكل ؛ لأن من شهدها خارجة عن قدرة الله .. فهو محجوب عن الله ؛ لم يذق خالص الإيمان بالله ؛ فلا بد من الأسباب ؛ أي : مباشرتها لكل أحد حتى في شهود العبد عالم القدرة ؛ فإنه يجد له أسباباً موجودة عنده غير أنها خفية بالنسبة لغيره وجلية بالنسبة له كما قدمنا .

فإذا فهمت أن الوجود لله وبالله .. تحققت أن الكل بقدرته ، وأن الأسباب من جملة الكل ؛ فلا تفرق بين السبب وترك السبب ؛ فإن ترك السبب سبب ، وفعل السبب سبب ، والكل من الترك والفعل بقدرة الله ؛ فالطريق المستقيم الأوسع الأصفى الموصل إلى السلامة ، والفوز بقرب الله تعالى ، ومجاورة الصالحين من خواص عباد الله في الدنيا والآخرة .. هو امتثال أمر الله فعلاً وتركاً ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً ونية ، وعادة وعبادة ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أكمل خلق الله علماً بالله

وبأوصاف الله وأفعال الله وتدبير الله في ملكه في الدارين ، وما أمرنا الله إلا باتباعه ، فإذاً ليس في الوجود إلا الله وأفعاله ؛ فوجب التوكل عليه والتفويض إليه والتسليم بين يديه ، ومن عجز عن ذلك .. فقد عجز عن السلامة والراحة في الدنيا والآخرة ، وقد قال سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ونفعنا به :

وحِّدِ الفردَ المهيمنَ تستريحْ   إنهُ الترياقُ للقلبِ الجريحْ

فبيَّن رضي الله عنه أنَّ من لا كمال معه في التوحيد .. فقلبه جريح ، ويكون جسمه غير مستريح ؛ فهو المريض على الحقيقة في الدنيا والآخرة إن لم يتداركه الله تعالى برحمته ، وقد تقدم الكلام على معنى الراحة في الحكمة الأولى ؛ وهي قول المؤلف رضي الله عنه : (كنْ عبداً لله محضاً .. تسترحْ) .

فإذا فهمت معنى قوله : **(فلا بدَّ منَ الأسبابِ حتى في عالمِ القدرةِ)** .. فاعلم أن العالم كله جزئياته وكلياته من بدايته إلى نهايته أزلاً وأبداً أسباب ، حتى الملائكة بأنواعها أسباب إلهية لطيفة نورانية لنفسها ولغيرها ، وكذا النوع الآدمي الإنساني أسباب لنفسه ولغيره ، وكذا السماوات والأرض والعرش وسائر الموجودات ، والمسبب هو الله ، وليس له سبب ولا هو عين السبب ؛ لأن السبب من خلقه ، وسبحانه أن يكون له علة مما سواه أو من نفسه ؛ فإن كماله في ذاته وصفاته حقيقي من جملة صفاته كوجوده وحياته ، يَعلم ذلك ضرورةً أرباب التوحيد وأكابر الأولياء من العبيد .

فالوجود كله قد عمرته القدرة ، وسرت في عروقه سريان الدم في اللحم والعروق والعظم والشعور ؛ ففي كل ذرة من الوجود وشعرة من جسد قدرته كاملة ؛ فأنَّى يخلو المعلوم من العلم ، والمقدور عن القدرة ، والمفعول من الفعل ، فدوام سريان إمداده من تلك الصفات ؛ فحينئذ يتبين معنى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾ .

فما خفي الحق تعالى على الخلق حتى يقال : ما هو ؟ ومَن هو ؟ وأين هو ؟ ، وما احتجب حتى يقال : كيف الوصول إليه ؟ ، وما بَعُد حتى يقال : كيف القرب إليه ؟ ، وما ثَمَّ سواه حتى يقال : لمن هذا الملك ؟ وعلى من أتوكل ؟ ومن أقصد ؟ ، ومن تحقق وذاق معنى هذه العبارة .. حرُم عليه المقام في الدنيا والآخرة ؛ أما في الدنيا .. فبسبب كمال لذة الاشتياق إليه ، وأما في الآخرة .. فبالنظر إليه ؛ ففي هذا التملق والتعلق والتشوق والتذوق ، وفي تلك الدار التحقق بحقائق هذا التخلق ، والله عنده حسن المآب .

وقوله رضي الله عنه : (**ومنْ أوعى .. تركَ السببَ** ... إلى آخره) أي : ومن مال إلى ترك السبب وظن أن لا سبب .. فقد جهل ؛ فلا بد من وجود السبب في كل شيء كما تقدم تقريره ؛ فكيف يأكل الرغيف ؟ أي : فحركة يده إلى أخذ الرغيف .. من السبب ، ورفعه إلى فيه ومضغه وإدارته في الفم وابتلاعه .. من السبب ، وكذلك فك وكاء السقاء وتقدم الإناء للماء وصبه ثم شربه وازدراده وإساغته .. من السبب ، وطلب الأكل والشرب ؛ ليقرَّب إليه من السبب ؛ فالوجود كله السبب ، وفتح العين وطبقها للإبصار وخوف الغبار .. من السبب ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فسبحان المسبب الفعَّال لما يريد ، وما ثَمَّ في الوجود إلا مراده .

وهذه الحكمة من أولها الى آخرها في معنى السبب ، وترك السبب مشيرة إلى التوكل وحقائقه ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فالعزة هي النور الشارق في الحكمة ، يبصره المتوكل فينام ويستريح من الهموم والأحزان ، وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ فوصف الحياة يستدعي سائر الصفات ، ونفي الموت عنه تعالى يوجب التوكل على حياته الشاملة لجميع صفاته ، والتسبيح بحمده شكراً له على كونه الكافي لعبده ؛ فلو لم يكن الرب بهذا الوصف .. لهلك العبد .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ .. خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمر له بالتوكل ؛ لكونه داعياً إلى الله ومتبعاً ، فأرشد الخلق إلى التوكل ؛ بحاله وفعله ولسانه ؛ فكان صلى الله عليه وسلم في غاية الغايات ونهاية النهايات ؛ من توكل المتوكلين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه أجمعين ، فما بعث بخراب الدنيا إلا بقوة التوكل ، فما عمَر الدنيا إلا طول الأمل والحرص على الدنيا وضعف التوكل .

فلما اطَّلع الحق على قلبه صلى الله عليه وسلم فوجده مستغرقاً فانياً ذائباً في شهود الحياة الإلهية الذاتية .. أمره بأن يظهر حاله للأمة ؛ لكونه داعياً وهادياً ومتبعاً بقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ﴾ فتجلى صلى الله عليه وسلم للخلق ذاهباً في الله راغباً فيه عما سواه ، فرأوا من شجاعته وجوده وسخاوته وسلامة قلبه وحسن خلقه ما لا تُطيقه القوى البشرية ، فعدُّوا ذلك من معجزاته ، فأتى من بعده أصحابه يمشون على سبيله في حطه ورحيله ومقيله .

فمن لم يعلم ذلك .. فليطالع السيَر الشريفة المنيفة ، ثم لينظر إلى السيَر العلوية ؛ فإنه ما يبهر العقول ؛ ففي «المشرَع الروي» الكفاية ، وفي «الجوهر» و«العِقد» ما هو الغاية ، وفي «الغُرر» ثم «الدُّرر» ، وهذا المؤلِّف رضي الله عنه ممن له القدم الراسخ في سبيل سلوك أسلافه ، والمشرب الأهنى من سلافهم في الحس والمعنى .

قال تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ ، وهذه الآية بينت جميع معاني الحكمة التي نحن بصددها في التوكل ، وهي أكمل من معاني ما قبلها ؛ لأنه أمره بشهود الذات الإلهية بكمالها في شهود أسمائها وصفاتها ، وهذا يقتضي منه صلى الله عليه وسلم العلم والاطلاع على جميع ما دخل تحت دوائر الأسماء والصفات من الوجود ؛ فيكون توكله على الله بقدر شهوده لذلك ، فلم يلحقه في توكله سواه ؛ فلهذا كان

صلى الله عليه وسلم نافراً وفاراً من ما سوى الله ، ذاهباً ومستغرقاً مع الله ، حتى لما قال له الذي أراد قتله تحت الشجرة وهو نائم لما انتبه : ما يمنعك من قتلي ؟ قال : «**اللـهُ**» فسقط السيف من يد الكافر ، وأخذه صلى الله عليه وسلم وتمكن من العدو ، فقال له صلى الله عليه وسلم : «**مَنْ يمنعُنيْ منكَ ؟**» قال العدو : كن خير آخذ ، وفي رواية : حلمُك ! ، فأطلقه صلى الله عليه وسلم وأعطاه سيفه وما خاف منه ثانياً ، وهذا من توكله على الله ؛ فإنه لما كان مشهده حينئذ الذات الإلهية .. تركه ولم يبال به .

فكان هو صلى الله عليه وسلم الأدنى في لقاء العدو إلى الضرب والطعن ، وكان بعض أصحابه يتقي به ، وهذا من انبساط أنوار الأسماء والصفات الإلهية كلها على قلبه ، وشهود سره للذات الجامعة لتلك الأسماء والصفات ، فأنزل الله تطميناً لنفسه تحت قلبه : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ فلما نزلت .. أذن لحُرَّاسه أن يبعدوا عنه وعن بابه ؛ وذلك لما اطمأنت النفس بما سكن إليها القلب ، وسكون القلب من استقرار السر في حضرة الذات الإلهية ، وهذا حاله صلى الله عليه وسلم الغالب لوقته وخطراته وأنفاسه ؛ فلذا أمره الله به ليدعو إليه بحركاته وسكناته وأقواله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي : التجلي الشارق على جميع الوجود بنور الأسماء والصفات ؛ فجميع العالم قد دخل تحت دائرة علمه بالله وصفاته ، فما خفي عليه صلى الله عليه وسلم إلا ما ليس من وصف العالم من التجليات الأحدية ؛ والمراد أن توكلك على الله في كونك في هذا العالم هو الحق المبين ؛ لأنك عرفت أن كل ما في الكون فعل الله وصفاته ، ومعرفتك هذه أصل التوكل عند رجوعك إلى الأكوان .

فالحق : هو الله ، والـمُبيْن : ظهوره وتجليه في الوجود بأسمائه وصفاته ؛ فلا باطل إلا ما سوى الله ، ولا خافي ولا معدوم إلا ما لا يقبل التجلي الإلهي عليه ؛ وهو العدم المحض ؛ فرتبة القدرة في كلام المؤلف

معنى (الحق) هنا في الآية ، ورتبة الحكمة في كلامه أيضاً معنى (المبين) ؛ فافهم ذلك وبالله التوفيق ، ومن يهدِ الله .. فلا مضل له .

، وقال المؤلف :

٢٠- (اطلبِ اللهَ ؛ سواءً كنتَ ترَى نفسَكَ صادقاً أوْ كاذباً ، اطلبِ اللهَ ؛ سواءً كنتَ ترى نفسَكَ منها متأهِلاً أو غيرَ متأهلٍ ، اهجمْ على اللهِ كهجومِ الكذابينَ ، وانظرْ ما عندَ اللهِ منْ سعَةِ فضلِهِ ، ولا تنظرْ إلى ما عندَ نفسِكَ) .

قوله : (**اطلبِ اللهَ**) أي : اقصده من حيث كونه هو الله ؛ سواء كان طلبك خالصاً أو مشوباً ؛ فإن كنت ترى نفسك صادقاً .. فهو المطلوب منك ، وسيجزي الله الصادقين بصدقهم ، وإن كنت ترى نفسك كاذباً .. فالطلب خير من البطالة ، وخير من الإعراض والغفلة عن الله تعالى ؛ فمن طلب الله بصدق .. وجده ، ومن طلبه بغير صدق .. لم يجد شيئاً ؛ لأن ما سواه تعالى لا شيء .

والمراد من كلام المؤلف رضي الله عنه إنهاض الهمة والعزمة في طلب ما عند الله ، وترك الغفلة والإعراض والبطالة .

وأما قوله : (**سواءً كنتَ ترَى نفسَكَ صادقاً أوْ كاذباً**) ؛ وذلك بالنظر إلى أحوالك ؛ فإن كانت لله ، ولوجه الله ، ومع التوبة من الذنوب ، والتورع من الشبهات ، ومن الرياء وطلب المال والجاه عند الناس .. فهذا هو الصدق .

وإن كانت مشوبة بإعراض مما ذكر وغيره ، ومع تخليط في العمل ، وعدم تورع من الشبهات ، وصدق مع المشايخ ، وزهده في الجاه والمال .. فهذا هو الكذب ، لكنه لا يخلو من لحظات وخطرات ؛ فلعل

الله ينظر إليه ويرحمه ويعصمه من ذلك ؛ فيخلص قصده لوجهه الله الكريم ، ومن دام بقرع الباب .. يرجى الوهب له من الوهاب ، وليس في الإعراض والبطالة شيء .

وقوله : (**اطلبِ اللهَ ؛ سواءً كنتَ ترَى نفسَكَ متأهلاً أوْ غيرَ متأهلٍ**) هذه مثل تلك ، إلا أن المتأهل هو الذي كملت فيه صفات الطلب ، وغير المتأهل هو الذي بقي في الأشغال والتكاسل والكسب أو الأمراض والعوائق ، وليس بكاذب كالأول ؛ فإذ أراد الله بعبد خيراً .. صحَّ جسمه وكفاه أمر معيشته ؛ بسبب أو قناعة وزهد ، ووفقه للعلم والعمل به ، ودله على أهل القرب والمحبة لله ، ونوَّر فهمه بخطاب وفهم كتابه وسنة رسوله ، ثم أنهض همته للسير اليه ؛ بقطع عقبات النفوس ؛ فهذا هو المتأهل ، وغيره من لم تكمل فيه هذه الأوصاف ؛ فليطلب الله أعرج ومعوجاً ، وصحيحاً وسقيماً ، وفارغاً ومشغولاً ، لا يترك الوقت ؛ تذهب به الأشغال والأمراض ، ولعل العُمر يمضي كله كذلك ؛ فيفوته الطلب ؛ فإذا حصل منه بعض الطلب .. أدرك ثوابه ، فإن تغمده الله برحمته وغمره برأفته .. تدارك في آخر عمره ما فات من أوله .

فالإقبال على الله بكل وجه محمود ؛ لأن من قام في وجه قلبه ذكر ربه ، وكونه مقصوداً معبوداً كريماً جواداً .. لا يخيِّبه الله عند اطلاعه على ذلك ، فإن ساعده عمل صالح .. قوي ذلك في قلبه ، وحفظه من الغفلة والأعراض ، والعلل والأمراض ؛ لأن الله لا تتعاظمه الآمال ، ولا يرد السؤال .

وقوله : (**اهجمْ على اللهِ كهجومِ الكذَّابينَ**) الهجوم : هو قوة القصد مع السير إلى الله على خطر ؛ بأن لم يكن متأهلاً ، أو كان حاله لم يتبين له ، فأَقدمَ على السير إلى الله إقدام الإنسان على الأمر الخطِر ؛ كركوب البحر في السفن الخاربة ، ودخول السيل بالسباحة ؛ فإنه إن دام هجومه .. لا بد أن يؤثر في قلبه بركة ونوراً ، وأن يقطع به مسافة بعيدة ، فإن ساعده مع ذلك العمل الصالح والشيخ المرشد بملاحظته .. يرجى له الوصول إن شاء الله تعالى .

وقوله : (**وانظرْ ما عندَ اللهِ منْ سعةِ فضلِهِ**) الذي لا يُقابل بالأعمال ، ولا يكون في مجازاة الأحوال ؛ فإن فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يدخل في القياس ، ولا ينضبط بالحواس ، ولو كان أهل الأعمال يُجازون بقدر أعمالهم .. لما وصلوا إلى غاية ، ولا انتهوا إلى نهاية ، وبقوا في مسافة التعب ، ولكن كان فضل الله في خلقه من أهل الأعمال والأحوال يعطي ومن يستحق ذرة مثل جبل ، ومن يستحق قطرة مثل بحر ؟! فلذا وصلوا إلى الله بفضل الله .

ولذا قال المؤلف : (**وانظرْ إلى ما عندَ اللهِ منْ سعةِ فضلِهِ ، ولا تنظرْ إلى ما عندَ نفسِكَ**) أي : من العمل والهمة والمجازاة لمن قضى لك حاجة ؛ فإنك ترى أن من ظل نهاره في حاجة لك .. تعطيه من حيث الأجرة كذا ، ومن حيث الهمة ألف ألف دينار .. استعظمته ، والله يعطي بالذرة أمثال الجبال ، وبالقطرة أمثال البحار ، بل يعطي ما لا يخطر في البال ، ويدخل تحت الخيال ؛ وذلك كالنبوة والولاية والقرب للملائكة من حضرته ؛ فإن ذلك كله بغير عمل ولا أمل ولا وسيلة ؛ فسبحان الجواد الذي شأنه الجود ، والبذل والسماحة للمقصود .

وهذه الحكمة كلها تشير إلى أن العبد محض محل العطاء الرباني إن تحرك أو سكن ، وهو كذلك ؛ فإن العالم منذ كان إلى حيث يكون .. وهو مغمور بالإمداد والإرفاد ، والإرشاد والإسعاد ؛ إذ تجلي الحق تعالى كله عطاء بالنسبة لأهل معرفته ، فما فيه منع من أوصاف البخلاء ؛ فمن منعه في الدنيا .. أعطاه في الأخرة ، ومن منعه هذا .. أعطاه هذا ، وما زال الكون موجوداً بالله .. فهو في عين العطاء ؛ إذ الإيجاد أكبر الإمداد .

وأما جعله كونك كذا وكذا في ظاهر التدبير .. فذلك تجليه في خلقه وأنت محل ذلك ؛ فلا التفات إلى الملائم للطباع أو غيره في الدنيا والآخرة ؛ فقد خلق تعالى بعض الملائكة نصفه من نار ونصفه من ثلج ، فلا الماء يطفي النار ولا النار تذيب الثلج .

وقوامه بالتجلي لا غيره ؛ فما زال الكون قائماً موجوداً .. فالتجلي شارق مضيء ، وأهليته للتجلي عين العطاء وإن اختلفت أذواق التجلي في المتجلَّى عليه ، فكذا قوتك وحظك من الصبر ، وكمال قوتك وحظك من الشُّكر ، وكمال قوتك وحظك من الرضى ، وكمال قوتك وحظك من الحمد ؛ فإن تجليات الحق تعالى لا تخرج هذه المعاني من تحت دوائرها .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

٢١- (ادفعْ همَّكَ باللهِ)

فإن الهم لا يندفع إلا بالله ؛ لأن الهم إنما كان من الله ولا يرفعه إلا هو ؛ فإذا طرأ عليك الهم في وقت .. فأكثر الاستغفار والرجوع إلى الله ، واعترف بين يديه بتقصيرك عن شكر نعمه ، ثم توجه إليه بقوة اضطرارك وافتقارك إليه .. في رفع همك النازل بك ، وتيقن قطعاً أنه تعالى كما أنزله بك .. يرفعه عنك ، ولا تلتفت إلى الأسباب التي تدفع الهموم إلا إن كانت محمودة شرعاً ؛ كالدعاء والصلاة والصدقة ؛ فكان صلى الله عليه وسلم إذا أحزنه شيء .. قام إلى الصلاة .

والهموم كثيرة ؛ منها محمود ومنها مذموم ، وكل هم طرأ من شيء معين .. فسبيله التأمل في ذلك الشيء ؛ فإن اقتضى السكون .. فليسكن ، وإن اقتضى الحركة .. فليتحرك من حيث لا معصية ، وأكثر الهموم الدنيوية في حال أو مال أو عيال .. سببها التقصير في القيام بحق الله فيها ، وعدم الشكر أو فعل الذنب بسببها .

وأما هموم أهل الحرص والبخل وحب المال .. فلا حصر لها ولا نهاية لها ، ولا تندفع إلا بالموت ولا يعرفون أهلها أن يدفعوها بالله ؛ لأن الله جعلها حجابهم عنه ، والهم المحمود عند نزول آفة بالمسلمين أو في الدين ، أو عند خوف من عذاب الآخرة ومواقف القيامة ونزول القبر ؛ فالهمُّ في هذه وأمثالها محمود ؛ فقد

كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان حتى قال : «**لو تعلمونَ ما أعلمُ .. لضحكْتُمْ قليلاً ، ولبكيْتُمْ كثيراً ، ولخرجتُمْ إلى الصعَدَاتِ تجْأرونَ**» .

والحزن فوق الهم ، وهو عند الصوفية ، وله أبواب في كتبهم ، وليس بشرط في كل عارف بالله ؛ فقد كان كثيرون من العارفين بالله تعالى لا يُرى عليهم شيء من الحزن ، وسبب الحزن في بعض الأولياء وعدمه في آخر ظاهر بيِّن ؛ وذلك لاختلاف مشاهدهم في حضرة الحق تعالى ، ومطالعتهم للصفات الإلهية من جمال أو جلال ، وكمال في جلال ، وجمال في جلال ، وجلال في جمال ؛ فالمحزون بكليته هو مشاهد الجلال صرفاً ، إلا أنه يخرج له قليل من تسنيم شراب الجمال ؛ ليساغ له ويعيش ، وكلما اشتد قربه وصفا شربه .. زاد حزنه وكربه ، والله تعالى أعلم .

٢٢- (إنما تنفعُ الموعظةُ مَنْ أقبلَ عليها ؛ قالَ تعالى : ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾) .

ومعنى الإقبال الإنابة ؛ فالمنيب يتشمم روائح المذكِّرين والواعظين والمخوِّفين والمشوقين ، وأما المعرض .. فتنبو عنه الموعظة ؛ كالقطر على الصفا ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ وعلي رضي الله عنهما لما أمرهما بدعوة الخلق الى الدين : «**لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً .. خيرٌ لكَ مِنْ حُمرِ النَّعمِ**» وفي رواية : «**خيرٌ لكَ مما طلعَتْ عليهِ الشمسُ**» ، فدل بهذا على أن للموعظة والدعوة قلوباً منيبة أوَّاهة مخبتة ، والإنابة إلى الله والدار الآخرة من العلامات التي ذكرها صلى الله عليه وسلم للنور ؛ الذي إذا دخل القلب .. انشرح له الصدر وانفسح .

فلا إنابة لمن لا تجافي فيه في دار الغرور ؛ إذ علامات النور في الحديث : «**التجافيْ عنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلى دارِ الخُلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ**» ، فكيف ينيب من لا يتجاف ؟! وكيف يستعد للموت من لم ينب ؟! فمن خلي عن الأولى .. فعند الثانية أبعد ، وعن النور الإلهي أخلى وأبعد ؛ فدل بهذا الحديث على أن الراغبين الثابتين الراسخين في حب الدنيا وسعة العلوم في جمعها ، والتفكر في أصناف جلبها وكيفية اقتناصها .. محجوبون ، وعلامة كونهم محجوبين بها عن الله والدار الآخرة .. عدم التأثر بالتذكر والمواعظ والزواجر من الآيات والأحاديث .

وقد بين صلى الله عليه وسلم بقوله : «**نجَى أوَّلُ هذهِ الأمةِ بالزهدِ واليقينِ ، ويهلكُ آخرُها بالحرصِ وطولِ الأملِ**» فكانوا إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول .. ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ؛ فما جمعوا وما منعوا ؛ فسبب إعراض المعرضين ، وغفلة الغافلين ، وبطالة البطالين ، وجمع الجامعين ، ومنع المانعين .. ضعف الإيمان واليقين بالله والدار الآخرة ، وإلى ذلك أشار سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه بقوله :

أمَـــا والله مـــا ســـببُ التباطـــيْ	عـــنِ المحمـــودِ مـــنْ فعـــلٍ وقـــالِ
وإيثـــارُ الثبـــاتِ عـــلى أمـــورٍ	نصـــائِحُها تقـــودُ إلى الضـــلالِ
ســـوى شـــيئينِ إمَّـــا الشـــكُّ فيمـــا	بـــهِ وعـــدَ المهـــيمنُ ذو الجـــلالِ
وإمـــا غفلـــةٌ مُزجـــتْ بحُمـــقٍ	وتهويســـاتِ بطـَّــالٍ وغـــالِ

ثم قال رضي الله عنه ونفعنا به :

٢٣- (البُعدُ معَ الصفا .. خيرٌ مِنَ القُربِ معَ الجفا) .

المراد بالبعد ترك الطاعة والعبادة والأوراد ، مع الصفا في الباطن من النفاق وسيء الأخلاق والحرص وحب الجاه ، ومع ترك المعصية ؛ فإن ذلك خير من القرب الذي هو ظاهر الطاعة ؛ من الصلاة والقراءة والصوم والاعتكاف مع الجفا ؛ الذي هو المخالفة لظاهر الشرع وباطنه ؛ فإن الجفا وإن قلَّ يوجب المقت والطرد ، والصفا يوجب القرب والحب ؛ فذرة من الجفا تكدِّر بحراً من الطاعة ، وقطرة من الصفا توجب للعبد رفع الحجاب بينه وبين الله ، وقد قيل : قطرة من الهوى تفسد بحراً من العلم ، وقطرة من حب الدنيا تفسد بحراً من العمل .

ثم اعلم أن الصفا لا يترك صاحبه بعيداً عن الطاعة ؛ لأن حركة الأعمال الصالحة من محبة الله ومعرفته ، والصفا إنما يكون عن سلامة القلب وطهارته ؛ فالقلب الطاهر السليم مطيع في كل لحظة ، والجسد الذي فيه مطيع ؛ لأن الله مدح خليله بالقلب السليم ؛ قال تعالى : ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

وكثرة العبادة مع عدم الصفا في القلب بين الله وبين العبد .. لا يكون بشيء ؛ لأن الله إنما ينظر إلى القلوب لا إلى الأعمال كما في الحديث .

ثم إن الجفا ينقص العمل المقرب إلى الله تعالى حتى يكون بعيداً ، وعكسه الصفا ؛ فإنه لا يزال يورث الصفا ويقِلُّ معه البعد ويزاد حتى يكون مقرَّباً ، وأعمال القلوب لا توازن منها ذرة جبال من أعمال الجوارح من طاعة أو معصية ، والله أعلم .

ثم قال المؤلف :

٢٤ – (قالَ بعضُ العارفينَ : رأيتُ البسملةَ شفيعةً { ... } إلَّا مَنْ أباها مِنَ المشركينَ ، ورأيتُ العزةَ قدْ قهرَتِ المؤمنينَ ؛ كما قدْ قهرَتِ الكافرينَ والجهاتُ مختلفةٌ ، ورأيْتُ الرحمةَ لا تُؤاخِذُ أحداً ، والعفوُّ لا يتعاظمُهُ ذنبٌ) .

اعلم أن العارف من جمع بين العلم الظاهر والباطن .. ، لولم يسمَّ عارفاً .. ما انفرد بأحد العِلمينِ ؛ إذ لابد من أدب الظاهر ، ولا معرفة لأدب الظاهر إلا من علم الظاهر ؛ وأعني بعلم الظاهر : القرآن والحديث ، والوعد والوعيد ، وعلم الأعمال الظاهرة والأخلاق ، والحلال والحرام .

وأما علم الباطن .. فلا وصول إليه بالكسب ، إلا أن التقوى وسيلة إلى ذوقه ؛ لقوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، ولا يسمى العارف عارفاً حتى يدخل على الله من جميع أسمائه ، ويراه متجلياً في كل ذرة من الوجود ، ويراه أقرب إلى قلبه من نفسه .

وقوله : (**رأيتُ البسملةَ شفيعةً** ... إلى آخره) اعلم أن شفاعة البسملة وسورة البقرة وآل عمران وآية الكرسي وغيرها .. مما ورد في الحديث ، بل ورد أن القرآن كله يشفع في إسقاط العقوبة عنه بعد استحقاقه لها ورفع الحجاب عنه ، أو رفع درجة الحظ عنها بذنب .

وقوله : (**إلا مَنْ أباها منَ المشركينَ**) أي : الذين نفروا عن الإيمان بالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم ، واستكبروا عن آيات الله تعالى ؛ فلا تنالهم شفاعتها .

وقوله : (**ورأيتُ العزةَ قدْ قهرَتِ المؤمنينَ ؛ كما قدْ قهرَتِ الكافرينَ**) أما قهرها للكافرين .. فظاهر ؛ فقد حجبتهم عن الإيمان والطاعات والقربات ؛ حتى حُرِموا أنوار الغيوب وأسرار الملكوت ؛ فكأنهم أنعام بل هم أضل ؛ فتراهم يسمعون كلام الله ويرون آيات الله ، ثم يعرضون عنها ؛ لما في قلوبهم من الأكنة وفي الآذان من الوقْر ؛ قال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا

﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ إلى أن قال فيهم : ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ؛ أي : القرآن ، خساراً ؛ أي : بُعداً .

فهذا قهر العزة الإلهية ، حجبهم عن معاني الكمال ، ومجالي الجلال والجمال ، وأما قهر العزة للمؤمنين .. بأن حجبهم عن كمال العلم واليقين بالغيب الذي في علم الله الذاتي ، حتى قال بعضهم : مَن أمِن على إيمانه أن يُسلب .. سُلب ، فكان شأن جميع المؤمنين الخوف وعدم الأمن من مكر الله ، فصاروا مقهورين بعزة الله ، لكن كما قال : والجهات ؛ أي : جهات القهر والمقهورين مختلفة ؛ فليس قهر الغضب كقهر الأدب ، والمؤمنون متوجهون إلى طلب الرضا والقرب في قهرهم ، والكافرون متوجهون إلى عوالم السخط والبُعد والجهل والحجاب في قهرهم ؛ فهؤلاء وجهتهم تزيدهم حباً ومنزلة عند الله ، والآخرون تزيدهم مقتاً وهواناً وبُعداً وحجاباً وجحوداً لله حتى يكادوا يظنون من كثافة الحجب وتعاظم البعد وشدة القسوة في قلوبهم .. أنْ لا ربَّ ولا إله ولا ملك لهذا العالم ؛ كما قيل عنهم : وما رب العالمين ؟ هل من إله غيري ؟ وما يهلكنا إلا الدهر .

واختلاف الجهات في تجلٍّ واحد ؛ وهو القهر من كمال الذات الإلهية ، وكذا سائر الصفات تختلف معها الجهات في الموجودات ؛ من عطاء ومنع ، وضر ونفع ، ورفع وخفض .

ثم اعلم أن قهر العزة الإلهية للمؤمنين ؛ أعني : أهل الكمال منهم ؛ كالأنبياء والأولياء .. له معانٍ أُخر غير ما ذكرنا ؛ وذلك أن قلوبهم تكاد تطير شوقاً إلى الذات الإلهية ؛ فتقهرها أنوار الصفات ؛ لترجع إلى الخدمة والعبادة ، وأن أرواحهم تكاد تفارق أجسادهم ؛ طلباً لكأس القرب والسعة الإلهية ، وخروجاً من مضيق العالم الحادث ؛ لكونها من عالم الأمر الرباني ؛ فتقهرها العزة الإلهية ، وتقص أجنحتها عن الطيران إلى سعة عالم الأمر ؛ لتمُدَّ القلب بأنوارها ، وتُمليه من أسرارها .

وأن أسرارهم تكاد تُعطِّل الروح بلذة شراب المودة من كأس الحب ؛ لتُبقي الروح في الشراب ، ويبقى السر في الذهاب ، ويكون للقلب لمع السراب ؛ فتَقْهَر العزة الإلهية بتجلي نور الكمال الإلهي ، الجامع بين الجلال والجمال لذلك السر .. عن قوة الذهاب في حيث الإياب ؛ ليمد الروح بكشف عوالم الفتوح الإلهية ، فتبقى الروح بعد ذلك مطالعة لما فُتح لها ؛ بسبب السر من كمال الذات ، ويبقى القلب مطالِعاً لما مُدَّ به من الروح من كمال الصفات ، وتبقى النفس مطمئنة بطاعة الله وخدمته ، صابرة شاكرة راضية ، حامدة قانعة زاهدة ، ذائقة واجدة ، لا تكاد تميل عن الصراط المستقيم ؛ لما قهرها من عزة الله ، وبهرها من الخُلق العظيم ، الذي تخلَّق به القلب السليم ، واللب الطاهر المستقيم .

فهذا من قهر عزة الله للمؤمنين ، ولا يزال تعالى بهم هكذا بالقهر حتى يقويهم في معرفته ؛ ليتأهلوا في دار القرار لمشاهدته .

وقوله : (**ورأيتُ الرحمةَ لا تؤاخِذُ أحداً**) أي : وهو كذلك ؛ فإن رحمته تعالى سبقت غضبه ، فتركَتْ رحمته العاصين والفاجرين يعيشون آمنين مطمئنين ، ولولا رحمته تعالى .. ما دخل الجنة عبد من عباده ؛ قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي : ما كمُل ، وقيل : وتطهَّر أبداً ، ولبقي في النقص والفساد والخُبث ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : «**لنْ يدخلَ الجنةَ أحدٌ بعملِهِ**» قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : «**وَلا أنا ؛ إلَّا أنْ يتغمدَني اللهُ برحمتِهِ**» ؛ فدخول الجنة بسبب الرحمة ، والرحمة لا تؤاخذ أحداً ؛ أي : لا تكون للعبد مؤاخَذة مع الرحمة ، فعدم المؤاخذة سبب دخول الجنة ، وسبب قبول الأعمال عند الله ، وتزكيتها لديه .

والمعنى من قوله : (**رأيتُ الرحمةَ لا تُؤاخذُ أحداً**) أنه لا تكون مع الرحمة مؤاخذة لأحد ، والرحمة صفته تعالى ، وما قام الوجود إلا بها ؛ فقال : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ

ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ ، وفي الحديث القدسي : «**إنَّ رحمتِي سبقَتْ غضبِي**» ، ومن واخذه الله في الدنيا والآخرة أو في أحداهما .. فقد أبعده عن رحمته ، وما بعُد من رحمة الله تعالى إلا الشيطان ومن تبعه .

ثم إن مؤاخذته ليست على كمال غضب الله تعالى ؛ فإن كمال غضبه تعالى لا يطيقه العالم بأسره ؛ كما أن رحمته لا تسعها الدنيا والآخرة ؛ فما تجلَّى من رحمته إلا مثل المخيط إذا وضع في اليَم .

وقوله : (**ورأيتُ العفوَ لا يتعاظمُهُ ذنبٌ**) أي : هو كذلك ؛ فهو العفو ، والعفو صفة من أوصافه ؛ ففي حديثٍ : «**لوْ أنَّ أولَكمْ وآخرَكمْ وإنسَكمْ وجنَّكمْ كانُوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكم .. ما نقصَ ذلكَ مِنْ ملكِيْ شيئاً**» أي : وذلك بتجلي العفو ؛ إذ لو كان غير ذلك .. لأهلك العالَمَ بذنب واحد من عبد واحد ؛ فلا قدر للذنوب في بساط عفوه ، ولا مؤاخذة بها في بساط رحمته ، والمراد من ذلك أن العبد إذا أذنب .. لا ييأس من الله تعالى بسبب الذنب ، بل يبقى راجياً رحمة الله وخائفاً ذنبه أن يوبقه .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

٢٥- (لا تقبلِ الكشفَ إلا بشاهدَينِ مِنَ الكتابِ والسنةِ)

حقيقة الكشف الاطلاع القلبي على بواطن الأمور ، ويقال له : الفراسة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «**اتقوا فراسةَ المؤمنِ ؛ فإنهُ ينظرُ بنورِ اللهِ**» .

وأصل ذلك أن الأمور منقوشة في اللوح المحفوظ ، وهو قطعة من نور الله ؛ فإذا دخل النور الإلهي القلب فقابل اللوح .. تراءى له من اللوح على قدر ما عنده من النور ؛ فقد يثبت في القلب ويرسخ وقد

يذهب ، وهو من أسرار الله المصونة التي ائتمنها عباده الخواص ؛ فمن دامت مشاهدته للحقيقة واستمرت مراقبته .. كان اللوح منقوشاً في زاوية من زوايا قلبه .

ومعناه أن الله يكشف للعبد من أمر الغيب مالا يقدر على الاطلاع إلا مَن كان مثله من أهل النور ؛ فيرى الشيء في ظاهر الوجود على حقيقته في اللوح ؛ فيقول : هذا من أهل النار ، ويقول : «**يطلَعُ عليكمُ الآنَ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنةِ**» ، ويقول : «**ائذنْ لهُ وبشرْهُ بالجنةِ على بلوى تصيبُهُ**» .

وهذا السر ورَّثه صلى الله عليه وسلم خلفاءه وأمته ؛ فكان الصدِّيق رضي الله عنه يقول لعائشة رضي الله عنها : (إنما هما أختاك وأخواك) ، وكان في بطن زوجته حمل ، وكانت أسماء رضي الله عنها أختها ، والثانية هي الحمل .

وكان الفاروق يقول لسارية رضي الله عنه : (الجبلَ الجبلَ) أي : ناحية الجبل ، وكان سارية إذ ذاك في حرب ، وكان الفاروق إذ ذاك يخطب على المنبر في المدينة ، وبينهما مسافات بعيدة فقطع الخطبة وتكلم في أثنائها بهذا ، ثم رجع الى الخطبة حتى عجبوا الصحابة من ذلك ، فسمع صوتَه ساريةُ وهو بذلك المحل .

ودخل على عثمان رضي الله عنه رجلٌ فقال : (يدخل عليَّ أحدُكم وفيه أثر الزنى) فقال له الرجل : (أوحيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!) ، فقال : (لا ؛ ولكن فراسة) ؛ وذلك أن الرجل مرَّ بامرأة ونال منها ما دون الفرج ، ثم دخل على سيدنا عثمان رضي الله عنه .

ودخل على بعض الأولياء يهودي فسأله عن قوله صلى الله عليه وسلم : «**اتقوا فراسةَ المؤمنِ** ... الحديث» فقال له : (لا أجيبك عن هذا الحديث حتى تخرج الزنَّار منك) فأسلم وحسُن إسلامه ، وكان من قبلُ في زي المسلمين وأعمالهم من صلاة وغيرها ، وقال : (ما أظن أن في الحنيفية مثلك) .

وفي الورثة المحمديين ما لا يُحصون ، وفي الطائفة العلوية من مشاهيرهم كثيرون ، يعرفهم من طالع سيرهم وكتبهم .

وقوله نفع الله به : (**إلا بشاهدَينِ منَ الكتابِ والسنةِ**) أي : هذا في حق نفسك ؛ فإن كان حالك القرآن وعملك السنة .. فكشفك صحيح ، ولا يتبين لك هذا حقيقة حتى ترى خطراتك وأنفاسك قرآنية إيماناً محضاً ويقيناً حقاً أن القرآن كلام الله عن الله ، وأنك تسمعه منه لا منك ولا من غيرك ، وبنية صدقك التخلق به ؛ كما قالت سيدتنا عائشة رضي الله عنها في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**كانَ خلُقُهُ القرآنُ**» ؛ فقد استوعبت رضي الله عنها كمالاته صلى الله عليه وسلم في هذه العبارة ، فلذا كان صلى الله عليه وسلم يؤثرها بالإقامة عندها في مرضه والوفاة في بيتها ، وتوفي صلى الله عليه وسلم بين نحرها وسحرها ؛ أي : ورأسه بين صدرها وبطنها .

وحتى ترى حركاته وسكناته حركاتك وسكناتك ، وأقوالك ونياتك على محض المتابعة ؛ لا زندقة ولا بدعة ولا غرور ، ولا بطالة ولا فضول ولا شهرة ، ولا رياء ولا سمعة ... ولا غير ذلك من منكرات الأخلاق والأعمال ؛ فإذا كنت كذلك .. فكشفك صحيح ، ورتبة الكشف مقوية لهمة صاحبها إلى المعالي ؛ فإن أعلى الكشف بعد اللوح المحفوظ .. مطالعة العرش ؛ لأن العالم كله منقوش فيه .

وأعلى منه مشاهدة الذات ، من وراء أنوار الصفات ، في مظاهر لطيفة ألطف من الهواء ، وأصفى من الماء ، وإلى هذه الإشارة يقول سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه :

فإذا انتهيتَ إلى الذي عرفْتَهُ ... شاهدْتَ منْ عرشٍ إلى بهموتِ
ورأيتَ سراً لم يُجِزْ إفشاءَهُ ... أهلُ الهُدى والكشفِ والتثبيتِ

وقد قال بعض أكابر العارفين رضي الله عنهم : إن العرش في زاوية من زوايا قلبي ، أو قال : من زوايا سري ؛ فإن كان من السر .. فظاهرها جلي ، وإن كان من زوايا القلب .. فرتبة عظيمة لا تخطر على بال ، **نعم** ؛ إن كان يريد بالقلب المعنى الشامل للحقائق الإنسانية .. فظاهر أيضاً .

فإذا فهمت ذلك في نفسك .. فانظره في غيرك من أهل الكشف ؛ فإن وجدت البيئة قائمة .. فاستمسك بها ، وإلا .. فسلم ولا تنتقد ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ ، وقال تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ .

واعلم أن الكشف لا يثبت في القلب ويدوم ويرسخ ويحق إلا بحفظ الجوارح كلها من الشهوات والشبهات ، وبدوام الذكر وبالجوع والعزلة ، وأقوى مدده من الجوع وأكل الحلال عند الضرورة ، وهذا هو الذي مشى عليه السلف الصالح ، وذكروه وقرأوه في كتبهم .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

٢٦- (كنْ بينَ الخوفِ وبينَ الرجاءِ)

قال الله تعالى : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ، وفي كلام العيدروس نفع الله به : قلبي بين الجلال والجمال ، ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم في جامعيته .. دائم البِشْر ، متواصل الأحزان ، كثير التبسم ، الكون بين الخوف والرجاء .. هو الكون بين الهيبة والأنس .

وهو من كمال المعرفة في العارفين ؛ لأنه تعالى مدح الأنبياء عليهم السلام بكونهم يدعونه رغَباً ورهَباً ، والرغَب : هو الرجاء ، والرهَب : هو الخوف في حضرة الدعاء ؛ الذي هو الاستعداد لتجلي

أوصاف الحق تعالى ؛ فإذا دام الرغَب والرهَب في حضرة الدعاء ؛ الذي هو الاستعداد لتجلي أوصاف الجمال والجلال .. صار أُنساً وهيبة .

فمن كان بين الأنس والهيبة .. كمُلت مشاهدته لأوصاف الحق ، واستقر سره مع الله ؛ فالأنس من مشاهدة الجلال ، ولا تصفو هذه المشاهدة للعبد حتى تتقطع عروق بشريته ، وتصفو نفسه من الهوى ، ويطيب قلبه بعد خروج الأكوان منه بالله ؛ فمن لم يكن كذلك .. فلا ذوق له هنالك ؛ لأن الدخول في حضرة الله شأن الملائكة المقربين ، ومن لم يضاهِهم من الخلق والوصف .. فهو بعيد .

وتقليل الأكل والبعد منه باب قوي للتشبه بهم ، ومداومة الذكر مع ذلك أرجى وأقرب ؛ فالخوف والرجاء ميدان عامة المؤمنين ، والقبض والبسط ميدان خاصتهم ، والهيبة والأنس ميدان المقربين ، ومشهد أهل الكمال حضرة الكمال ، لكن الغالب عليهم الوقوف بين الجلال والجمال ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه .

وفي كلام العيدروس نفع الله به : قلبي بين الجلال والجمال ؛ فالعيدروس هذا هو الشيخ الأعظم ، والعارف المهيم ، في الجلال الأقدم ، والجمال الأدوم ، العيدروس الأكبر ، سلطان الملأ القطب الغوث الفرد ، الجامع بلا نزاع ولا دفاع ، رئيس أكابر الصوفية ، وحاديهم في حضرة الوصال ، وساقيهم كؤوس الجلال والجمال ؛ عبدالله بن أبي بكر السكران ، ابن الشيخ المطلق بحر الشهود ، وحياة الوجود ، ومعدن الجود ، إمام أئمة المقربين ، ومحبوب رب العالمين ؛ عبدالرحمن السقاف رضي الله عنهم ونفعنا بهم .

وهو أعني العيدروس الأكبر جد المؤلف رضي الله عنه ، وهو فرعه وثمرته ؛ فقد بلغ هذا الإمام العظيم من مراتب القُرب ، وذهب في مذهب الحب ، وكرع من صافي الشرب ما لا يخفى ، حتى صار في ولايته وعلو مكانته في المشارق والمغارب ، وعلو الوجود وسفله ..كالشمس في الدنيا ، وهذه العبارة من كلامه رضي الله عنه ؛ وهي : قلبي بين الجمال والجلال .

وهذه رتبة هي أهنى المراتب عند العارفين ؛ فلا الجلال يحرقه ويمزقه ، ولا الجمال يطربه ويذهبه ؛ فوجهته دائماً لا تزال كذلك ، وله إلى الكمال الذي هو الجامع بين الجلال والجمال .. نزوع يكاد يغيب به عن الجلال والجمال ؛ فلذا كان لا يصبر عن السماع ، حتى أنه يأمرهم بحبسه عند السماع ، فلم يدر بنفسه إلا وهو بينهم ، وحبه السماع من نزوعه إلى ما ذكرنا ، لكن قلبه راسخ ثابت بين الجلال والجمال ؛ كما بينه رضي الله عنه .

والمراد بالجلال : مجتمع أوصاف الحق الجلالية ؛ كالقوي والعزيز ، والعلي والكبير ، والمتعال والقهار ، والجبار والمنتقم والشديد .

والمراد بالجمال : أوصاف الحق الجمالية ؛ كالرحمن والودود ، والحنَّان والجميل ، واللطيف والرؤوف ، والجواد والكريم ، والعفو والغفار والستار ... وغيرها ؛ فإذا اجتمعت هذه في قلب عبد ، وجاء على سائرها ؛ أي : الصفات الإلهية .. فهو بين الجلال والجمال .

ونحن وإن عبَّرنا عن مقام الأكابر رضي الله عنهم ، مع جهلنا بأحوالهم ، وبُعدنا عن مآلهم .. فتعبيرنا إنما هو صيانة لعباراتهم لا تحقيق لها ؛ فإنا إنما سترنا جواهر علومهم وأذواقهم ومواجيدهم ، لا إنا شرحناها وبيناها ، ولكن لما استترت عن أوهام الغافلين وعقول المحجوبين .. سلمت من القدح في أهلها ، وأما مشاربهم وملابسهم ومجالسهم .. فنرجو الله أن لا يحرمنا بركاتها وفضلاتهم منها ، وأما هممهم وإشارات قلوبهم وأسرارهم .. فبمعزل عنا ، بل لا تخطر على البال ، ولا يعلمها إلا الكبير المتعال .

وقوله رضي الله عنه : (ومن ثَمَّ ؛ أي : من كون الكمال أن يكون القلب بين الجلال والجمال .. كان صلى الله عليه وسلم لجامعيته ؛ أي : دوام كونه في حضرة الجمال والجلال .. دائم البِشر ، متواصل الأحزان ، كثير التبسم) فكان الذي يظهر على عالن بشريته ذلك ، وهو عنوان باطن الأنوار المنبسطة في قلبه وروحه

وسره ؛ فيحزن وهو في البِشْر ، ويبتسم في الحزن ، ولا يعرف ذلك فيه إلا الأكابر من الصحابة رضي الله عنهم .

فحاله صلى الله عليه وسلم مطالعة الذات سره ، ومطالعة عالم الأمر وسعته بروحه ، ومطالعة الصفات بقلبه ، ثم يتجلى هذا كله ؛ أعني : أثره في النفس ؛ فينفذ أحكام الله كما أمر الله ، ويسوِّس أمر الدين والجهاد والحروب ، ويحكم بين الناس ؛ فيُرى فيه دوام البشر ، وتواصل الحزن في حركات النفس ؛ في الجسد والقلب في وظيفته ، والروح كذلك والسر كذلك .

ولا يقدر على رتبته صلى الله عليه وسلم إلا الرسل عليهم السلام ، ولم يكونوا مثله بل غلب على ما حكى الله عنهم من الدعاء والغضب على أممهم ، ولذا أوجب الله تعالى على الخلق اتباعه حتى قال عليه السلام : «**لوْ كانَ موسى ابنُ عمرانَ حياً .. ما وسِعَهُ إلَّا اتباعِي**» ؛ وذلك لوسع دائرة قربه من الله ، وعلمه ومعرفته بالله ، وسابقته وأوليته في حضرة الله ، وكمال أدبه ومراقبته لله تعالى ؛فانسدت الطرق إلى الله دون دائرة طريقته ، وقصُرت الهمم عن إدراك الحقائق إلا من تحقيقه ؛ فكان في هذا الشأن : لو أن موسى ابن عمران في الوقت والزمان .. لم يسعه في الدخول إلى حضرة الله إلا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم .

فحال سيدنا العيدروس الأكبر رضي الله عنه وراثة عن جده صلى الله عليه وسلم ؛ فالوراثة أكمل من الكسب ، بل لا كسب إلا مع وراثة ؛ لأن من لا رأس مال له .. أين له الربح ، وكيف يتسبب وكل أهل الإسلام والإيمان والإحسان والإيقان والعيان .. تورَّثوا أسهامهم من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فمنهم من كان ميراثه الجواهر واليواقيت ، ومنهم الفضة ، ومنهم النحاس والصفر ، والتراب والبقر والغنم .

وكان – أعني سيدنا العيدروس الأكبر رضي الله عنه – لجامعيته المحمدية .. واقفاً بقلبه بين الجلال والجمال ، حتى أبدى رضي الله عنه حاله للوجود بلسانه ؛ فقال : قلبي بين الجلال والجمال ، وهذه هي الوراثة الكبرى ؛ فله المنة والفضل على عباده ؛ إذ كان يعطي الفرد منهم ؛ فلا تسعه الأكوان ، ولا يعرفه

الوقت والزمان ؛ فلو تنفس هذا الإمام العظيم بنفَس مِن نفَس جامعيته الوراثية التي وقف فيها قلبه بين الجلال والجمال .. لم يسع نفَسُه الكونَ بأسره ؛ فإنه تعالى قال في الأحاديث القدسية : «**لمْ يسعَنِيْ أرضِيْ ولا سمائِيْ ولا عرشِي ولا كرسيِيْ ، ووسعَنِيْ قلبُ عبدِي**» ، وليس ذلك العبد إلا النبي صلى الله عليه وسلم وكمَّل ورثته ؛ كمثل هذا الإمام العظيم .

فاذا لم تسع الأكوان نفَساً من أنفاسه .. فأنَّى لنا من سبيل أو دليل إلى معرفة حاله في جلاله وجماله ، إلا إن تفضل الله علينا بمحض الجود ، وأدخلنا في حضرة الشهود ، وأجلسنا على بساط القرب في حضرة الودود ، وهذا كله يدل على سعة كرم الله وجوده ، وعِظم ملكه ومملكته في تجليه لبعض عبيده ؛ فهو الحميد المجيد ؛ حمدُه مجدُه ، ومجدُه حمدُه ، وما عرفه عبدُه ، وكيف يعرفه عبده وجملة أوصافه عجز وضعف وفقر وحاجة ؟! .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونسأله الاستقامة ؛ إذ هي أعلى كرم وجود وأدوم كرامة ، في دار الدنيا و دار المقامة ، آمين . لم يتوضح لنا باقيها في النسخة التي بين أيدينا

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

٢٧-(الناسُ ثلاثةُ أقسامٍ : حَدْ جلاليْ ، وحَدْ جمالِي ، وحَدْ كمالِي ...)

المراد بالناس أهل العلم ؛ لأن الجهال أموات ؛ فقد قسمهم المؤلف رحمه الله ثلاثة أقسام ، وهو كذلك .

والمراد بالجلالي هنا : المائل إلى ظاهر الشريعة على الظاهر الذين خلت علومهم عن ذوق الحقيقة ؛ التي هي العلم الباطن ؛ فكونه جلالياً ؛ لبناء علم الظاهر على التكليف ، والتحمل والمطالبة والمؤاخذة والقصاص وإقامة الحدود وطلب الحقوق ... وغير ذلك .

والجمالي : الذي انبسط في قلبه نور الحقيقة ، ولم يلتفت إلى ظاهر علم الشريعة ، ينظر إلى حقائق الأمور وغايتها ، وما هو في نفس الأمر وهو على حق ، والأول على حق أيضاً ؛ لأن الثاني وضَع الأشياء في مواضعها ، والأول أجراها على ظاهر الحكم فيها .

ولذا قال المؤلف : **(وكمالي)** وهو الجامع بين الأمرين ؛ أي : معرفة علم الباطن والظاهر ، وهو – أي : القسم الثالث – أكمل منهما ؛ أي : الأوَّلَينِ ؛ لربطه الحقيقة بالشريعة ، والشريعة بالحقيقة ، وهذا حال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه وضع الشريعة على أسرار الحقيقة ، فلذا من خالفه في ظاهر العلم .. حرم باطنه ، ويكون في علماء أمته ورثته كذلك ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : «**العلماء ورثة الأنبياء**» .

وإنما نسب المؤلف رضي الله عنه علماء الظاهر في الجلالي ؛ من حيث ما قررناه هنا ؛ لأن تقريرنا السابق في العيدروس الأكبر رضي الله عنه غير ذلك ؛ إذ لا حَظَّ لعلماء الظاهر فيه ما لم يتأدبوا ظاهراً بالعمل بما علموا ، ويتخلقون بالأخلاق الظاهرة ، حتى يفتح الله عليهم ذلك ؛ لأن علماء الظاهر إنما حُجبوا عن علم الحقيقة ؛ لعدم مراعاتهم لآداب الشريعة ؛ بالعمل بما علموا ظاهراً وباطناً ؛ حتى لا يتساهلوا في المكروه وخلاف الأولى ؛ لأن العمل بالعلم الظاهر مفتاح قفل باب العلم الباطن .

فإذا وجدتَ العالم يقصِّر في العمل ، ويتساهل في الخلاف ، ويميل إلى ما يلائم الطبع من الرخص والتأويل ، ثم لا يطالب نفسه بما عند الله ، ويترك حظ الدنيا العاجلة ، ثم لم يكن قانعاً من متاع الدنيا بالقليل ، بل راضياً به زاهداً في الكثير فاراً منه ، مائلاً إلى الخمول والخفاء ؛ خشية إقبال الناس عليه ؛ لأن إقبالهم جالب للمال إليه والرئاسة .. فاعلم أنه ما شم شمَّة من روائح خمر علم الباطن ، فضلاً عن أن يذوق

وأن يشرب ويسكر ؛ فلذا ترى علماء الظاهر ينقمون على علماء الباطن ، وينسبون بعضهم إلى قلة العقل وقلة الحياء ، وإلى الغباوة والبلادة بل إلى الجهل .

فإذا فهمت ما قررناه .. فاعلم أن علم الشريعة بمنزلة النخل ، وعلم الحقيقة بمنزلة الثمرة ، والعمل بالعلم بمنزلة الماء للنخلة وكثرة التعهد لها وحفظها من الآفات ؛ فلا وجه لذم العلماء بعضهم لبعض ؛ لأن علومهم مترابطة لا انفكاك لها ، والمقصود كله عقلاً وعلماً الثمرة ؛ فمن امتلأ بالعلوم ثم جد وشمَّر في الأعمال الظاهرة ، وتخلَّق بالأخلاق الباطنة ، وساعده الصدق والإخلاص في نيته وعمله ، وسار على منهج أهل السنة .. فلا بد أن يُكرَم بما عند الله ، الذي لا سبيل إلى تعلمه حتى يوفقه الله لأن يجمع بين العِلمينِ ، ويعمل بالعمَلين ، ويفوز بسعادة الدارين .

ثم قال :

٢٨- (الشريعةُ كاللبنِ ، والطريقةُ كالزُّبدِ ، والحقيقةُ كالسَّمْنِ)

فالكل في نفس الأمر شريعة ، وإن شئتَ .. قلتَ : والكل في نفس الأمر حقيقة ؛ لأن اللبن صار سمناً ، والسمن كان لبناً ؛ فظهر هنا شرف العمل بالعلم ، وهو معنى الطريقة ؛ فلذا قيل : العلم يهتف بالعمل ؛ فإن أجابه وإلا .. ارتحل ، وارتحاله ذهابه عن أن يكون سمناً وإن بقيت صورته لبناً .

والطريقة : هي الحركة التي تُصَيِّر اللبن زُبداً ، وتُصَيِّر العلم عملاً ، ثم يكون العلم والحقيقة كما يكون اللبن والزبد سمناً ؛ فإذًا لابد من العلم الذي في معنى اللبن ؛ فبعدمه تنعدم الحقيقة والطريقة ، وذلك هو الموت في الجاهل ، فإذا وُجد العلم الذي في معنى اللبن .. وجب العمل ، وإلا .. ذهب .

وما زال العلم بلا عمل ولا حقيقة .. كان كاللبن ، مالم ينته إلى حقيقة السمن ؛ يخاف عليه من آفات كثيرة ؛ كما يخاف على الزبد من فساد الهواء وغيره .

وقوله : (**والكلُّ في نفسِ الأمرِ شريعةٌ**) ؛ لأنه أمر الله وجاء عنه وينتهي إليه ؛ فما زاد الرسل عليهم السلام من تلقاء أنفسهم حرفاً واحداً ، وما كانوا إلا وسائط بين الخلق والحق ؛ فهم رسل محض ؛ فمن خلي عن الشريعة .. خلي عن الحقيقة ، ومن خلي عن الحقيقة .. خلي عن الشريعة .

وكيف نميز بين علماء الشريعة وعلماء الحقيقة والكل في نفس الأمر شريعة ؟! أي : أمر إلهي شرعه الله تعالى ؛ كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ ، وهذا المثال الذي ذكره المؤلف رضي الله عنه عجيب ومثله النخلة ، وأما الشيء الذي يخرج منه اللبن .. فهو الإيمان بالقرآن والرسالة ، أصله الشهادتان وهو في مقام المنيحة التي تدر اللبن ؛ فمن أكرمه الله بالشهادتين .. فقد أدخله في دائرة السعادة ، وآمنه من الهلاك ؛ فليعرف قدر النعمة بطلب العلوم والتشمير لها ، والله أعلم .

ثم قال :

٢٩- (الجفَا .. لِـمَنْ جفا)

كما أن الجفا باطناً مع الموافقة ظاهراً .. من النفاق ؛ فالجفا هو ارتكاب المعصية ؛ كبيرة أو صغيرة في ظاهر أفعال الإنسان عند مشاهدة الناس مع الموافقة ؛ أي : الطاعة في باطن أفعاله عند الله .. غلط ؛ أي : ليس هو المأمور به شرعاً وعقلاً ؛ فإن الله أمر العبد بإصلاح ظاهره وباطنه معاً ، فإن عكس الأمر والعياذ بالله ؛ بأن أفسد ظاهره وباطنه .. فهو الفاسق الذي خرج من دائرة عباد الله المؤمنين ، وإن أصلح الظاهر وأفسد الباطن .. فهو من المنافقين ؛ كما قال تعالى فيهم : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وقال تعالى فيهم : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ .

وإن أصلح الباطن وأفسد الظاهر .. فهو الغلط ؛ لأنه تعرض للتهم ، وألقى نفسه بين ألسنة المغتابين ، وبذل عِرْضه للفاسقين ، وهذا غلط بيِّن ؛ فيجب نصح صاحبه إن علم .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

٣٠- (مَن طلبَ ما لم يُخلقْ .. تعبَ ولم يُرزقْ ؛ وهوَ الراحةُ في هذهِ الدنيا ، لكنْ أقلُّ الناسِ تعَباً في هذهِ الدنيا مَنْ يقنعُ ورضيَ)

اعلم أن الراحة في الدنيا معدومة ؛ أعني : كمال معانيها ودوامها ؛ لأن الله ركب هذه الحياة على الشقى ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ؛ فطلب الراحة فيها بعد ذلك محال ، إلا أن أقل الناس تعباً فيها أهل القناعة والرضى بالقسمة الإلهية ، بل هم في راحة ، وقال صلى الله عليه وسلم : «**الزهادةُ في الدنيا تُريحُ القلبَ والبدنَ ، والرغبةُ فيها تُكثرُ الهمَ والحزَنَ**» ، والقناعة أول قدم في الزهد ؛ فمن لا قناعة فيه .. لا زهد عنده ، ومن لا عفة فيه .. لا قناعة عنده ؛ فالعفة والحياء والقناعة من علامات الزهد في الدنيا ، وقد قال سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه :

وإنْ تــرضَ بالمقســومِ عشْــتَ مــنعَّماً وإنْ لمْ تكــنْ تــرضَ بــهِ عشْــتَ في حــزَنْ

وقال :

والــذيْ عنْــكَ يطــرحُ كــلَّ عــيْ إنَّــما هُــوْ ســكونُكَ للقضــا

وقال سيدنا القطب الحبيب أبوبكر بن عبدالله العيدروس :

إنَّ في التســليمِ راحــةً عاجلــهْ ومــنَ التفــويضِ فَيضــانُ المنــى

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إنَّ اللهَ بحكمتِهِ جعلَ الروحَ والفرحَ في الرضا واليقينِ ، وجعلَ الهمَّ والحُزنَ في الشكِّ والسخطِ**» أو كما قال ؛ فالحريص في تعب ونصب لا يعلمه إلا الله بقدر ما لديه من المال ؛ كما قال بعض السلف رضي الله عنه : (ما ازداد عبد من المال شيئاً .. إلا ازداد بقدره حرصاً) وهذه – والله – مصيبة عظيمة ، لا تُجبر ، نسأل الله العافية والسلامة .

ثم قال المؤلف :

٢٩- (رحمةُ اللهِ سبقَتْ غضبَهُ ، ومِنْ أسرارِها أَنَّهُ تعالى لمْ يقلْ : القهارُ المنتقمُ مالكُ يومِ الدِّينِ ، بلْ قالَ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾) .

وهذا في صحيح الحديث : «**إنَّ رحمتِيْ سبقَتْ غضبِيْ**» ، ومن أسرار سبق الرحمة الغضب نزول الفاتحة بالترتيب المبين لذلك ؛ إذ قال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ولم يقل : القهار المنتقم ؛ فلو قال ذلك .. لكاد أن لا ينجو أحد يوم القيامة ؛ لأن الدين هو المجازاة والمقابلة بأعمال العبد بين يدي الله ؛ فالرحمة في تجلي وصفه الملك يوم الدين .. سبقت الرحمة الغضب ، حتى نجا من نجا وفاز من فاز .

وقد قال بعض السلف : (إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا ؟!) وهو كذلك ؛ إذ المناقشة ممن لا تخفى عليه خافية .. تكاد تُهلك صاحبها ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : «**مَنْ نوقِشَ الحسابَ .. هلكَ**» .

ومعنى سبق الرحمة الغضب .. مِن الأسرار التي مُنع من إفشائها ، ولو كان هذا محل بسط .. لأتينا بعبارة تقرب الأفهام إلى ذلك ؛ فإن أوصاف الحق تعالى لا تتميز ، ولا تتقدم ولا تتأخر ، ولا تتعلق بالعلل والأسباب ، ولا تتوقف على حدوث حادث أو زوال موجود ؛ كما سيأتي بيان بعض ذلك في كلام المؤلف رضي الله عنه .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

٣٠- (المجذوبُ المحبوبُ لو طَلَبَ الحجابَ .. ما أُعطيَهُ ، وفيهِ يُقالُ : يَقطَعُ فيُواصَلُ ، ويأمَنُ فيُراسَلُ)

المجذوب هو المحبوب ؛ فلا يكون مجذوب إلا محبوباً ؛ فالجذب والحب وصفان متلازمان لذي العناية ؛ إذ معنى الجذب العناية ، وهي من أنواع المحبة ، وحقيقة العناية تعهد الحق تعالى عبده بمحض الإحسان ؛ فلا يكون كذلك إلا محبوب .

والجذب هو طي الحُجَب ، ورفع المؤن في الوصول إلى الحق ؛ فالمجذوب المحبوب حينئذ لو طلب الحجاب .. ما أعطيه ؛ لأنه معدوم في وجوده ؛ فطلبه للحجاب طلب لمحال ، فهو الذي يقال فيه : «**نعم العبد صهيب ؛ لو لم يخف الله .. لم يعصه**» ؛ فوجود المعصية معدومة في عوالمه كلها ؛ فلو فُرض فيه عدم الخوف من الله .. لم يُتصور فيه وجوده ، وفيه يقال : (**يَقطع فيُواصَل**) ؛ أي : يترك الخدمة والعمل فيعطى الثواب والأجر ، ويأبى الإقبال فيواصل ، إن أقبل .. أُتي ، بل يُؤتى بالمراكيب والعطايا والهدايا ليأتي .

وليس المراد بالقطيعة المخالفة للأمر أو ترك المفروض عليه ، وكذا الإباء ليس به الإعراض والاستنكاف عن حضرة محبوبه ، بل المراد أنه يكسل ويعجز في بعض الأوقات عن نوافل العبادات والقربات ؛ فيعطى كأنه فعل ؛ رغبة له في البقاء في حضرة محبوبه ؛ لأن عروق المخالفة والإعراض عن الله قد قطعتها العناية ؛ فهو لو لم يخف الله .. لم يعصه .

وعكسه الشقي المطرود ؛ لو تقرب بالخيرات وترك المخالفات .. لم يُقبل منه ، ويُدخِلون على عمله العلل وهو لا يشعر ، وقد قال بعض العارفين : (اللهم ؛ اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ؛ فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والإساءة لا تضر مع الحب منك) انتهى .

واعلم أن إساءة المحبوب تكون في ظاهره إساءة وفي باطنه حسنة ؛ لأن الله سبحانه لا يسوقه إلا إلى ما فيه رضاه ؛ فإذا انكشف الحال .. وجد المحبوب إساءته في نفس الأمر عين الإحسان عند الله ؛ فاختفى عليه وعلى غيره في ظاهر العلم حقيقة الإحسان ؛ لشرط بقي في العمل ، أو لاختلاف في العلم ، هذه الإساءة وكذلك الإحسان في حق المبغوض الممقوت ؛ فقد اختفى وجه الإساءة في حقيقته ؛ لشرط بقي أو الاختلاف في العلم ، فهذا وأخذه بالإحسان بأدنى تأويل ، وهذا جازاه بالإساءة بأقرب وجه وأدنى تأويل .

وهذا كله يدل على سعة غنى الحق وكماله عن خلقه ، وإطلاق قدرته ومشيئته في خلقه ؛ فإذا أعطى من غير طاعة ، وعاقب من غير معصية .. فلا ريب أن يعاقب بالطاعة ، ويعطي بالمخالفة ، ويكون في جميع فعله عدلاً ؛ لأن الكون ملكه وتحت قهره .

فالمجذوب المحبوب هو صهيب الأمة المحمدية ؛ فلا يزال في هذه الأمة كثيرون على قدم الصحابة وخصائصهم ووراثة أحوالهم ، بل ورد : أن منهم من قلبه على مثل قلب الخليل عليه السلام .

فقلب المحبوب في هذه الحياة .. كقلب من هو في دار القرار ؛ مشاهد لنور الوجه القديم ، لا يطرأ عليه حجاب ، ولا بخوف عذاب ، واعجباه !! كيف رَدَّ هذا وهو محسن مقبل ؟! وحمل هذا مكرَّماً معظَّماً وهو نائم غير متفطن ؟! والكل خلقه وتدبيره ، زكَّى من زكَّى ، وأعلى من أعلى ، وبخس من بخس ، وأدنى من أدنى .

وبالجملة فالسعيد المحبوب جميع فعله محبوب ؛ لأن ذاته محبوبة ، ولا يُثمِر الطيِّب إلا طيِّباً ؛ فإن كان في ظاهر الأمر غير محبوب .. فهو مستور بستائر الغيرة الإلهية ، والشقي الممقوت جميع فعله ممقوت ؛ لأن ذاته ممقوتة وإن كان في ظاهر الأمر غير سيء ؛ فهو مستور بستائر الغيرة أيضاً ، وإلى هذين الحالين الإشارة بحديث : «**إنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ ... ، وإنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ النارِ ...**» الحديثَ بطوله .

فمِن هذا خاف العلماء والحكماء والعقلاء إلى الغاية ؛ فكيف لا يخاف البطالون والمغترون بزخارف الدنيا ، المبعدون في لجة طول الآمال ؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٣١- (الداءُ العُضالُ : هوَ الذيْ لا يزيدُهُ العلاجُ إلا تمكناً وأعظمُ)

الأدواء في الإنسان ثلاثة : حب المال ، وحب الجاه ، والحسد ؛ فهذه لا تزيدها المعالجة إلا تمكناً ، ولا ينجو منها إلا من تغمده الله برحمته ، وأعلى من هذه كلها داء النفاق والشك في الله واليوم الآخر ؛ فما زادها الوعظ والتخويف إلا تمكناً والعياذ بالله ، والحسد شعبة من الشك ؛ فمن ابتلي به .. فليتضرع إلى الله في زواله ؛ فإنه سبحانه كما أخرج الشرك والشك من القلوب .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٣٢-(ما خَلَا جسدٌ مِن حسدٍ يُزيلُ الحسدَ والحِقدَ منها ، غيرَ أنَّ الكريمَ يُخفيْهِ ، واللئيمَ يُبديْهِ)

اعلم أن الناس متفاوتون في الحسد على مراتب شتى ، ولم يسلم منه إلا الأقلون ؛ وهم أهل المعرفة الخاصة والمحبة الخالصة ؛ فالإنسان الكريم ؛ أعني : شريف النفس عفيفها .. يُخفيه ؛ خوفاً من الله وخلقه ، واللئيم ؛ أعني : دنيء النفس ، خسيس الهمة ، قليل المروة .. يُبديه بالقول والفعل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في المخرج من الحسد وعقوبته وآفته : «**وإذا حسدْتَ .. فلا تبغِ**» ، والبغيُ : هو إظهار ما في القلب بقول أو فعل .

وسبب الحسد بل أصله ضعف التوحيد بل ضعف الإيمان بالله وصفاته ؛ فما المحسود عليه وما الحسد في المحسود ؟! إذ الكل فعل الله فانتبه أيها الحاسد ؛ فإنك في رقدة الحجاب ، وفي دائرة العذاب ، فما تحركت ذرة ولا سكنت إلا بالله ، لكن هذا مقام أهل الكمال ، والحسد نار تحرق الفؤاد وتحبط الأعمال ؛ فلا يقبل معه عمل ، ولا يُنال معه أمل ، وهو كما قدمنا لا يزيده العلاج إلا تمكناً ؛ لأنه داء عضال ، والعضْل قوة التأبي وشدة الإعراض عن الإجابة إلى المطلوب المحبوب ؛ قال الله تعالى : ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ ﴾أي : لا تمنعوهن ولا تُعرضوا عنهن .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

٣٣- (لو أنَّ جميعَ الأدلةِ العقليةِ والنقليةِ تظهرُ للإنسانِ .. لم تُفدْهُ شيئاً ما لم تحلَّ عليهِ عنايةُ اللهِ تعالى ؛ كما قالَ سبحانَهُ وتعالى : ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، وهؤلاء اليهود كانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، وما أفادهم ذلك شيئاً ؛ لما لم تحل عليهم العناية ، ولم تشملهم الهداية ؛ فالأدلة العقلية هي الآثار ؛ من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، ورياح ومطر ، وتراب وماء ، وجبل وحجر ، وبحر ونهر ، وفلك وحيوان ، ونبات وثمر ، وحياة وموت ، وغنى وفقر ، ونفع وضر ... وهي كثيرة لا تُحصر ولا تتناهى من حيث العدد والصور ؛ فهي دليل قوي جلي على وجود صانعها لكل ذي عقل سليم ، وخلُق مستقيم ؛ فيا عجباً ثم يا عجباً كيف حجب الله العقول عن الذي ما خفي منذ تجلى وظهر ؟! فهو الظاهر وهو الحي .

والأدلة النقلية يجمعها القرآن ؛ فقد بيَّن غاية البيان ، وأحاديث سيد الإنس والجان ؛ فلا خفا فيها على أهل لا إله إلا الله ، فإذا اجتمعت الأدلة العقلية والنقلية لعبد ولم يؤمن قلبه بالله ورسوله ، أو آمن بالله

دون رسوله .. فهو الذي حُرم العناية ، وبعُد من تحت دائرة الهداية ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ﴾ ... الآية ، وبقوله تعالى : ﴿وَمَاكَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ .

فأهل الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر .. معدودون ؛ لا يُزاد فيهم ولا ينقص ؛ لأن الله تعالى اطَّلع على قلوب عباده بما اطَّلع من علمه ؛ فأبرزهم إلى الوجود على ما شاء ؛ فالسعيد لا يخطو خطوة إلا في مرضاة الله ، والشقي عكسه ، ولا مبدل لكلمات الله ولا اختلاف في علمه ؛ قال تعالى في هذه الإشارة : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ، فهذه الآيات أومأت إلى السر المصون ، والعلم المكنون ؛ فإنه تعالى لو علم الله فيهم خيراً .. لأسمعهم ؛ فحقائقهم خلية عن الخير في علم الله ؛ فهم شر الدواب أزلاً وأبداً ؛ فلا يكادون يصغون إلى الخير ، فضلاً أن يعُوه وينتفعوا به ويسعدوا به في الدنيا والآخرة .

ثم لو فُرض من حيث كمال القدرة وإطلاق المشيئة أنه أسمعهم معاني الإيمان ، وأظهر لهم مباني القرآن وحقائق البرهان ..لتولوا بعد ذلك ؛ لخلو حقائقهم عن الخير ، ولأعرضوا عن ما شاهدوا وحققوا ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ ؛ لخلو حقائقهم من الخير وامتزاجها بالشر ؛ فتعود إلى حقائقها ، وترجع إلى تركيبها ، فتفعل المعصية بعد ذوق عذاب النار ؛ بسبب المعصية .

فكانت حقائقهم تمد صورهم بالقوة البشرية ، وندمهم على فعل المعصية بقولهم : ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ﴾ .. عارض لا أصل ولا حقيقة له في سرائرهم ؛ فلذا خَلدوا في العذاب المتجدد ؛ كلما نضجت جلودهم .. بُدِّلوا جلوداً غيرها ؛ لكون حقائقهم تُجدد بالشر وهم في النار ، ولولا ذلك .. لصاروا فحماً

وهلكوا وذهب عنهم ألم العذاب ؛ لأن أرواحهم التي بها حياتهم محض شر ، لاتزال تمدها الحقائق المعلومة لله تعالى .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا ﴾ .. يفيد أنهم محض شر ؛ فمنازلهم كلها شر ، ومناهجهم شر ، وإقامتهم شر ، وسائر حركاتهم وسكناتهم شر ، وهمهم ونياتهم شر ، وتوجيه الدعوة إليهم .. الحجة عليهم ؛ قال تعالى :﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

والسعداء في علم الله بعكس هؤلاء ؛ لو طلبوا الشر .. لم يجدوه ؛ لكون حقائقهم خلية عنه ، فلذا أبَّدهم الله بالنعيم المجدد ؛ فحقائقهم تمد صورهم بالفاقات إلى النعيم والخير ، وصورهم تمد أفعالهم بمباشرة النعيم والتقلب فيها ، وقد ورد في صحيح الحديث : «**هؤلاءِ للجنةِ ولا أُباليْ ، وهؤلاءِ للنارِ ولا أباليْ**» ؛ قال تعالى : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ ، لكن المدد مختلف ، وأما تسميته في حق أهل الشر عطاء .. هو كما مرت الإشارة إليه سابقاً ؛ فلا نعيده ، فهذا الإمداد خلَّد الفريقين في الإيجاد بالإشقاء والإسعاد ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ ؛ أي : ممنوعاً ؛ لأن حقائقهم تطلبه ، وبطلبهم دوام وجودهم .

فسبحان الملك الحكيم في خلقه وفعله وتقديره ، العليم بمعلوماته ؛ علماً لا يتجاوزه سهو ولا غفلة ؛ فلا زيادة ولا نقصان .

وقول المؤلف رضي الله عنه : (**وهؤلاء اليهود** ... إلى آخره) أي : وغيرهم من الكفار والمشركين ما زادهم ظهوره صلى الله عليه وسلم إلا بياناً وتحقيقاً لما عندهم من العلم به وصفته ؛ فأيقنوا قطعاً أنه هو ؛ فلمَّا لم تحل عليهم العناية من الله .. صُرفوا عن الإيمان به والاتباع له ، ولو آمنوا به .. ما زادهم ذلك إلا علماً فوق علمهم ، وشرفاً وأجراً وثواباً .

نعم ؛ منهم رجال آمنوا وصدَّقوا فمدحهم الله ؛ كعبدالله بن سلام ، وأتاهم أجرهم مرتين ؛ لإيمانهم بالكتابين ، فهذا حلت عليه العناية ، وشملته الهداية ، فكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من المقربين .

فلو كان الإيمان يدرك بالعقول والذكاء والفطنة دون عناية الله وهدايته .. لكان كلُّ من رأى نبينا صلى الله عليه وسلم آمن به إيماناً حقياً كلياً ولو من غير معجزة وقرآن ، بل بمجرد قوله : (إني رسول الله) ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم مظهر الله الأكمل الأتم في الوجود ؛ فنظره إيمان ، ومحبته إيقان ، واتباعه معرفة ؛ فقد تجلى الله تعالى فيه صلى الله عليه وسلم لجميع الوجود حتى للأحجار والأشجار ، والبهائم والأطيار ، ألا ترى إلى تسليمها عليه ، وتسبيحها في يديه ، وانقيادها لطاعته ، ونطقها بنبوته ورسالته ؟! فما من ذرة في علو الوجود وسفله .. إلا وهي عارفة موقنة أنه رسول الله ؛ لكونها ترى الحق تعالى شارقاً فيه ، فكيف ومع وصفه الكريم ، وخلقه العظيم ، وكمال مظهره الفخيم ؛ فقد أتى بالقرآن ، وتجلَّى بما فيه من البرهان ، فظهر الحق في غاية العيان .

ولكن الله سبحانه وتعالى ربط الإيمان بمشيئته وإذنه ؛ كما في الآيات المارة ؛ فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم من أعرض ، وكذَّب من كذَّب ، وفي الحقيقة إنما أعرض عن الله ، وكذَّب بالله ؛ قال تعالى :﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ ؛ فلو قدروا الله حق قدره .. لعلموا أن قدرته تعالى واسعة مطلقة ؛ تخلق بشراً ، ويجعل فيه أهليته ، واستعداداً لقبول كلامه وفهم خطابه ، وأداء رسالته إلى غيره من الخلق ؛فإن البشر من تلقاء نفسه لا قوة له على الوصول إلى ذلك .

فكما أن قدرته تعالى خلقت التراب وجعلت فيه أهلية واستعداداً لقبول الماء ، وإنبات النبات ، وخلق الماء وجعل فيه قوة تمد النبات حتى يكمل ؛ فلا وجه لاستحالة عقول الكافرين والمنافقين أن يخلق الله بشراً ، ويجعل فيه قوة لفهم خطابه ، وقبول رسالته ؛ فإنه تعالى خلق العالم كله من العدم ، فأقام

السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال والبحار ، وخلق الماء والطعام ، وخلق الحيوان بأنواعه ، لكن الله تعالى بحكمته وقدرته جعل الخير في قوم ، والشر في قوم ، ولا يبدل حكمه وفعله ، ولا يسئل عما يفعل .

ثم قال المؤلف :

٣٤- (لا خُلفَ في نفسِ الأمرِ في الوعدِ والوعيدِ ؛ فإنَّهُ إذا حصلَ التجاوزُ في الثاني .. علمْتَ أنَّ مشيئةَ اللهِ تعالى قدْ سبقتْ بذلِكَ)

وذلك أنه قيل فيه تعالى : يُنجز وعده ، ويخلف وعيده ؛ فهو سبحانه وتعالى ما أخلف الوعد في نفس الأمر ؛ لأنه ما سبق ثَمَّ وعيد ، فإذا حصل التجاوز والعفو عن الوعيد في مستحقه .. علمنا أنه ما سبق عليه وعيد أصلاً ، وإنما يظهر تحقيق الوعيد فيمن نزل به ؛ قال تعالى : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾ ، وأما من وعده بالعطاء في عبادة وقربة وترتيب على شروط وأداها كما أمر .. فلا يسلبه تعالى ما أعطاه من الطاعة والعبادة ؛ لسعة كرمه بل يثيبه على ذلك ؛ لأنه حيي كريم .

فإذا فرضنا أنه تعالى لم يعطه ما وعده على عبادته من غير تقصير وتفريط .. علمنا أنه تعالى ما أخلف الوعد في نفس الأمر ، وأن مشيئته سبحانه وتعالى سبقت أن لا يثيبه على طاعته ؛ كما في المسألة الأولى ، ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ ﴾ ؛ أي : هي حقيقة ذاتية أحدية لا تنوع ولا تتبدل ولا تتجزأ ؛ فجلَّ ربنا أن يخلف أمره ؛ لأن الموجودات قائمة بعلمه إلى غاية ، لا في صورها وحركاتها وسكناتها ، «**عجِبَ ربُّكَ مِنْ قومٍ يُساقونَ إلى الجنةِ بالسلاسلِ وهمْ كارهونَ**» .

فالعلم الإلهي ليس كمثله شيء من علوم المخلوقات من الملائكة وغيرهم ؛ لأنه صفة ذاتية ، وذاته تعالى ليس كمثلها ذات ؛ فكما لا وصول إلى تحقيق ذاته .. لا وصول إلى تحقيق صفة من صفاته ؛ فلا يلتبس

عليك الخلق الجديد في الأكوان والألوان والأعيان ؛ فما تجدد شيء عن شيء ، وإنما الشئون الإلهية حكمت على الموجودات حُكماً لا محيص لها عنه أن تجري في قالب العلم الإلهي .

فأهل القرب من الله والشهود لأوصافه ولمطالعة حضرة ذاته .. ينظرون الموجودات يمدها قلم القدرة بمداد العِلم الإلهي ، وأهل الكمال منهم كالأنبياء عليهم السلام قد كشف الله لهم حقائق الكلمات والحروف ومعانيها في عين الحبر والدواة ، وعلموا مجموع ما تضمنته وانطوت عليه دائرة الدواة وما شمله الحبر ؛ فانطوى الوجود في وجودهم ، وبقوا مع الله بِلا هُم ؛ لأنهم من الوجود ، ومن كلَّفه الله بالرسالة منهم وقواه ومكَّنه مدة حياته البشرية .. قام عنه تعالى في ظاهره بإشارة : «**كنْتُ سمعَهُ وبصرَهُ** ...»الحديثَ ، فلذا قال فيه : ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ**﴾ ، ﴿**وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ**﴾ ، و﴿**يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ**﴾ .

فلذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم لا يغضب على من آذاه وشقَّ عليه ، بل قال : «**اللهمَّ ؛ اغفرْ**» ، فجَلُّ جمعيته مع الله تعالى ، وله إلى الأكوان بسبب الرسالة أنفاس ولحظات وخطرات ؛ ابتغاء ثبات المنزلة وتمكنها وتحقيقها ، وأعلى بتلك المنزلة بقاءه مع الله بلا هو ؛ فلذا لما أتاه ملَك الموت عليهما السلام لقبض روحه .. قال : «**الرفيقَ الأعلَى ، الرفيقَ الأعلَى**» ؛ طلباً منه صلى الله عليه وسلم لاستيفاء تلك الأنفاس واللحظات والخطرات في تلك المنزلة ، وشاهد هذه الإشارة قوله صلى الله عليه وسلم : «**مَنْ أحبَّني .. فقدْ أحبَّ اللهَ**» وقوله : «**ومَن آذاني .. فقدْ آذى اللهَ**» ، وقال تعالى في شأنه ومنزلته عليه السلام : ﴿**فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ**﴾الآيةَ ، والله أعلم .

ثم قال المؤلف :

٣٥- **(لا تنافيَ بينَ قولِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : «لنْ يدخلَ أحدُكمْ الجنةَ بعملِهِ» قالُوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟! قالَ : «ولا أنا إلا أنْ يتغمدَني اللهُ برحمتِهِ» ؛ فإنَّ العملَ نفسَهُ لا يُدخلُ الجنةَ ما لمْ يقبلْهُ اللهُ ، وقبولُ اللهِ تعالى لَهُ مِنْ جملةِ تغمُّدِ العبدِ برحمةِ اللهِ تعالى** ؛ فقوله عن الله : ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ، والآية هي : ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ، وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : «**لنْ يدخلَ الجنةَ أحدٌ بعملِهِ**» ، فالتنافي : التناقض والتباين ، وما ثَمَّ تنافي بين معنى الآية ومعنى الحديث ؛ كما بينه المؤلف **بقوله** : (**فإنَّ العملَ نفسَهُ** ...) إلى آخره ؛ فصار الأمر في دخول الجنة أنه لا يدخلها أحد بعمله ؛ فقبول الأعمال عند الله إنما يكون برحمة الله وإحسانه ولو كان من أهل الكمال ؛ إذ لا أكمل من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القائل : «**ولا أنا**» ، فما أغلى هذه الجنة التي لم يدخلها أحد حتى الأنبياء بالأعمال .

والمراد بحقيقة الجنة هنا التي لم يدخلها أحد إلا برحمة الله .. هي السعادة الأزلية الأبدية ؛ فإن الأشقياء لا يدخلونها أبداً ؛ لأن الأعمال أسباب حادثة ، والرحمة والسعادة قديمتان ، فإذاً لا يدخل الرحمة والسعادة أحد بعمله الحادث ، فكان أهل الجنة قد غمرتهم الرحمة في آزالهم وآبادهم ، وسرَتْ في حركاتهم وسكناتهم ونياتهم وعباداتهم ؛ فما كانت عوالمهم مركبة إلا على رحمة الله ، فلذا قُبلت أعمالهم بتغمد الرحمة إياها ؛ فالأعمال تابعة للأحوال ، والأحوال صادرة عن حقائق الآزال .

إنَّ الشقيَّ لشقيُّ الأزلِ وعكسُهُ السعيدُ لمْ يبدلِ

ثم قال رضي الله عنه ونفعنا به :

٣٦- (لا تنافيَ بينَ قولِهِ تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وبينَ قولِهِ تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ .. إلَّا أنَّ الثانيَ بالنسبةِ إلى أحوالِ الدنيا ، والأولَ بالنسبةِ إلى أحوالِ الدينِ ؛ قالَ تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، فإذا كانتِ الآيةُ الأولى فيْ أحوالِ الدنيا ، والثانيةُ في أحوالِ الدِّينِ .. فلا منافاةَ بينَ معنى الآيتينِ ، وهو ظاهر ، والله أعلم .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه :

٣٧- (الأمرُ قسمانِ ؛ أمرُ تكليفٍ وتشريعٍ ؛ وهوَ الذيْ يكونُ بواسطةٍ ، وهوَ المذكورُ في قولِهِ تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ، وأمرُ إيجادٍ وتكوينٍ ؛ وهوَ المذكورُ في قولِهِ تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ، وهذا بغيرِ واسطةٍ ، والأولُ قدْ يقعُ التخلُّفُ عنْهُ ؛ وهوَ المعصيةُ ، ولا مخالفَ للهِ في أمرِهِ الذي لا واسطةَ فيه ؛ وهوَ أمرُ المشيئةِ ؛ لأنَّ ما شاءَ اللهُ .. كانَ ، وما لمْ يشأْ .. لمْ يكنْ ، وما وقعَ في العالَمِ .. فهوَ على حُكمِ المشيئةِ لا على حُكمِ الشرْعِ ، وإنْ كانَ تقريرُ الشرعِ مِنَ المشيئةِ) .

قوله : (الأمرُ) أي : الأمر الإلهي ، ينقسم قسمين ؛ أي : يراد لمعنيين ، وإلا .. فهو في الحقيقة أمر واحد ؛ كما أشار إلى ذلك المؤلف إلى قوله وإن كان تقرير الشرع من المشيئة ؛ فانقسم قسمين ؛ لأنه تعالى الظاهر والباطن ؛ فأمر التكليف والتشريع بعلمه ومشيئته كالثاني ، إلا أنه يكون بوسائط من خلقه ؛

كالملائكة والرسل والكتب ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ ، وفي قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ .

وهذا الأمر قد يقع التخلف عنه من العبد ؛ بسبب الشيطان والنفس ؛ وهو المعصية ، وأما الثاني .. فلا مخالف لله فيه ؛ لأنه يكون عن غير واسطة ، وهو أمر المشيئة الإلهية ؛ قال تعالى : ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ ؛ لأن ما شاء الله كان ؛ إذ لو شاء إيمانهم .. لكان ، ولم يشأ .. لم يكن ، فلذا لم يؤمن من آمن من لم يكن ما كان إلا بالله ، وما وقع في العالم كلٌّ من علوه الى أسفله .. فهو على حكم المشيئة الإلهية ، لا على حكم الشرع ، حتى أن تقرير الشرع على حكم المشيئة غير أنه شاء ما شاء .

وبالجملة فأمر الله تعالى واحد ؛ كما قال : ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ ، ثم تجليه في الأكوان كما أراد ولا ينقص ؛ فقد كلف العباد الإجابة إلى الإيمان والفرار من الكفر ، وحرَّم عليهم أشياء أمرهم بتركها ، وأوجب أشياء أمرهم بفعلها ؛ فمن خالف ما أمره الله به .. فقد قامت عليه في مجمع القصاص والحساب يوم القيامة ، ثم بعد إقامة الحجة يحكم الله فيه بما شاء ؛ فقد يعفو ويتجاوز ويجازي بالثواب والمقام الكريم في دار النعيم ، وقد يعاقب آجلاً وقد يخلد في العقوبة .

فبيان الأمر الإلهي الذي يقول له : (كن فيكون) إنما يكون يوم الدين ؛ يوم العدل بين العالمين ، وتجلي أوصاف الربوبية على العبيد أجمعين ، ولا وثوق لأحد بعلم الله وأمره فيه وإن كان مقرباً ؛ لأن الله تعالى ما كشف لأحد عن سره المصون وغيبه المكنون ، وإنما أظهر للمقربين في حضرة مشاهدته ومخاطبته أموراً أذهلتهم عنهم ، ولاحت لهم لوائح أفنتهم عن علومهم ومعارفهم ، وسلبت منهم ما معهم من اليقين ، حتى كادوا أن يعودوا إلى الجهل المحض الذي بدأ فيه الدين غريباً ، فقطعوا يقيناً أن حضرة الحقيقة الإلهية نار تحرق وتغرق وتشتت وتمزق ؛ فما فطنوا فيها لمطالعة صفاته القديمة بصفاتهم المعدومة ، أو بروز

العوالم والأكوان ، من حضرة الإرادة والشأن ، وامتداد الآماد والأزمان ، وسحيق الآباد والأحيان ؛ فمتى يطمع الحادث في مخاطبة القديم ، أو يطمع الفقير في مشاهدة الملك العظيم ؛ فما عرفه سواه ، وما علمه إلا هو .

فالعالم كله بأسره من أوله الى آخره بتفصيله وإجماله .. قطرة من بحر ؛ فما خَلْقُهم ولا بَعْثُهم إلا كنفس واحدة ؛ فما وقع في الكون فهو مكسي بأنوار صفاته ، يرى ذلك من له أدنى ذوق بحقائق القرب ، وطعم لرقائق الشرب ، فتفنى أعمار العارف كلها دون الإحاطة بكسوة واحدة من تسع وتسعين كسوة على ما وقع في الكون من أمرها وكون ما ؛ إذ لا تزال تلك الكسوة تندرج فيما سواها من التسع والتسعين ؛ فتارة تغرق العارف في بحور الآباد ، وتارة تحرقه في نيران القدم والآزال ، وتارة تمزقه في حضرة تجلي البطون ، وتارة تشتت جمعيته في وسع دائرة تجلي الظهور ؛ قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ .

نعم ؛ له سبحانه وتعالى جود وإحسان ، يهب به لبعض عباده علماً من علمه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فهذا العبد له نهاية وبداية في علمه ، هذا فإذا استكمل نهايته المقدرة له من الله .. رُدَّ إلى وصفه وعرفانه ﴿لَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي : معلوماته ومكنوناته ، ثم هي كلها قطرة من بحر علمه الذاتي ، وأنَّى للعبد اطلاع أو ارتفاع إلى تحقيق أمره تعالى في الأكوان في ظاهر الشرع فضلاً عن باطنه ؛ فهيهات هيهات أن يُقال : ذا ماضٍ وهذا آتٍ ، وفي الأمر الشرعي من السر ما يوصل إلى الحقيقة الإلهية .

فمن عمل بالعلم كله على وفق السنة .. أعطاه الله تعالى علم السر المنطوي في علم الشرع ، حتى إذا بلغ رتبة الاجتهاد .. صار إمام زمانه وزمام أقرانه ؛ فأخذ الدليل عن الجليل ، وجعل التعليل إلى العليل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم قال المؤلف :

٣٧- (المرءُ معَ مَنْ أحبَّ وفيْ هذا الكلامِ وعْدٌ وَوعيدٌ ؛ فانظرْ تحبُّ مَنْ حتى تكونَ معَهُ ، اللهمَّ ؛ ارزقْنَا حبَّكَ وحبَّ مَنْ يُحبُّكَ ؛ إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وبالإجابةِ جديرٌ) .

قوله : **(المرء مع من أحب)** هو حديث صحيح ، **وقوله** : **(فيه وعد ووعيد)** هو كذلك ؛ فإن من أحب الله ورسوله والدار الآخرة .. فهو في حقه وعد ، ومن أحب الدنيا واتبع هواه وآثر دنياه على أخراه .. فهو في حقه وعيد ؛ فانظر من تحب ؛ أي : اختر لنفسك من تشاء .. تكن معه في الدنيا والآخرة ؛ فحبُّ الله ورسوله وسائر عباده الصالحين .. سببُ الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ وقد قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دُلني على عمل إذا عملته .. أحبني الله وأحبني الناس ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**ازهدْ في الدنيا .. يحبُّكَ الله ، وازهدْ فيما في أيدِيْ الناسِ .. يُحبُّكَ الناسُ**» .

فبيَّن صلى الله عليه وسلم أن الفرار من الأكوان إلى المكوِّن .. هو الشأن في محبة الله للعبد في الدنيا ما دون الله ، وما في أيدي الناس منه ؛ فالمشتهي محبة الناس ما أحب الله ؛ فالزهد الثاني من ضرورة الأول ولا عكس ؛ فقد يكون الإنسان قانعاً راضياً بما قسمه الله له ، غير ملتفت ولا متمنٍّ لما في أيدي الناس ، ولكنه غير زاهد في الدنيا ؛ فلو أتاه ميراث من المال .. لقبله ولم يردَّه ، وثمرة الزهد في الدنيا محبة .

يا عجباً ممن اشترى الدنيا بمحبة الله !! ثم عجباً كيف صارت محبة الله عوضاً لمن باع الدنيا على الدنيا !! ما ذلك إلا فضل الله ؛ فإن الدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة ؛ فهي لا شيء أصلاً .

واعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف ، ولا يُكرِم الله تعالى به إلا الخواص من عباده ، المسعودين بقربه ووداده ؛ لأن أصله نور إلهي يشرق في القلب ، وينفسح وينشرح له الصدر ؛ فيُورث فيه التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله ، ومن لم تكن فيه هذه الخصال .. فليس في قلبه من ذلك النور شيء ، وإذا لم يكن فيه شيء من ذلك النور .. كان القلب لا محالة مَعشْعَش الشيطان ، يبيض فيه ويفرخ ، ويهديه إلى الضلال ؛ فينقلب إلى المحال ، ويعمر دار الزوال ؛ فيشتد فيه الحرص على جمع المال ، إلى أن يموت والعياذ بالله في غاية البُعد والحجاب عن الكبير المتعال ، فيلقى اللهَ ناسياً له معرضاً عنه ؛ فلا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ؛ فيتحسر تحسراً لا آخرَ له ، ولو أن له ما في الأرض جميعاً ومثله معه .. لافتدى به من حسرته .

وهذه الحياة الدنيا فتنة للكل ؛ فالعقلاء والعلماء كانت لهم سجناً ومحنة ، لا يكادون يقضون منها وطراً ؛ حياءً من الله ، وعلماً بعاقبة الأمر ، والجهال والحمقى كانت لهم شقاء وتعباً ونصباً ؛ فتمر أعمارهم إلى أن يموتوا وما بلغوا معشار ما أرادوا واشتهوا وتمنوا .

وقول المؤلف رضي الله عنه : (شرابُ محبةِ اللهِ تعالى في هذهِ الحياةِ الفانيةِ ؛ فمَنْ أُكرم به .. فقد تشرفت روحه بالبقاء والحياة ، التي لا فناء ولا عدم لها ؛ فتكون ممن استثناهم الله تعالى عند الصعق يوم نفخ الصور ، اللهم ؛ ارزقنا حبك وحب من يحبك ، وقد قال سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله ونفعنا به :

يـــــا اللهْ بـــــذرهْ مِـــــنْ محبـــــةِ اللـــــهْ	أفنَــى بهـــا عـــنْ كـــلِّ مـــا ســـوى اللهْ
ولا أرى مِـــــنْ بعـــــدِها ســـــوى اللهْ	الواحـــــدِ المعبـــــودْ ربِّ لْأرْبـــــابْ

فقد طلب رضي الله عنه مَن أحبَّ اللهَ في قلبه ذرة من جملة ذرات محبة الله في علم الله ، الموزَّعة على المحبين ، لا قدر ذرة في الوجود ؛ فإنه تعالى قسم ذرة من محبته بين أمم كثيرة ، وقد عجز بعضهم عن حمل حصته من الذرة ، حتى اصطلم واندك .

وكان حال سيدنا رضي الله عنه يقوى على حمل الذرة كلها ؛ لأنه القطب الغوث ، لاشك أن يكون قلبه أقوى القلوب وأوسعها ، وأما الذرة من محبة الله تعالى للعبد .. فلا يتصور ولا يتكيف ، بل يمكن أن تُفرَّق على جميع المحبين لله تعالى ؛ من ملَك وبشر .. مِن الأزل إلى الأبد ؛ لأنه تعالى لا تتجزأ صفاته ، وأما العبد .. فتكون له الذرة والجبل .

ويتفاوت المحبون لله في محبتهم تفاوتاً عظيماً ؛ فقد يكون قلب الكامل منهم يحمل من المحبة كأمثال الجبال كلها بالنسبة للأصاغر ؛ فلو زيد ذرة من محبة أهل الكمال في محبة الأصاغر .. لعجزوا وأذهلوا وتمزقوا وانمحقوا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومعنى الحب لله تعالى حب طاعته وبغض معصيته ، وكمال الرجاء فيه والرغبة ، وكمال الخوف والرهبة منه ، ثم يثمر ذلك محبة من أحب الله ، ومن أحبه الله ، وما جاء من الله ؛ من كتاب وأمر وحكمة ، فلذا طلب المؤلف رضي الله عنه حب من يحب الله بعد حب الله ، وإن كان ذلك بالضرورة ؛ فقول سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله رضي الله عنه :

أفنى بِها عنْ كلِّ ما سوى اللهْ

يشير الى أن طلب الفناء في الله حتى عن نفسه ؛ طمعاً في الهلاك والذهاب الكلي في الله ، حتى أكده بقوله :

ولا أرى مِن بعدِها سوى اللهْ

في كل مرأى ، وهذا طلب منه رضي الله عنه لشهود الذات الإلهية بأوصافها في كل مرأى ؛ فإنه لا بد وأن يرى ما سوى الله لقيام العبودية ، لكن طلب كمال تجلي الذات الإلهية في كل مرأى بعد الفناء عنه ؛ فهو في الوجود وليس فيه بموجود ، وهذه والله هي الحياة الطيبة الهنية في قوله تعالى : ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ ، ومن حصل له الفناء عن كل ما سوى الله .. حصل له رؤية الله تعالى في كل مرأى .

وقد قال بعض العارفين : ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه ، وهذا أكمل من صاحبيه القائلين قبله وبعده ؛ لأنه جمع حالتيهما مع حاله ، فجمع الأحوال الثلاثة كلها ، وقول سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله رضي الله عنه :

الواحدُ المعبودْ ربِّ لْارْبابْ

طلب لتحقيق مقام العبودية ؛ فاجتمع سؤاله رضي الله عنه على ثلاث مراتب :

الأولى : الفناء بالله عن كل ما سواه ، والثانية : عدم الرؤية لما سوى الله ؛ لانعدام السوى في الله ، والثالثة : الوقوف في حضرة الواحدية المقتضية لعبودية من العبد ؛ ليقوم بوظائفه ؛ فإذا حصل الفناء ورؤية الحق في الموجودات ومعاملة حضرة الواحدية بالعبودية .. فقد تمت المحبة المطلوبة .

وقول المؤلف رضي الله عنه : (إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وبالإجابةِ جديرٌ) أي : لأنه تعالى دعا خلقه إلى دعائه ، وأمرهم بذلك فقال : «**ادعونيْ .. أستجبْ لكُمْ**» فلذا لم يمتنع عن الدعاء الأنبياء والأولياء ، وإن كان الأمر قديماً أزلياً ؛ فلله في أمره أسرار لم يطَّلع عليها أحد ، ومن جملتها : ندبه تعالى للدعاء مع سابق القضاء وحصول المنى والشفاء ؛ فتتنوع تجلياته تعالى في خلقه حسب علمه ، وعلمه لا يتجاوز أمره ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء .

ومما شاء علمهم بكونه دعاهم إلى دعائه ، ووعدهم بالإجابة ، ومن لم يدع .. لم يُعط ، وهذا شيء غريب ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ ؛ فأين الإجابة من الدعاء ؟! وأين الداعي من المدعو ؟! ولكنا آمنا بكل ما جاء عن الله ، على ألسنة رسل الله ، ونسأل الله أن يذيقنا ذلك ، ويكشف لنا حقيقة ما هنالك ؛ فإنه لا تتخطاه الآمال ؛ فكم غمر الوجود بالجود ، وكم قبل الوجود ، ولولا ظهور جوده .. ما عرف شأن وجوده ؛ فقد تعرف إلى الوجود بالجود ، وحاشاه تعالى أن يتنكر على الوجود بضد الموجود ، في اليوم المشهود الموعود .

وإذا تأملنا أملنا فيه ، وإن عظُم إلى الغاية .. وجدناه لا شيء بالنسبة لعلو أوصافه وعِظمه ومجده وكمال وجوده ؛ فلو قال لنا : خذوا بقدر آمالكم كلها ، وأمانيكم وآمال كل موجود وأمنيته ، وضاعِفوا تلك الآمال والأمنيات ، وخُذوا بقدرها مضاعفة ، وضاعفوا ما شئتم ، فأخذنا ذلك ، ثم انكشف لنا قطر من بحر وجوده الذاتي الحقيقي .. لاستغفرنا من فعلنا وأملنا وأمنياتنا وما طلبناه بها ؛ فنحن الآن نستغفر الله ونتوب إليه من السؤال بين يديه ، ونسأله أن يعطينا قبل السؤال ؛ ليكون السؤال شكراً لا طلباً ولا سبباً .

ثم قال المؤلف رضي الله عنه ونفعنا به :

(وصلَّى اللهُ على السيِّدِ الكاملِ ، القائلِ : «إنَّما الأعمالُ بالنياتِ»، صدَقَ خيرُ البرياتِ ، وصلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وصحبِهِ وسلَّمَ) .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .. سبب حياة الأرواح ، والمصلون مختلفون باختلاف أرواحهم ، ويختلف مدده منه صلى الله عليه وسلم ، **وقوله : (السيد الكامل)** لحديث : «**أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ**» ، ولحديث : «**أنا أخوفُكُمْ باللهِ**» ، وحديث : «**أنا أتقاكُمْ للهِ**» ، والكمال كله في التقوى وبالتقوى ؛ لآية

: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «**إنما الأعمالُ بالنياتِ**» ، هذا حديث صحيح متفق عليه ؛ فالنيات مصدر الأعمال ومعدنها ، وأصلها الذي تتفرع ثم تثمر منه ، ولا تدخل تحت اختيار العبد ، والنيات الشرعية ؛ كنية الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات .. إنما هي محض تعبد ، ويثيب الله أهلها على قدرها ، وأما النيات المحمودة عند الله ورسوله والعلماء والصالحين .. فمنشؤها حقيقة القلب وطيبه وسعادته ؛ فإن البذر إذا كان طيباً .. يخرج نباته طيباً ، والبلد الطيب والبذر الطيب يخرج نباته بإذن ربه ؛ أي : خالصاً لله ، ليس للشيطان فيه مدخل ، وإن كان كل شيء يخرج بإذن ربه ، لكن هذا إذن خاص معصوم من الفساد والهلاك ؛ لأن الله بحكمته جعل نسبة الشر والفساد إلى النفس والشيطان بتركيبه ذلك فيهما ؛ فالكل منه ، وقد جاء في الحديث : «**إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صورِكُمْ وأعمالِكُمْ ؛ إنما ينظرُ إلى قلوبِكِمْ ونياتِكُمْ**» .

فالفرع يتبع الأصل ؛ فالنية أصل ، والأعمال فرع ، والثمرة حقيقة الأصل ؛ فحينئذ يكون العمل متوسطاً بين الأصل والثمرة ؛ فإذا مات الإنسان على الخير والإيمان .. تبين له أصله من ثمرة موته على ذلك ، وإذا مات على الكفر والنفاق .. يكون كذلك ؛ فقد يحبط عمله قبل الموت بلحظة ، ويختم له بالسوء بسبب سوء أصل عمله ؛ وهو القلب الشقي الخبيث ، وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : «**إنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ ...**» الحديثَ .

فالقلب السعيد لا يزال يحرك الخواطر الحسنة والهمم العالية ، ويحرك الأعضاء على فعلها ، وتتجدد فيه أنواع القربات ؛ حتى تحصل له في العمل الواحد عشر نيات وعشرون ومئة وألف على حسب صفاء قلبه وصدقه في التقوى ، وعكس ذلك القلب الشقي ؛ لا يزال تتنوع منه الأشرار والظلم والبغي والعدوان والفساد والهلاك والفتن ، نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العصمة في الخطرات والإرادات من الشرك والشك

والنفاق وسوء الأخلاق ، ومن يعتصم بالله .. فقد هدي إلى صراط مستقيم ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

وقوله : **(وعلى آلِهِ وصحبِهِ)** الآل في الحقيقة : من آل أمره وعلمه وحاله وعمله إلى اتباعه صلى الله عليه وسلم ، وفي العلم : كل مؤمن من بني هاشم وبني المطلب ، والصحب في الحقيقة : من صحبه صلى الله عليه وسلم في حضرة الله وعبوديته حتى تخلق بأخلاقه وتحقق بأذواقه ، وفي العلم : من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً ومات مؤمناً ، وهؤلاء هم خير خلق الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سوى الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، اللهم ؛ ارزقنا حبهم واتباعهم ، واحشرنا في زمرتهم ، وأدخلنا الجنة معهم آمين .

وقد انتهت حِكم سيدنا القطب الغوث سيدنا عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس رضي الله عنه ونفعنا به على سبيل الاختصار والإيجاز ، جعلنا هذا التعليق لندخل إن شاء الله تعالى في زمرة الداعين إلى الله بالقول والفعل ، والله ولي الهداية ، ولنجعل على هذا التعليق خاتمة تشتمل إن شاء الله تعالى على :

(وصية ونصيحة للإخوان في دين الله من أهل السنة والجماعة والطريقة العلوية) فنقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد أزلاً وأبداً وظاهراً وباطناً ؛ أي : مستحقه كذلك لا إني أحمده كذلك ؛ فإن عجزي وجهلي لم يطق ذرة مما هنالك ، ونسأله الصلاة التامة والسلام الأكمل منه على حبيبه سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيه وحزبه وأهل وده وحبه آمين .

اعلموا أيها الإخوان ، رزقنا الله وإياكم لباس التقوى ، وسقانا من رحيقها ، ورقانا إلى تحقيقها .. أن من رزقه الله تعالى الإيمان بالقرآن .. فقد تمت عليه من الله كبائر النعم ، وخُص من الله بذخائر الكرم ، فالواجب عليه والمتأكد فيما بين يديه ذلك الإيمان بالقرآن .

والتقوى عبارة عن العمل بما في الكتاب والسنة ؛ فشمروا رحمكم الله عن ساق الجِد ، واسلكوا مسلك السابقين من الصحابة والتابعين والسلف الصالح من السادة العلويين ؛ فقد بلغوا في الجد الى الغاية ، وبالغوا في الجهد إلى النهاية ، فأكرمهم بصريح الولاية ، وصحيح العناية ، كشف لهم عن الملكوت ، وأراهم حضرة اللاهوت ، وغيبهم عن ملاحظة الأكوان ، بملاحظة ومطالعة حضرة الكشف والعيان ، فأشرق نورهم في الوجود ؛ فكأنهم هم شموسه وأقماره ، وهم ضياؤه ونهاره .

والتقوى لها أصول وفروع ، وثمرة وبداية ونهاية ، وهي عبارة عن مسافة بعيدة واسعة الأكناف ، كثيرة العقبات والقطاع والأخواف والأرجاف ، قليلة السالكين لذلك ، لكن من سلكها بصدق .. نجا

ووصل ؛ فما رجع عنها صادق ، بل جاءت الأخبار والبشائر بوصوله ونجاته وقبوله ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوا الله إن كنتم مؤمنين .

وقد شرح هذه المسافة بأوجز شرح حجة الإسلام سيدنا الإمام محمد بن محمد الغزالي في تأليف سماه «منهاج العابدين» فقد كفى ووفا بالمقصود ، ونحن الآن إنما نشير إلى إشارات يعرف بها العاجز نفسه فيسلم من الغرور ؛ فأصل السلوك العمل بمقتضى الإيمان بالقرآن ، وعلى قوته وضعفه تكون الحركة والهمة في السير ، لكن لا يقوى الإيمان إلا بالعلم ؛ فبقدر الاتساع فيه ينبسط الإيمان في زوايا القلب جميعها ؛ كما ينبسط نور الشمس في جميع الدنيا .

والعلم لا يتسع ولا ينبسط نوره في القلب إلا بالعمل ، و يمد العلم قوة واتساعاً ورسوخاً وثباتاً ، والعلم ينشئ العمل ابتداء ؛ فإذاً لا غنى للعلم عن العمل ، ولا بد للعمل من العلم ؛ فالإيمان هو الأصل الذي تفرع منه وظهر نور العلم ؛ أعني الهداية إليه ، فلذا من طلب العلم بدون الإيمان .. لم يقو على العمل الخالص لوجه الله ؛ كالمتشبهين من النصارى واليهود بأهل الإيمان ظاهراً ويتعلمون ظاهر العلم ، فلم يغنهم شيئاً فكان فيهم كالماء على الصفا .

وبكمال مراعاة العمل للعلم يشرق كمال الإيمان بالقرآن ، لأن العلم بروحه ومنازله ومشكاته ؛ فصار الأمر مبنياً على الإيمان ثم العلم ثم العمل ، فإذا افترقوا .. ذهبوا جميعاً ؛ فلا علم لمن لا عمل له ، ولا إيمان لمن لا علم له ، فانتبهوا رحمكم الله لهذه الدقيقة ؛ فإن العجز عن العمل من قلة العلم ، وقلة العلم من ضعف الإيمان ، فما يسع العبد السعيد بالإيمان إلا أن يصرف جميع أنفاسه في العلم ؛ ليصرف جميع حركاته وسكناته في العمل ، فيحظى من الله بالوصول إلى حضرته الخاصة ومخاطبته ؛ فيتنعم بإيمانه ويجني ثمار علمه من جنانه ، فإذًا لابد من بيان معنى الإيمان والعلم والعمل وثمرة ذلك .

فالإيمان هو أن الله تعالى يلقي في قلب العبد أن هذا القرآن كلام الله ، مُنزَّل من الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه قديم منزَّه عن كلام المخلوقين ، وهذا الإلقاء بعد تحقيق معنى الشهادتين في القلب ، وأن ما فيه من الأحكام والوعد والوعيد حق ؛ فإذا رسخ هذا في القلب ودام .. انبعث بإذن الله داعي طلب العلم بعد العلم بأحكام الوعد والوعيد ، وبالضرورة يجب العمل بالأحكام وعلى مقتضى الوعد والوعيد ؛ فيحمله العلم على العمل ؛ خوفاً ورغبة فيما عند الله تعالى في الدار الآخرة .

واعلم أن العلماء اختلفوا في (العلم) المعرف بالألف واللام في الآية والحديث ؛ قال الله تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : «**اطلبُوْا العلمْ ولوْ بالصينِ**» ، وقال : «**طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ**» ؛ فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، وقال المحدِّثون والفقهاء وغيرهم : هو ما هم فيه من الفقه والحديث وغيره ، وقال الصوفية : هو علم التصوف .

وفي الحقيقة هو مجموع كل هذه العلوم ؛ فلا مردود منها ، لكنَّ العلم الشريف على الإطلاق هو علم المعرفة بالمعبود وصفاته ، وما يقرب إليه ويبعد من سخطه ، ولا تخلو تلك العلوم من الوصول إلى هذا العلم ولو على تأويل بعيد ، وقال الله تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي : إلى العلم .

وحاصل الأمر أن العلم هو العدة والزاد والسلاح في سلوك طريق التقوى ؛ فالاتساع فيه مقام كريم ؛ لأنه يدعو إلى الاتساع في العمل ، وإذا اتسع العمل .. اتسع القلب بأنوار العلم اللدني الذي يمد العلم الكسبي ؛ فلا يزال كذلك حتى يدخله العمل بالعلم حضرة الله ، فينكشف له حينئذ حقيقة العالم ؛ أعني ما سوى الله من عرش وفرش ، وتُخلع عليه خلعة المحبة التي بعدها خلعة «**كنْتُ سمعَهُ**» ، ومن هذا التعبير تظهر حقائق معاني قوله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى : «**لا يزالُ عبدِيْ يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَهُ**» .

فقد علمت أن أصل التقوى مجموع حقيقة الإيمان والعلم والعمل في الإنسان ، وحقيقته : «**حتى أحبَّهُ**» «**كنْتُ سمعَهُ**» ، وحقيقة «**كنْتُ سمعَهُ**» حياة لا فناء لها ، وملك لا بلاء له ، وقرب لا حجاب فيه ، وشرب لا انقطاع له ؛ أعني : من شرب المودة الرحمانية في قوله : ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ .

فاسلكوا سبيل نهاية النزول في حضرة الله ومنازل السلوك وقطعها ، وهي تجدد بتجدد الأنفاس ، غير أنها إذا قطعت منها مسافة .. هان أمرها فيما بعد ، وهكذا الى أن يصير السلوك في آخر الأمر عذباً طيباً ، وإلى ذلك الإشارة بقول سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله الحداد :

وحـــالفِ الصـــبرَ واعلـــمْ أنَّ أولَـــهُ مـــرٌّ وآخـــرُهُ كالشُّـــهدِ والـــضرَبِ

ولا تنحسم مواد النفس التي هي مسافة الطريق إلى الله إلا بتقوى الله وعنايته ؛ فكم من مجد مجتهد أتعبته وغلبته وصيرته كصاحب السفينة التي تمخر البحر ؛ تصبح في يومها حيث أصبحت بالأمس ، وتعبها طول النهار مردود ، لكن الشأن كله عزيمة الصدق وخلوص القصد ؛ قال تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ ، فإذا علم تعالى بخلوص القصد .. سهل القصد من السبيل ، ولولا ذلك .. ما وصل إلى الله واصل ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ .

وأما منازلها ؛ أعني : النفوس في السلوك من حيث الإجمال .. فهي تصحيح التوبة أولاً فيما بين العبد وبين الله وبينه وبين الخلق ؛ فإذا تخفف من تبعات الخلق وظلاماتهم .. فليقوَ عزمه على أن لا يعود إلى مخالفة الله وإن حرِّق بالنار ، وليلازم الندم فيما بينه وبين الله تعالى ، ويكثر التضرع والالتجاء إلى الله تعالى في قبول توبته وقبول دعائه ؛ فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب ، ويحب التوابين ويفرح بتوبتهم ، وهذه التوبة من عناية الله بعبده ؛ إذ لو شاء تعالى .. لأبقاه معرضاً عنه مستغرقاً في مخالفته ؛ فليفرح السالك بتوفيق الله إياه

للتوبة ؛ قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ، فإذا دام متطهراً بعد التوبة .. فهو محبوب الله ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ .

وهذه مسافة بعيدة ، واسعة الأكناف ، كثيرة العوائق والبوائق ؛ فمن أعانه الله على قطعها .. فليبشر ؛ فإن ما بعدها أيسر منها ، ثم بعدها يدخل تحت دائرة القناعة الكلية بمتاع الحياة الدنيا ؛ من ملبس ومسكن ومأكل ومشرب ومنكح ، فهذه مقوية لأركان التوبة ودعائمها ؛ فليغض طرفه وقلبه عن النظر إلى زهرة الحياة الدنيا ، ويبعد عن أهلها ، ولا ينظر إلى أموالهم وزينتهم ، ولا إلى ما في بيوتهم من الفرش والزخارف ، وليجعل هذا توبة فوق التوبة لا يعود إليه أبداً ؛ قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ ؛ فكان صلى الله عليه وسلم في عمله بهذا العلم ابتغاء مرضات الله .. إذا مر على أصحابه وعندهم أنعامهم .. يستر وجهه بثوبه ، حتى قيل له : إن هذه أحب أموالنا إلينا ؛ يعنون أنك لِمَ تستر وجهك عنها ؟ فيقول : «**إنَّ اللهَ أوحَى إليَّ كذا**» فيسكتون .

فقبيح بالسالك الناسك الطالب قرب مولاه ومحبته ورضاه .. أن يجالس أهل الدنيا ، ويؤاكلهم ويحادثهم ويدخل بيوتهم ، ويجلس على فرشهم ويضحك معهم حتى يتنزهون في منتزهاتهم ويفرحون بشهواتهم ، هذا كله إن كانوا صلحاء وأموالهم حلال ظاهر ؛ فإن كانوا فجاراً وأموالهم شبهات ومحظورات .. فيجب على العبد ويتعين عليه ؛ كما يبعد الإنسان من النساء الأجنبيات خشية الفاحشة ؛ فالإعراض عن أبناء الدنيا بالقناعة ؛ فمن لم يتيسر له ذلك .. فلا قناعة عنده ، ويسلي السالك نفسه بكتاب الله ، والتدبر لمعانيه ، ومطالعة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وزهده وقناعته وعزوفه عن الدنيا وسير أصحابه رضي الله عنهم وسيرة السلف الصالح بعدهم ، ثم سيرة السادة العلويين ممن شملَهم «المشرع الروي» وأمثاله من كتب تراجمهم رضي الله عنهم .

وليتأمل جداً في كتب خاتمة المحققين ، وارث علوم سيد المرسلين سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ، وفي مكاتباته ووصاياه وجملة كلامه المنثور والمنظوم ؛ فإن في ما ذكر سلوة وغنية للتبتل إلى الله والمقبل على الدار الآخرة ، وإفٍ للدنيا وإفٍ لمن هي مرامه ومرماه ؛ ففي القناعة حرية كاملة ، فعز القناعة ألذ وأشرف من سرور الفائدة من أهل الدنيا ، خصوصاً ما كان منها في هذا الزمان ؛ فإنه بلاء وفتنة وامتحان ، ولكن لما ضعُفت عقولهم وظنوا أنهم على شيء ، ولو انكشف لهم مآلهم في يوم القيامة والدار الآخرة .. لزهدوا فيها اختياراً حلالاً ، ولتحاموا عنها كالخراء .

وليلبس مع القناعة ثياب العفة ؛ لئلا يكون متشرفاً ومتشوفاً بلسان حاله ؛ فإنه مدح الفقراء المتعففين بقوله : ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ ، ومعنى العفة : أن لا يُبدي حاجته وفاقته على سبيل الطمع فيما في أيدي الناس ، بل يُظهر الاستغناء والاستكفاء ؛ فإن العفة حرية عليه لا قيمة لها ، وهي رأس القناعة ، ثم يلبس ثوب الحياء الكامل عن الشهوات والمباحات ودني الأفعال ومجالس التهم ؛ بأن يتنزه عن كل مذموم شرعاً وعقلاً ومروءة ، حتى لا يمازح ولا يماري ولا يسخر ولا يسفه ؛ فهذا رأس العفة .

وقد كان صلى الله عليه وسلم في الغاية من العفة والحياء ، وما عُرف الحياء والعفة إلا من خُلُقه صلى الله عليه وسلم ، فهذه خبوة وسباسب بعد عقبات التوبة ؛ فإذا جاوزها ؛ أي : اتصف بما قلنا وتنزه عن ضده .. فقد بعُد عن مسافة التوبة ، وأمن إن شاء الله الرجوع والانتكاس إليها .

ثم بعدها عقبة الورع الحاجز في المطعم والملبس والمنكَح والمسكن ، وهي عقبة كؤود لا يجاوزها أحد إلا بعناية الله ، خصوصاً مع سعة العلم ؛ فإنها تظهر لها تأويلات سبب اختلاف العلماء واختلاف المذاهب ؛ فالورع ملاك الدين ، وعدم المبالاة والتوسع في المباحات لا يكاد يقرب إلى الورع ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ، وقال عليه الصلاة والسلام : «**لا يبلغُ العبدُ درجةَ المتقينَ .. حتى يتركَ ما لا**

بأسَ بِهِ ؛ حذراً مما بِهِ بأسٌ» ، وهذا يوجب البعد من التوسع في الشهوات والمباحات ، وقد كان العارفين بالله على غاية الأمر في الورع ، وما ذكر صلاة ولا صياماً ولا قياماً ولا حجاً ولا صدقة ، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : (لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار .. لن يُتقبل منكم إلا بورع حاجز) .

فهذه ؛ أي : عقبة الورع عقبة عظيمة وعرة ؛ فلا يخرج العبد منها إلا في مبادي عقبة الزهد ، الذي هو رأس مال المقربين ، وعباد الله الصالحين ؛ فالتبسط في أمور المعيشة ومتاع الدنيا لا يتيسر معه الورع ، خصوصاً في زماننا هذا ، الذي قلَّ فيه العدل من الولاة والحكام ؛ فإن مدار الحلال على الولاة والحكام والقضاة والعلماء ؛ فقيام الشريعة بالسلطان ، فإذا لم ينظر إلى إقامة الحلال وتمييزه عن الحرام والشبهات .. فمن أين يتيسر الورع ؛ فإنه ورد : «**يزَعُ بالسلطانِ ما لا يزَعُ بالقرآنِ**» .

فإذا نظر السلطان إلى المواريث والزكوات والمعاملات بين الرعية وأهل الحرف والصناعات والحراثات وسائر المكاسب ، وأجراها على مجاري الشريعة ؛ حلالاً وحراماً وشبهة ، وأقام عدله فيها .. ظهر الحلال وأشرق نوره ؛ فإنه موجود شرعاً ، وإنما أعدمه عدم قيام السلطان فيه بأمر الله ورسوله على قانون العلم ؛ فإذا كان كذلك .. فيجب الكف عن التبسط في الشهوات ؛ خشية الشبهات ، وقد قال بعض السلف : (مَن لم تصحبه التقوى في فقره .. أكل الحرام المحض) والتقوى هنا عبارة عن الورع ؛ فإذا جاء مع المال ومنميه .

والمتسع فيه في هذا الزمان بعيد عن الورع جداً ؛ لعدم عدل الولاة كما بيناه ؛ فأمره في غاية الخطر والحذر ، وعبادته وأعماله إلى البطلان أقرب ، نسأل العافية والسلامة آمين .

ومن ثَمَّ سلوك عز الطالبون طريق الله ، وقلَّ السالكون لها ؛ كما أشار الى ذلك سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ونفعنا به :

خليليَّ هلْ مِنْ مُسعدٍ منكما على سلوكِ سبيلٍ دارسٍ وخفيةِ
تأخرَ عنها الأكثرونَ وأعرضُوا لـما علموا في قطعِهَا مِنْ مشقةِ

ثم بعد تصحيح الورع تأتي عقبه الزهد في الدنيا ، والزهد غير القناعة ؛ فإنه لا يصح الزهد إلا من ورع عفيف قانع حيي ، ومعنى الزهد : هو أن جميع أمتعة الحياة الدنيا في القلب ، واستحقارها إلى الغاية ؛ بحيث يتقذرها كما يتقذر الجيفة المنتنة ، فضلاً عما وراها من الحساب والعقاب ، بل لكونها فانية ومنغِّصة وصادة عن الله والدار الآخرة ، وكون الأنبياء والصالحين من عباد الله استنكفوا عنها واستحقروها .

وهذا الزهد لا يكون إلا في قلب أشرق فيه النور الإلهي المذكور في حديث : «**إنَّ النورَ إذا دخلَ القلبُ .. انفسحَ**» ، لكن مَن صدق في التوبة وما بعدها وصحح الورع ؛ خوفاً من الله .. فقد استعد لقبول هذا النور ، وقد قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ .

وأما الزهد في الدنيا ؛ خوفاً من حسابها وعقابها في موقف القيامة .. فينبغي أن يكون في كل عاقل مؤمن بيوم الحساب ، بل المراد من الزهد هنا ترك الجاه والمال والشهوات والرفاهيات ؛ خوفاً من نقصان الدرجات عند الله ، ومن التخلف عن زمرة السابقين ، والدخول معهم في فراديس الجنان ، والحضور معهم في حضرة النظر إلى وجه الله الكريم ؛ كما قال الإمام الفضيل ابن عياض رحمه الله تعالى : (لو كانت الدنيا كلها حلالاً ولا أُحاسب عليها .. لكنت أتقذرها ؛ كما يتقذر أحدكم الجيفة أن تصيب بدنه أو ثوبه) .

وحسبك مزهداً فيها ونقصاً في مَن أوتيها أن نبي الله سليمان عليه السلام آخر الأنبياء عليهم السلام دخولاً في الجنة ؛ لمكان ملكه ، وكان معصوماً منها ومن كل نقص كسائر الأنبياء ؛ كما ورد في الحديث : «**إنَّ اللهَ تعالى يبسطُ لأهلِ الجنةِ في فرحِ عيسى بالضيافةِ والإكرامِ ثمانيةَ أيامٍ ؛ وليمةً لزواجِهِ على الحورِ**» ؛ لمكان زهده في الدنيا ؛ فقد بلغ في زهده أنه توسد حجراً ؛ لينام ، فأتاه إبليس فقال له : أراكَ ركنتَ إلى الدنيا ؟! فرمى الحجر وتوسَّد ذراعه ، وبلغ من زهده أنه يمشي على الماء حتى قيل له : ما لنا لا نمشي على الماء مثلك

؟ فقال : (ما الدرهم والدينار عندكم ؟) فقالوا : ما أحسنه ، فقال : (لكنه عندي بمنزلة التراب – أو قال – : المدر) .

فالزهد في الدنيا مقام كريم ، وخلق عظيم ، من أخلاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ؛ فقد بلغنا عنه عليه السلام أنه قال : «**ما يسرُني لو أنَّ لي مثلَ أحدٍ ذهباً ، وتمضيَ عليَّ ثلاثةُ أيامٍ وعنديْ منهُ درهمٌ ، إلَّا درهمٌ أرصدُهُ لدَينٍ**» أو كما قال ، فانظر رحمك الله تعالى هذا الخلُق العظيم ؛ فقد وُصف صلى الله عليه وسلم في جوده أنه كالريح المرسلة ، وأجودها ما يكون في رمضان ، فأين الطالب الصادق المريد قربه والحشر في زمرته من اتباعه في معظم سنته ؛ حيث قال : «**عليكمْ بسنتِي وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ مِنْ بعدِي**» فالزهد معظم السنة ، والسخاء آية الزهد ، وقد ورد في صحيح الحديث : أن رجلاً من أهل الصفة توفي ، فوُجد في خلقانه ديناران ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : «**كيتانِ**» .

فانظر رحمك الله لنفسك النجاة ؛ فإن آخر هذه الأمة يهلك بالحرص وطول الأمل ؛ كما نجا أولها بالزهد واليقين ، وإنك والله إذا زهدت في الدنيا .. لم يفتك شيء كان لك منها ؛ فإنك إنما زهدت في الحقيقة في الحساب والعقاب ، وإنك إذا رغبت في الدنيا .. لم تدرك شيئاً ليس لك ، ولا يزيدك شيئاً على ما كنت زاهداً من مطعم وملبس ومنكح ومسكن ، كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**مَنْ أخذَ مِنَ الدنيا فوقَ ما يكفيْهِ .. أخذَ حتفَهُ وهوَ لا يشعُرُ**» .

واعلم أنه ورد في صحيح الحديث : «**حبُّ المالِ والجاهِ يُنبتانِ النفاقَ في القلبِ ؛ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ**» وقد علمت أن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولا يزيد حب المال القلب إلا نفاقاً حتى يسودَّ كله ، ويطبع الله عليه وينخرط به في جريدة المنافقين المذكورين في القرآن ؛ كثعلبة بن حاطب أدَّى به حب المال إلى هذا النفاق الذي ذكره الله في قوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ، وما كان ذنبه وسبب نفاقه إلا المال ومحبته والبخل به ، حتى أنه صلى الله عليه

وسلم لما أُوتي بزكاته .. لم يقبله ، وكذلك الصدِّيق والفاروق رضي الله عنهما لم يقبلاه ، وهذا تحقيق قوله صلى الله عليه وسلم : «**حبُّ المالِ والجاهِ يُنبتانِ النفاقَ في القلبِ ؛ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ**» وهذا في ابتداء حبهما ؛ فإذا دام ورسخ .. صار طبعاً نفاقاً راسخاً في القلب إلى يوم يلقى الله ، وهذه داهية عظيمة ، وفتنة هائلة نعوذ بالله .

ولهذا عزَّ طريق سلوك طريق الله ؛ لاحتجاب القلوب بحب المال ومتاع الحياة الدنيا ، لكن مَن عرف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .. استنكف لا محالة عن رذيلة حب المال ؛ خوفاً من الله ، واتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه أعرف الخلق بالله ، وأقربهم إليه وأوسعهم علماً برحمته ومغفرته وعفوه وجوده وكرمه ، وقد خُيِّرَ فاختار ما كان عليه ، وقد قال : «**وتفترقُ أمتي ثلاثاً وسبعينَ فرقةً ، كلُّها في النارِ إلا فرقةً واحدةً**» فسئل عنها ، فقال : «**مَنْ كانَ على مثلِ ما أنا عليْهِ وأصحابِي**» فانظر رحمك الله قوله : «**على مثلِ ما أنا عليْهِ**» .

ومما كان عليه هو الزهد والسخاء والجود ، وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم على الغاية في اتباعه صلى الله عليه وسلم ؛ كما أشار الى ذلك سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه ونفعنا به :

وقــدْ درجَ الأســلافُ مِــنْ قبــلِ هــؤلا ... وهمــتُهمْ في نيــلِ المكــارمِ والفضــلِ
لقــدْ رفضُــوا الــدنيا الغــرورَ ومــا ســعَوا ... لهــا والــذيْ يــأتيْ يُبــادَرُ بالبــذلِ

إلى آخر ما قال رضي الله عنه ، عكس هؤلاء الذين همومهم في جمع المال ؛ خوف الفقر فأصبحوا وقد لبسوا قميصاً من الجبن والبخل ، فكُشف حالهم في الحياة الدنيا ، فما بالك بما لهم في محفل القيامة ، ما أظنهم إلا في منزلة الجعلان .

فإذا قد عرفت مقام الزهد وشرفه .. فاطلبه من كتب العلماء العاملين ؛ كـ«الإحياء» ، و«الرسالة القشيرية» ، وكتب سيدنا الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنهم .

ثم بعد عقبة الزهد عقبة التوكل ؛ فلا يدوم الزهد في القلب حتى يمده التوكل ؛ فإن الشيطان يوسوس للزاهد حتى يوقعه في الأحزان والهموم ، فيدافعه بالتوكل على الله ؛ فإن كيد الشيطان ضعيف ، ومعنى التوكل : الاستكفاء بعلم الله ومشيئته ونظره وإحاطته وقدرته ، والعلم بأنه تعالى لا يترك عبدَه للفوات والهلاك ، خصوصاً إن كان مطيعاً ومحسناً ، وإن عادته جرت مع عباده الصالحين بالإحسان والستر الجميل ، هذا من حيث النظر العقلي ، وأما من حيث التوحيد .. فالتوكل حال شريف ، يُنزل في القلب نوراً من الله ، يُدخل العبد تحت دائرة التفويض والتسليم لله ؛ اختياراً وطوعاً وفرحاً لمطالعة صفات الحق تعالى القائمة بذاتها الممدة للوجود بالإيجاد والإمداد ، وشاهده قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ .

وليس في هذه العقبة ما في الزهد والورع ؛ فإنها على عناية الله المحضة ؛ إذ الشاق على النفوس حب الشهوات والميل عنها ؛ رغبة في وعد الله ، ورهبة من وعيده ؛ فإذا جاوزتَ تلك العقبات .. فما عليك من عقبة التوكل بأس ، وكذا ما بعده ؛ وهي عقبة الخوف والرجاء والصبر والشكر ؛ فإن هذه أحوال تَرِد على القلب من حضرة الله ؛ لكون القلب قد انطلق من حجب النفس ، وتنزه عن نجاستها التي هي الشهوات والتمتع بالمباحات ؛ فبقي قابلاً لأنوار الله تعالى ، مستعداً لرحمته ؛ فيصير بالله لله ، ويشكر بالله لله ، ويخاف الله من حيث يرجوه ، ويرجوه من حيث يخافه ، ويتوكل عليه بين الخوف والرجاء ؛ فهو ممتلئ بالخوف ، وممتلئ بالرجا ، وممتلئ بالتوكل ؛ لئلا يطغى أحدهما على الآخر ؛ فالتوكل ميزان بينهما .

فالشأن كله خلوُّ القلب من حُبِّ متاع الحياة الدنيا وزينتها ؛ فإذا خلا .. استعدَّ وتأهل لقبول الأنوار الإلهية ؛ فتشرق فيه أنوار الخوف والرجا والصبر والشكر بالضرورة من غير سبب وحيلة وكسب

ووسيلة ، ثم تلقى القلب هذه الأنوار ما فوقها من شرائف الأحوال ولطائف الوصال ، حتى تقف به في حضرة الصفات ؛ فيمتلئ بمطالعتها ، وينسلخ عن النفس التي مطمحها النظر إلى العالم الحادث ، وينطلق الروح حينئذ من معادن القلب التي باشرها قبل التملي ؛ فتقف في عالم الأمر ، ويطالع السر منها حضرة الذات ، وهذا فضل الله ورحمته يؤتيهما من يشاء ، وسببه صحة التقوى على سبيل الإيمان والعلم والعمل كما قررناه ، ومن ههنا يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه : «**تعلمُ العلمِ يُلهَمُهُ السعداءُ ، ويُحرمُهُ الأشقياءُ**» أي : العلم ؛ فقد أدى العلم بأهله إلى ما ذُكر .

فانظر رحمك الله جلالة التقوى ، المشتملة على الإيمان والعلم والعمل ؛ كيف ناخت بركابها في بساط القرب ، وسقته من نعيم الشرب ، وكسته من خلع الحب ، وإلى هذا المعنى أشار بقول سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه :

تقـــوى إلـــهِ العالَمـــينَ فإنهـــا ... عـــزٌّ وحـــرزٌ في الـــدنا والمرجَـــعِ
فيهـــا غنـــى الـــدارينِ فاستمســـكْ بهـــا ... والـــزمْ تنـــلْ مـــا تشـــتهيْهِ وتـــدعيْ

فإذا صحت تلك الأحوال في القلب من التوكل والصبر والشكر والخوف والرجا .. صارت للعبد مقامات لا تذهب ولا يرحل عنها ، وتُثمر له بعدها الرضا عن الله ومع الله في معاملاته ومنازلاته ، ومعنى الرضا : السرور بمواقع القضاء ، وعدم التمييز والاختيار بين المر والحلو ، وهو حال شريف منيف ، وقد روي عن الفاروق رضي الله عنه أنه قال : (ما أصبحتُ إلا وسروري بمواقع القضاء ، وما أبالي كيف أصبحت) أو كما قال .

ولا تطيقه القوة البشرية من حيث الكسب والجهد ؛ لأنه من مواهب الله تعالى ، وحقيقته فناء البشرية بنيران الشهود للذات من مطالعة الصفات ؛ بحيث يكون إبراهيمياً تصير النار في حقه برداً وسلاماً ، ولذا قلنا : لا تطيقه القوة البشرية ، ومن دام ثبت له حال الرضا .. لا تحرقه النار ، بل لا تحرق

ثيابه التي عليه ، وفي الأمة المحمدية من دخل النار ولم تضره كثيرون ، وهذا تحقيق لما قلنا سابقاً : إنه يكون قلب بعض المحمديين على مثل قلب الخليل عليه السلام .

فإذا فهمت حال الرضا .. فاعلم أن صاحبه صار من برودته مع الله كالماء البارد ؛ لا تؤثر فيه نيران الأقدار والأقضية ، بل يطفيها ويبردها ؛ لأنه ليس لها فيه قابلية للاشتعال والشب ؛ فقد ذهبت أخشاب بشريته ولحومها وشحومها بنيران المشاهدة في حضرة التوحيد ؛ فهو الذي مدحه الله تعالى بقوله : ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي : ملكوتي رباني أمري خالص .

فلو دخل صاحب هذا القلب في جهنم .. لطفئت ، وإليه الإشارة بقول : «**جُزْ يا مؤمنُ ؛ فقدْ أطفأَ نورُكَ لهبِي**» أي : يوم القيامة ؛ فالرضا الحقيقي ما كان عن ذوق ووجدان ، فأما المتكلف .. فهو موجود عند عامة المؤمنين وهم متفاوتون فيه ، وعلى قدر الغفلة عنه وعن ذكره يقل الرضا ، ويضعف حتى يذهب بالكلية ؛ فإذا دام هذا الحال في العبد وصار مقاماً له .. خُلعت عليه خلع المحبة ، تتوالى هذه بعد هذه إلى أن يُكرم بخلعةِ «**كنتُ سمعَهُ**» ؛ فحينئذ ينطوي الملك والملكوت في زاوية من زوايا قلبه ، ويتبوأ من عوالم الأزل والأبد حيث شاء ؛ فتكون الجنة عن يمينه ، والنار عن شماله ، والعرش بين يديه ، والصراط تلقاء وجهه ، {جهنم} كما قرر كثير من الورثة المحمديين من السادة العلويين وغيرهم .

ومن السادة العلوية سيدنا الاستاذ الأعظم القائل : (أنا في الأولياءِ .. كمحمدٍ في الأنبياءِ) ، وقال عنه سيدنا القطب الغوث الحبيب عبدالله بن علوي الحداد :

كانـــتْ بدايتُـــهُ مثـــلَ النهايـــةِ مِـــنْ أقرانِـــــهِ فـــــاعتبرْ هــــذا بتبيـــــانِ

الإمام أبو علوي الفقيه المقدم محمد بن علي ، والمقدم الثاني القطب الغوث الفرد الجامع الشيخ المطلق الولي المحقق بلا نزاع ولا دفاع عبدالرحمن السقاف بن محمد مولى الدويلة رضي الله عنهم أجمعين .

فقد عرفت بما تقرر أن مَن أسعده الله تعالى بالإيمان ... فقد أغناه بما أولاه ؛ فليشمر لطلب العلم ؛ فإن فيه الفوز بالقرب من الله ومجاورة رسل الله وأولياء الله في الدنيا والآخرة ، وقد بلغنا عن كثير من السادة العلوية وغيرهم أنهم يقولون : (لو حُجب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة .. ما عددنا أنفسنا مسلمين) .

وإذا وُفقت لطلب العلم .. فالزم العمل ؛ فإنه لا ثمرة بدونه ، ولا قرب إلا به ؛ كما ورد : «**ولا يزالُ عبدِيْ** ...» الحديثَ ، وأما قول سيدنا الغوث الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه مشيراً إلى العمل : (بك لا نصل ، ولا بدَّ منك) .. فهو صحيح أن أصل الوصول بالإيمان ، وأن من يؤمن بالله .. يهد قلبه إلى العلم ، وقوله : (ولا بد منك) .. هو صحيح أيضاً ؛ لأن من ترك العمل وقف ؛ فإن تباطأ به .. ذهب العلم ، ولو صح العلم وكمُل العمل .. لم تجد عالماً مائلاً إلى حظٍّ عاجل من هذه الحياة ؛ كما أشار إلى ذم علماء السوء وأحوالهم سيدنا الإمام الغزالي رضي الله عنه في جملة كتبه وغيره من العلماء .

ثم المحبة هي سر الأحوال والمقامات ، ونهاية اليقين الصافي ؛ لأنه لا يذوقها إلا أهل الرضا المتقدم ذكره ، ومعنى يذوقها : يتحقق برتبتها ؛ لأن ذوقها لا يُكيَّف ولا يخطر بالبال ، ولا يتحقق ذوقها إلا في دار القرار والله أعلم .

هذا ما يسره الله تعالى مع كثافة البال ، وتكدر الحال ، وعدم الثبات على حفظ الأنفاس والأوقات ، وما في البال من شوارد التعبير شيء كثير ، وسببه الشتات بما ابتلينا به من مراعاة النفس والأهل والأولاد وخلطة العامة ؛ فنستغفر الله ونتوب إليه ، والنصيحة من الدين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، والعلم هو النور المبين ، ومن يرد الله به خيراً .. يفقهه في الدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

لعمـــــرُكَ إنمـــــا الدنيـــــا شتــــــاتُ وعقبـــــى حـــــظِّ أهليهـــــا الفـــــواتُ

تأملْ جامعيها كيفَ صارُوا سُكارى والهِينَ وكيفَ باتُوا
وظلُّوا في مقاساةٍ وشغلٍ وما ذاقُوا نعيماً ثم ماتُوا
عطاشَى ذائبينَ منِ التهابِ الـ ـكبودِ إلى المقاصدِ والحياةِ
منغَّصةً بأنكادٍ ثقالٍ وتأتيهمْ أمورٌ متعِباتُ
فلا يختارُها حرٌّ عفيفٌ ولا يرضى بهَا القومُ التُّقاةُ
وقدْ قالَ لنا الحبيبُ صريحاً رجا فيها الركونُ لنا ثباتُ
فبشرْ جامعيها ======= == ثلاثاً في الحياةِ لها بياتُ
تهينُ الرافعينَ لها بذلٍّ تضرُّ النافعينَ بقولِ هاتُوا
تبيدُ الجامعينَ بريحِ فقرٍ كذلكَ صيرَتْهُ السالفاتُ
ألمْ يكُ ذاكَ منْ سكرٍ وسٍ فما هارونُ منها والدهاةُ
تراهُمْ حينَ بشراهمْ سُكارى منَ الوجدانِ إنْ ذُكرتْ هباتُ
وأرباحُ المصالحِ لم يظنُّوا بأنَّ وراءَهم ذاكَ المماتُ
إذا امتلأتْ صدورهمُ ببشْرٍ وتمَّ مُقامُهمْ وصفتْ صفاتُ
وظنوا أنهمْ قدْ تمَّ فيهمْ نعيمُهمُ وطابتْ طيِّباتُ
ودانَ الناسُ وارتهنوا لديهمْ وواتى الجمعُ وانتزحَ الشتاتُ
حداهمْ حادي الأمواتِ يوماً فأسمعَهمْ وأفزعَهمْ فباتُوا
يئنُ مريضُهمْ بطنيْ ورأسي وهذا قالَ أوجاعي قساةُ
وهذا قالَ بي ريحٌ شديدٌ وهذا وا أينُ الأساةُ
فأثقلَهم هنالِكَ كلُّ داءٍ فأضحُوا في القبورِ لهم نُعاةُ
فأصبحتِ الأسرُّ خالياتٍ وأصبحتِ المنازلُ خاوياتِ
وأصبحتِ الغواني في بُكاءٍ وصاحاتْ في القصورِ النائحاتُ
وصفحُ الصوتِ بالتعديدِ حتى توالى الحزنُ وانتشرَ العزاةُ
وواراهمْ تُربُ القبرِ حتى نسُوا الدنيا وما لهمُ التفاتُ
إليها بعدَ ذلكَ يا نديمي فهمْ جيَفٌ هنالِكُ منتِناتُ
وليتَ الأمرَ بعدَ الموتِ هذا ولكنْ بيِّناتٌ واضحاتُ
منَ التنزيلِ والأخبارِ جاءتْ أمورٌ هائلاتٌ مفضعاتُ
فأوَّلُها سؤالُ القبرِ يا ذا وحيَّاتٌ هنالِكَ لاسعاتُ

عقاربُ لادغاتٌ منْ عذابٍ   مقامعُ منْ حديدٍ هاوياتُ

وعكسُ الأمرِ للسعداءِ رَوحٌ   وريحانٌ وأشياءُ صالحاتُ

ونَمْ نومَ العروسِ إلى الإنشقاقِ   وبعدَ النفخِ حشرٌ يا نساةُ

ونشرٌ واجتماعٌ في وقوفٍ   وعرْضٌ والحسابُ وناشراتُ

منَ الصحفِ التي مُلئتْ وجاءتْ   بها الأملاكُ تشهدُ ببيناتُ

فمَنْ ثقُلتْ ومَنْ خفَّتْ بوزْنٍ   ونيرانٍ هنالِكَ حامياتُ

مناقشةٌ وتفتيشٌ دقيقٌ   تشيبُ لهولها الناصياتُ

وجسرٌ في متونِ النارِ صعبٌ   كحدِّ السيفِ يعبرهُ العصاةُ

فلا يمضونَ فيْهِ لثقلِ ظهرٍ   أولئكَ حزبُ إبليسَ الطغاةُ

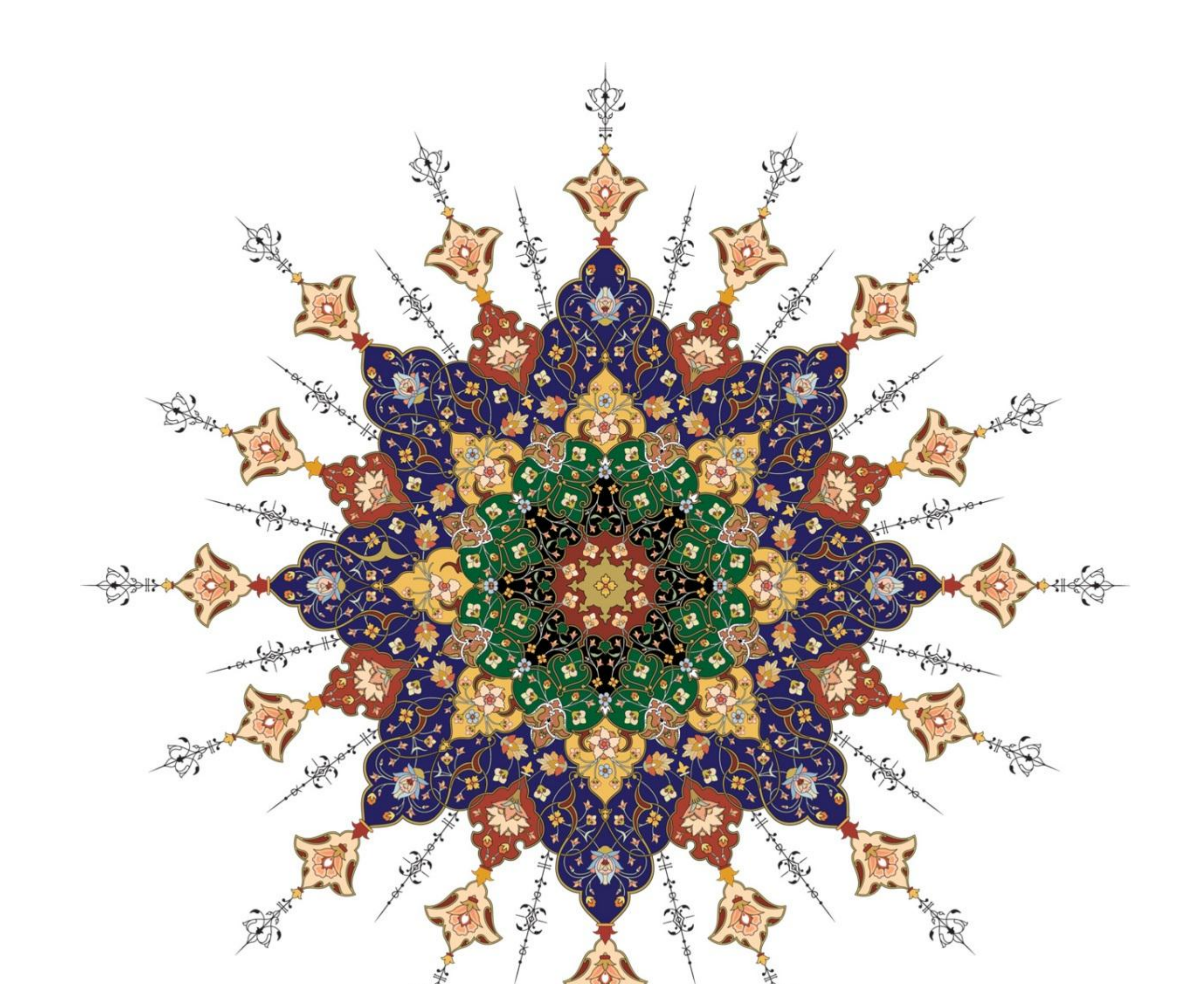
ويعبرُهُ التقيُّ كمثلِ برقٍ   وآخرُ مثلُ ريحِ والنجاةُ

تعمُّ المتقينَ وبعدَ هذا   جوازٌ للنعيمِ مبشراتُ

وحوضٌ للنبيِّ هناكَ حالٍ   وصافٍ ذوقُهُ عذْبٌ فراتُ

فيشربُ منهُ كلُّ الناسِ حتى   إذا امتلأوا حدَتْهُم حادياتُ

إلى الجناتِ يستبقونَ بِشْراً   بوعدِ اللهِ يا نعمَ الصلاتُ



فتح الرحمن شرح

صلاة أبي الفتيان سيدي

القطب أحمد البدوي

شرح قطب زمانه وعلامة أوانه

بهجة النفوس وتاج الرؤوس

عبدالرحمن بن مصطفى

العيدروس

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم ؛ صل وسلم وبارك علىٰ سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية ، ولمعة القبضة الربانية ، وأفضل الخليقة الإنسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية ، ومعدن الأسرار الربانية ، وخزائن العلوم الاصطفائية ، صاحب القبضة الأصلية ، والبهجة السنية ، والرتبة العلية ، من اندرجت النبيون تحت لوائه ؛ فهم منه وإليه ، وصل وسلم وبارك عليه وعلىٰ آله ، عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلىٰ يوم تبعث من أفنيت .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه الاستعانة ، أحمدك يامَن جعل الصلاة والسلام علىٰ أحمد معراجاً إلىٰ شهوده ، وأشكرك مستزيداً من آلائك الغير المتناهية في تنزل الأمر وصعوده ، وأصلي وأسلم بك عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاة وسلاماً تشرق أنوارهما في جميع الأحوال والمقامات ، وهناك يحصل التحقيق بحقيقة فَناء الفَناء ، الذي هو عين البقاء بالأفعال والصفات والذات .

أما بعد – ولا بعدَ ولا قبلَ لمن هو قبل القبل وبعد البعد – : فهذه نفحات صمدية ، تحاكي الشرح علىٰ أنفاس أوحدية أحدية ، طلبها مني بعض الأحباب المتعلقين بأذيال صاحب الأصل ؛ سيدي قطب الأقطاب ذي المدد النبوي ، الأستاذ الملاذ السيد الشريف أبي الفتيان أحمد البدوي العلوي ، قدسنا الله بأسراره ، وأفاض علينا وعلىٰ أحبابنا من أنواره ، وربما حصل مني لمناسبة تكرار المعنىٰ في موضعين ؛ وذلك للطالب الراغب زيادة تقرير ، تَقَرُّ به العين ، ولنشرع في المطلوب ، مستمدين من حضرات الشهادة والغيوب ؛ فنقول :

قال قُدس روحه وضوعف علينا فتوحه :

(اللهـــمَّ)

أي : يا الله ؛ فالميم بدل من حرف النداء ، وقيل : بل هي هنا ميم الجمع ؛ فيكون المقصود جميع أسماء الله تعالىٰ ، وهذا الاسم علَم شخصي على الذات العلية المستغنية عن جميع الأغيار ، صادق عليها ظهوراً وبطوناً ، وهو واسطة عظيمة بين الذات العلية والعباد ، وهو الجامع لجميع مراتب الأسماء والصفات ، التي نعرف الله تعالىٰ بها والتي ما نعرفه بها ؛ لأنه الاسم الأعظم قطعاً ، وإنما يستجاب لك به إذا قلت : (الله) وليس في قلبك سواه ، وكيف لا يكون هو الاسم الأعظم وهو اسم لذات الحق ؛ باعتبار المرتبة الجامعة لجميع الكمالات من الأسماء والصفات .

فإن قلتَ : كيف يجوز التفاضل بين أسمائه سبحانه وتعالىٰ ؟

قلنا : دل علىٰ ذلك الحديث النبوي وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «**اللهمَّ ؛ إنِي أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وبمعافاتِكَ مِن عقوبتِكَ**» فاستعاذ من صفة بصفة ، ثم قال : «**وأعوذُ بِكَ**» ؛ أي : من حيث ذاتك منك ؛ أي : من حيث أسماؤك وصفاتك ، ولا يُستعاذ إلا بما هو أعظم .

وقد قيل تحت قوله تعالىٰ : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ : أي : يمحو الله ما يشاء من علم مقتضيات الأسماء والصفات ، ويُثبت بعلم مقتضيات الذات ، وعنده أم الكتاب ؛ يعني : علم مقتضيات الذات ؛ فعلم مقتضيات الصفات هو المعبَّر عنه بالكتاب ، وعلم مقتضيات الذات هو المعبَّر عنه بأم الكتاب ، ومن ثَمَّ كانت الذات هي الحاكمة على الأسماء والصفات وجميعِ مَن في الأرض والسماوات .

وعلىٰ كل حال .. فتقدم الذات على الأسماء والصفات رتبي لا نافي ؛ فلا يهولَنَّك ما سمعت ، **واعلم** أن كل ذلك راجع إلى الذات العلية ؛ إذ هي الظاهرة في الكل والمحيطة بالكل ، وكما لا تُعدد أسماؤه

.. كذلك لا تعدد صفاته ، هذا والعجز عن درك الإدراك إدراك ، وسبحان من لا سبيل بمعرفته إلا بالعجز عن معرفته ، وسبحان من أعجز الخلائق عن معرفة أسمائه وصفاته حق المعرفة ؛ فكيف معرفة ذاته .

(صلِّ وسلِّمْ وبَارِكْ)

أي : من حضرة غيب الغيب .

(على سيِّدِنَا ومولانَا)

معشرَ الخلائق ؛ إذ هو المقدَّم في الفضل على جميع المخلوقين ؛ فيكون كل ذلك من الله بحسب قدّره عنده ، ولا يعرف قدره حقيقة غير مولاه عز وجل ، وبالجملة .. فالإحسان من الجليل العظيم لجليل عظيم عنده .. لا يكون إلا جليلاً عظيماً .

ومعنى قوله : **(صلِّ وسلمْ وباركْ)** من الرحمة الذاتية من غير واسطة ، والسلامةُ من الآفات والبركة التي هي الزيادة والنمو .. ظاهر ؛ فلا يحتاج إلى تطويل الكلام تحته ، وفضل الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم لا يُحصر ، وهو مشهور ومذكور في مظانه ؛ فلا نطيل بذكره ، وقد قال بعض العارفين نفع الله تعالى بهم : يُعدم المربون في آخر الزمان ، و يصير ما يوصل إلى الله تعالى إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وبها يحصل الاجتماع به صلى الله عليه وسلم مناماً ويقظة .

وحسبك أنه اتفق العلماء على أن جميع الأعمال منها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنها مقطوع بقبولها ؛ إكراماً له صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وأما شاهد كونه صلى الله عليه وسلم أفضل الكل .. فقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ الآيَةَ ؛ فما بعث الله نبياً إلا و أخذ عليه الميثاق : لئن بُعث محمد وهو حي .. ليؤمنن به ولينصرنه ؛ ليكون محمدٌ إماماً له ومقدَّماً عليه ، متبوعاً لا تابعاً ، هذا مع علمه سبحانه أن محمداً خاتم النبيين والمرسلين ، وإنما أراد الله سبحانه وتعالىٰ تعريفهم بفضله وبتقديمه عليهم ، وبجلالة قدره وعلو شأنه صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، وأنه المقدَّم عليهم ، وأنه نبيهم ورسولهم كما سنبين ذلك ، ويمكن أن يكون فيه حكم آخر ولا يلزم علينا أن نعلمه .

وقد ظهر ذلك في الدنيا بكونه أَمَّهم ليلة الإسراء ، ويظهر في الآخرة بأنهم كلهم تحت لوائه ، وفي آخر الزمان ينزل عيسىٰ عليه السلام ، ويكون حاكماً بشريعته صلى الله عليه وسلم ، وقد وقع التبليغ أيضاً منه صلى الله عليه وسلم لهم عليهم الصلاة والسلام ليلة الإسراء ؛ ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا علىٰ ربهم ، ثم إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنىٰ علىٰ ربه ؛ فقال : «**كلُّكُمْ أثنى على ربِّهِ ، وأنا مثنٍ على ربي**» فقال : «**الحمدُ للهِ الذي أرسلَني رحمةً للعالمينَ ، وكافةً للناسِ بشيراً ونذيراً ، وأنزلَ عليَّ الفرقانَ فيهِ بيانُ كلِّ شيءٍ**» الىٰ أن قال : «**وجعلَني فاتحاً ، وجعلَني خاتَماً**» ، فقال ابراهيم عليه السلام : (بهذا فضلكم محمد) ، وأقروا بما أثنىٰ هو علىٰ ربه وما قاله إبراهيم عليه السلام ؛ وهو تفضيله صلى الله عليه وسلم .

فهذا هو التبليغ لهم ، والإيمان منهم به ، والنصرة منهم لقوله صلى الله عليه وسلم ؛ فتحققَ مجيؤه صلى الله عليه وسلم إليهم ، وتحققَ منهم عليهم السلام الوفاء بالميثاق الغليظ الذي أخذه الله تعالىٰ منهم ؛ حيث قال : ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآيَةَ .

وحينئذ لا يتوجه قول القائل : (إن الله سبحانه وتعالى إذا كان عالماً في الأزل أنه لا يجتمع معهم صلى الله عليه وسلم ؛ فما هذا الميثاق الغليظ ؟!) ولا يحتاج بعد تسليم هذا لما قرره الإمام السبكي رحمه الله في الآية ، وإن كان ذلك لما ادعاه تاماً ؛ وهو ثبوت الرسالة إليهم أيضاً وإن لم يتحقق التبليغ ؛ لمانع منهم لا منه ؛ لعدم مجيء صورته البشرية في زمانهم ؛ وذلك مثل الساكنين في شواهق الجبال ؛ فإنه مرسَل إليهم اتفاقاً وإن لم يحصل التبليغ لهم ؛ فالمانع منهم لا منه صلى الله عليه وسلم ، ولله در سيدي القطب محمد وفا حيث قال شعراً :

فأنتَ رسولُ اللهِ أعظمُ كائنٍ   وأنتَ لكلِّ الخلقِ بالحقِّ مرسلُ

وهذا كله من حيث صورته البشرية ، وإلّا .. فقد آمنت به جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في القِدم ، ولهذا كان هو نبيهم وهم نوابه ووُرَّاثه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه المظهَر التام ، والواسطة العظمىٰ ، والحجاب الأرفع الأجمع للأسماء ، الذي نال المقر الأجمل الأكمل الأحمىٰ ؛ فهو صاحب البرزخية الكبرى ، التي هي عبارة عن شهود الذات المعبَّر عنها بالآية الكبرىٰ ؛ فللأنبياء وورثتهم قاب قوسين وخُص بـ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ؛ فما عرف أحد الحق كمعرفته ، ولا أحبه الحق ولا أحب له كمحبته ؛ فله صلى الله عليه وسلم التفرد في كل مقام ، ولهذا كان المِدُّ للخاص والعام ، وحيث كان نبيهم .. فهو واسطتهم وممدهم ، والكل نوابه وخلفاؤه ، ولله در سيدي سالم بن شيخان العلوي حيث قال شعراً :

لكَ ذاتُ العلومِ والأسماءُ   يا نبياً نوابُهُ الأنبياءُ

ومثله قول شيخ شيخنا ؛ وهو الشيخ عبدالغني النابلسي شعراً :

كلُّ النبيينَ والرسلِ الكرامِ أتَوا   نيابةً عنْهُ في تبليغِ دعواهُ
فهوَ الرسولُ إلى كلِّ الخلائقِ في   كلِّ الدهورِ ونابَتْ عنْهُ أفواهُ

وفي "الفتوحات المكية" للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي رضي الله عنه ونفع به ما صورته : (مستمَدُّ جميع الأنبياء والمرسلين من رُوح محمد صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هو قطب الأقطاب ؛ فهو ممدٌّ لجميع

الناس أولاً وآخراً ، وهو ممدٌّ كل نبي وولي سابق على ظهوره حال كونه في الغيب ، وممدٌّ أيضاً لكل ولي ولاحق ؛ فيوصله بذلك إلى مرتبة كماله ؛ في حال كونه موجوداً في عالم الشهادة وفي حال كونه منتقلاً إلى الغيب الذي هو البرزخ والدار الآخرة ؛ فإن أنوار رسالته صلى الله عليه وسلم غير منقطعة عن العالَم من المتقدمين والمتأخرين) ثم قال : (فكل نبي تقدم على زمان ظهوره .. فهو نائب عنه في بعثته بتلك الشريعة) انتهى .

ومما تقدم ومما سيأتي يتضح المراد من قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَـٰذِيرًا ﴾ ، وكذلك : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، وأن الحصر والعموم على حقيقته ، ويتحقق إرساله للكل ، ومما يؤيد ذلك أيضاً قول الشيخ محيي الدين ابن عربي نفع الله به في رسالته "الأنواء" ما ملخصه : (و**اعلم** أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح ، حتى بُعِث بجسمه صلى الله عليه وسلم ، فأولياء الأنبياء الذين سلفوا يأخذون من أنبيائهم ، وهم يأخذون من محمد صلى الله عليه وسلم) انتهى .

وفي كلام الأستاذ الملاذ السيد الشريف حاتم الأهدل الحسيني وتلميذه الأستاذ الملاذ عبدالقادر العيدروس نفع الله بهما .. ما هو صريح في تأييد كلام الشيخ محيي الدين الذي ذكرناه عنه نفع الله بالجميع .

وفي كلام قطب الأقطاب سيدي أبو الحسن الشاذلي نفع الله به ما صورته : (وكل نبي وولي مادته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن الأولياء من يشهد عينه ، ومنهم من تُخفى عينه ومادته ؛ فيثني فيما يرد عليه ولا يشتغل بطلب مادته) انتهى .

وفي كلام سيدي محيي الدين ابن عربي أيضاً ما صورته : (**اعلم** أن كل ولي لله تعالى فإنه يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يعرف ذلك ومنهم من لا يعرفه ؛ فيقول : قال

لي الله ، وليس غير تلك الروحانية ، وأما المُهَيَّمُون من طوائف الملائكة عليهم السلام .. فإنهم لما كانوا في شدة الاستغراق في شهود الحضرة المحمدية .. جُعِلوا كأنهم لا يعقلون غير الذات ، وكمال الاستغراق أدمج لهم الحضرة المحمدية ، ولا يلزم من هذا نفي كونه صلى الله عليه وسلم واسطة لهم كغيرهم كما لا يخفى) ، وفي شرحنا الكبير على الأبيات العيدروسية في هذا المبحث أطلنا الكلام فيما يؤيد ما ذكرناه هذا ؛ فليراجع مع ما سيأتي في مواضع من هذه التعليقة .

قلتُ : ومن المناسبة المؤيدة لما تقدم في الجملة قوله صلى الله عليه وسلم : «**أَنَا يعسوبُ الأرواحِ**» ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «**تحتَ لوائِيْ الأولونَ والآخرونَ**» ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «**بُعثتُ إلى الأحمرِ والأسودِ**» ، وفي حديث جابر رضي الله عنه المصدَّر : «**أُعطيت خمساً لمْ يُعطهنَّ نبيٌّ قبلِيْ ، وكانَ النبيُّ ﷺ يُبعثُ إلى قومِهِ خاصةً وبُعثتُ إلى الناسِ عامةً**» .

وفي حديث ثابت : «**كنتُ نبياً وآدمُ بينَ الروحِ والجسدِ**» ، وفي رواية : «**بينَ الماءِ والطينِ**» لا روحَ ولا جسدَ ، ولا ماءَ ولا طينَ ؛ لأنك إذا قلت : مسكني بين البصرة والكوفة .. عُلم أنه ليس فيهما ، وفي الحديث الصحيح : «**أنا سيدُ ولدِ آدمَ**» ، وفي رواية : «**أنا أكرمُهُمْ على ربِّيْ**» ، وفي حديث الترمذي : «**أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وبيديْ لواءِ الحمدِ ولا فخرَ ، وما منْ بنيِّ آدمَ فمَنْ دونَهُ إلَّا تحتَ لوائِيْ**» ، وهو صريح في دخول آدم عليه السلام .

والنهيُ عن تفضيل بعض الأنبياء على بعض أجيب عنه بأجوبة ؛ منها :

أن ذلك في التفضيل المؤدي إلى تنقيص بعضهم أو النقص من مقامه ، هذا وفي كلام سيدي علي وفا نفع الله به : (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعموم أصحابه : «**لا تُفضِّلونيْ على يونسَ بنِ متى**» ، وقال لخواصهم ممن فارق بشريته : إنه أفضل من جميع المرسلين والملائكة المقربين ؛ فقُبلَ ذلك منه ببشاشة وتصديق خالص ، ولو قال ذلك لمن في بشريته .. لارتاب .

وقال سيدي أبو المواهب الشاذلي قُدِّس سره : (وقع بيني وبين شخص من الجامع الأزهر مجادلة في قول صاحب البردة شعراً :

فمبلـــغُ العلـــمِ فيـــهِ أنَّـــهُ بـــشَرٌ وأنَّـــــهُ خـــيرُ خلـــقِ اللهِ كلِّهِـــمُ

وذلك أنه قال : «ليس له دليل على ذلك» ، فقلت : «قد انعقد الإجماع على ذلك» فلم يرجع ! فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبوبكر وعمر رضي الله عنهما جالساً عند الجامع الأزهر ، وقال لي : «مرحباً بحبيبنا» ثم قال لأصحابه : «ما تدرون ما حدث اليوم ؟» قالوا : «لا يا رسول الله» ، فقال : «فلان التعيس ، يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلي ! أما علم أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا يقدح في الإجماع») .

وقال أيضاً : (رأيته صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقلت : «يا رسول الله ؛ قول البوصيري : فمبلغ العلم فيه أنه بشر .. معناه : منتهى العلم فيك أنك بشر عند من لا علم عنده بحقيقتك ، وإلا .. فأنت وراء ذلك بالروح القدسي والقالب النبوي» ، فقال صلى الله عليه وسلم : «صدقتَ وفهمتُ مرادك») انتهى .

وفي الحديث الشريف : «**أنا سيدُ آدمَ ولا فخرَ ، ومَنْ دونَهُ تحتَ لوائيْ يومَ القيامةِ ، لقدْ جئتُكمْ بها بيضاءَ نقيةً ، لو كانَ موسى بنُ عمرانَ حياً .. لما وسعَهُ إلا اتباعِي**» ، وفي البخاري وغيره : «**أنا سيدُ الناسِ يومَ القيامةِ**» ، وحديث : «**أنا سيدُ العالمينَ**» .. صححه الحاكم .

وبما تقدم يُعْلَم أفضليته على الملائكة ؛ لأن آدم أفضل منهم ، وهو صلى الله عليه وسلم أفضل منه ، ويؤيده الحديث الآتي على الإثر : «**ليسَ أحدٌ منَ الملائكةِ ...** » ، وحديث الترمذي الحسن كما بينه البلقيني في فتاويه رداً على الترمذي : «**وأنا أكرمُ الأوَّلينَ والآخرينَ**» ، وهذا صريح في شمول الأنبياء والملائكة جميعهم ، وصح عند ابن عباس – وله حكم المرفوع – : «**ولولا محمدٌ .. ما خلقتُ آدمَ ، ولولا محمدٌ .. ما خلقْتُ الجنةَ والنارَ ، ولقدْ خلقْتُ العرشَ على الماءِ فاضطربَ ، فكتبتُ عليهِ : لا إلهَ الا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ فسكنَ**» .

وعن ابن عساكر : هبط جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «**إنِ اتخذْتُ إبراهيمَ خليلاً .. فقدْ اتخذتُكَ حبيباً ، وما خلقْتُ خلقاً أكرمَ عليَّ منكَ ، ولقدْ خلقتُ الدنيا وأهلَهَا لأعرِّفَهمْ كرامتَكَ ومنزلتَكَ ، ولولاكَ .. ما خلقْتُ الدنيا**» ، وفي روايات أخرىٰ : «**ولولاهُ .. ما خلقْتُ السماءَ ولا الأرضَ ، ولا الطولَ ولا العرضَ ، ولا وُضعَ ثوابٌ ولا عقابٌ ، ولا خلقْتُ جنةً ولا ناراً ، ولا شمساً ولا قمراً**» ، وصح : «**أنا أولُ مَنْ تنشقُ عنهُ الأرضُ ، فألبسُ حلةً منْ حُللِ الجنةِ ، ثمَّ أقومُ عنْ يمينِ العرشِ ليسَ أحدٌ منَ الملائكةِ يقومُ ذلكَ المقامَ غيرِيْ**» .

وفي رواية ذكرها السراج البلقيني أنه تعالىٰ قال : «**مننتُ عليكَ بسبعةِ أشياءَ ؛ أولُها : أنيْ لمْ أخلقْ في السمواتِ والأرضِ أكرمَ عليَّ منكَ**» ، وفي أخرىٰ ذكرها أيضاً : أن جبريل عليه السلام قال له : (ابشر ؛ فأنك خير خلقه وصفوته من البشر ، حباك الله بما لم يُحبِ به أحداً من خلقه ؛ لا ملَكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً) ، وصحَّ عن بحيرىٰ – وهو من علماء أهل الكتاب الذين لا يقولون شيئاً إلا عنه – : (هذا سيد العالمين) .

وصحَّ أيضاً عن عبدالله بن سلام الصحابي الجليل إمام أهل الكتاب بشهادته صلى الله عليه وسلم أنه ذكر يوم الجمعة بالمسجد أموراً ؛ منها : أنه أكرم خلق الله تعالىٰ على الله تعالىٰ ؛ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : فأين الملائكة ؟ فضحك وقال للسائل : هل تدري مَن الملائكة ؟ إنما الملائكة خلْقٌ كخلق السموات والأرض والرياح والسحاب والجبال وسائر الخلق التي لا تعصي الله شيئاً ، وإن أكرم الخلق على الله أبو القاسم صلى الله عليه وسلم .

وبيَّن السراج البلقيني أن هذا له حكم المرفوع وهو كذلك ؛ فإنه من أجلاء الصحابة ؛ فلا يقوله إلا عنه صلى الله عليه وسلم أو عن ما صح في التوراة .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**أنا قائدُ المرسلينَ ولا فخرَ ، وأنا خاتَمُ النبيينَ ولا فخرَ ، وأنا أولُ شافعٍ وأولُ مشفعٍ ولا فخرَ**» رواه الدارمي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أنا أولُ الناسِ خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا قائدُهمْ اذا وَفدُوا ، وأنا خطيبُهمْ اذا أنصَتوا ، وأنا مستشفِعُهم اذا حُبسُوا ، وأنا مبشِّرهمْ اذا أيسُوا ، الكرامةُ والمفاتيحُ يومَئذٍ بيدي ، وأنا أكرمُ ولدِ آدمَ على ربيْ ، يطوفونَ عليَّ ألفُ خادمٍ كأنهمْ بَيضٌ مكنونٌ أو لؤلؤٌ منثورٌ**» رواه الدارمي ، وعن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «**إذا كانَ يومُ القيامةِ .. كنْتُ إمامَ النبيينَ وخطيبَهمْ ، وصاحبَ شفاعتِهمْ غيرَ فخرٍ**» رواه الترمذي .

إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي تركناها ؛ خوف الإطالة ؛ كحديث الشفاعة المطوَّل المشهور ، وكونه أول من يشفع ، ولذلك كان مشي الأمم إلى نبي بعد نبي في يوم القيامة بطلب الشفاعة خاصاً لغير الأمة المحمدية ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد أعلمهم بذلك ، وعالَم الآخرة لا نسيان فيه **فاعلم** ذلك .

فإن قلتَ : إنه قد صح عن الشيخ محيي الدين ابن عربي قدس الله سره – وهو من أجلَّاءِ أهل الكشف – أنه قال : خواص الملائكة أفضل من خواص البشر ، وهذا خلاف لما قُرر ؟

فالجواب : أنه صحيح صح عنه هذا ، ولكنه قد صحَّ عنه الرجوع عنه والذهاب إلى ما قررناه ، وحينئذ فلا إشكال ، وكذلك قد صرَّح في الباب الثالث والثمانين وثلاث مئة من الفتوحات المكية بأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الملائكة وسائر الرسل وسكت عما عداه ، وقال في موضع آخر من الفتوحات : قد صح عندنا كشفاً ونقلاً أنه لا مقام أعلى من مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن نظمه :

محبةُ أهلِ البيتِ عنديْ فريضةٌ	**على رغْمِ أهلِ البُعدِ تُورثُنيْ قربَى**
فما اختارَ خيرُ الخلقِ منَّا جزاءَهُ	**على هديِّهِ إلا المودةَ في القربَى**

والشاهد في قوله : (خير الخلق) ، وفي الجملة فالذي عليه أسلافنا الجامعون بين الشريعة والطريقة والحقيقة السادة الأشراف بنو علوي وخلاصتهم العيدروسيون نفع الله بهم .. هو تفضيل خواص البشر

على خواص الملائكة ، مع عدم إنكار أنه يوجد في المفضول مزية ومزايا ليست توجد في الفاضل ، وأجمعوا على تفضيله صلى الله عليه وسلم على جميع الخلق .

وما أحسنَ ما نقله العلامة ابن زكريا في "شرح الصلاة المشيشية" عن سيدي الشريف القطب عبدالقادر الجيلاني قدس الله سره بعد كلام له في قصة الإسراء : (ثم عاد إلى معالمه وأهل عالمه ، ورؤساء الملائكة تضع أجنحتها في مواطئ قدمه ، والروح بين يديه يحمل غاشية فخره ، ويطوف به بين الملائكة تعظيماً لقدره ، وآدم يرفع ألوية جلالته ، وإبراهيم ينشر أعلام مهابته ، وموسى يناجي حبيبه من جانب غربيِّ صفحات وجهه ، نظرتْ عيناه محبوبه ؛ يسأله عودة بعد عودة ، عسى نظرة بعد نظرة ، فنادى القدر من جانب الطور : قضينا الأمر ، وعيسى يتألى بالمولى ؛ لينزلَنَّ وليخبرَنَّ أهل الأرض بما شاع في أرجاء السماء ؛ من أخبار قاب قوسين) .

ثم إنه نقل عن ابن حجر الهيتمي عن بعض المحققين أن سجود الملائكة لأجل نور محمد صلى الله عليه وسلم في جبين آدم عليه السلام ، ثم ذكر قول سيدي علي وفا قُدِّس سره :

لوْ أبصرَ الشيطانُ طلعةَ نورِهِ ... في وجهِ آدمَ كانَ أوَّلَ مَنْ سجدْ

ويرحم الله من قال :

يا بني الزهراءِ لا لقيتُمُ ... أبدَ الآبادِ سوءاً مِنْ أحدْ
سرِكُمْ لاحَ بمعنى آدمِ ... فلذا كلٌّ إليهِ قدْ سجدْ

هذا وقد قال بعض أهل الإشارات لما سأل موسى الرؤية ولم تحصل البغية ، وتحقق أن النبي عليه الصلاة والسلام قد رأى أكثر السؤال ، واستعد لرؤية من قد رأى .. قيل :

وأستنشقُ الأرياحَ مِنْ نحوِ أرضِكمْ ... لعليْ أراكمْ أو أرَى مَنْ رآكُمْ

ويرحم الله من قال :

وإنــما الســرُّ فـــي موســـى يـــردّدُه ... ليجـــتليْ حُســـنَ لـــيلى حـــينَ يشـــهدُهُ
يبـــدوْ ســـناها عـــلى وجـــهِ الرســـولِ ... فيـــا لله دَرُّ رســـولِ الله يشهـــدُهُ

(فائدة) قال الإمام البلقيني : (وأما اختيار الباقلّاني والحليمي أفضلية الملائكة .. يمكن حمله على غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا جزم بعض أجلاء تلامذته كالبدر الزركشي ، أو على تفضيل في نوع خاص ؛ أي : لأنه قد يوجد في المفضول مزية بل مزايا لا توجد في الفاضل) ، ثم قال - أي : البلقيني - : (ولا يُظن بأحد من أئمة المسلمين أنه يتوقف في أفضلية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الملائكة وكذلك سائر الأنبياء) ، وأطال في الحط والرد على من توقف في ذلك وزعم أن هذا ليس مما كُلفنا بمعرفته ، ثم قال : (وهذا الزعم باطل ؛ فإن هذا من مسائل الدين الواجبة الاعتقاد على كل مكلف ، والبيان يسوق أدلتها وإيضاحها على كل من تأهل لذلك ، وقد صح في الحديث المشهور : «**ثلاثٌ مَنْ كنَّ فيهِ وجدَ حلاوةَ الإيمانِ : مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهُما...** » فتأمل قوله : «**ممَّا سواهُما**» .. تجده ظاهراً بل صريحاً في كل ما ذكرناه) انتهى .

ويرحم الله القائل حيث قال شعراً :

ومـــا أقـــولُ اذا مـــا جئـــتُ أمـــدحُ ... مَـــنْ جبريـــلُ خادمُـــهُ واللهُ مادحُـــهُ

(لطيفة) قوله في الحديث القدسي : «**مَنْ ذكرَنِي في ملأٍ .. ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهُ**» لا يلزم منه إلا أفضيلة باطنه على ظاهره صلى الله عليه وسلم ؛ لأن باطنه دائماً مع الحق ؛ فتنبه له ، أو يقال : يلزم منه خيرية ملأ الباطن على ملأ الظاهر ، وهو فيه المعنى المتقدم ؛ فافهم راشداً .

فإن قيل : فإذا وقع الذكر من ملأ الباطن .. فكيف يكون الحال ؟

فالجواب : أنه صلى الله عليه وسلم في كل نفس في الترقي ؛ لأن مطلق الترقي له ولغيره من أهل الترقي .. غير منقطع في الدنيا والآخرة ؛ فتكون الخيرية باعتبار الترقي ، ومعنى ذلك ظاهر ، ويحتمل أن

يكون من باب المشاكلة ؛ وهو من ذكرني في نفسه .. ذكرته في نفسي ؛ أي : ذاتي ، ومن ذكرني في ملأ .. ذكرته في ملأ خير منه ؛ وهو حضرة أسمائي وصفاتي .

وبقي هنا سر آخر لا ينبغي التصريح به إلا لأهله ؛ فمحمد أشهر أسمائه وألذها سماعاً وأكثرها إلى الصلاة والتسليم استدعاء ، وقد سماه الله تعالى به قبل أن يخلق الخلق ؛ فهو محمد صاحب لواء الحمد والمقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون ؛ فهو محمده وأحمد الذي حمد ربه بما لا يحمده به غيره ، وأسرار هذا الاسم ومعانيه تحتاج إلى بعض تطويل كثير ، ومن ثَمَّ أفردها غير واحد بالتأليف ، ولعظم ما فيه من المزايا خُصت به كلمة التوحيد دون غيره من أسمائه صلى الله عليه وسلم .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نوره هو الأصل في تكوين جميع الأشياء .. عبر عنه بقوله :

(شجرةُ الأصلِ النورانيةُ)

على طريق الاستعارة التصريحية ، وشاهده حديث عبدالرزاق بسنده عن جابر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ؛ أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ، قال : «**يا جابرُ ؛ إنَّ اللهَ خلقَ قبلَ الأشياءِ نورَ نبيِّكَ محمدٍ مِنْ نورِهِ ؛ فجعلَ ذلكَ النورُ يدورُ بالقدرةِ حيثُ شاءَ اللهُ تعالى ، ولمْ يكنْ في ذلكَ الوقتِ لوحٌ ولا قلمٌ ، ولا جنةٌ ولا نارٌ ، ولا ملَكٌ ولا سماءٌ ولا أرضٌ ، ولا شمسٌ ولا قمرٌ ، ولا جنيٌّ ولا إنسيٌّ ، فلمَّا أرادَ اللهُ خلْقَ الخلقِ .. قسمَ ذلكَ النورَ أربعةَ أجزاءٍ ؛ فخلقَ مِنَ الجزءِ الأوَّلِ القلمَ ، ومِنَ الثانيْ اللوحَ ، ومنَ الثالثِ العرشَ .**

ثمَّ قسمَ الرابعَ أربعةَ أجزاءَ ؛ فخلقَ منَ الأولِ حملةَ العرشِ ، ومنَ الثانيْ الكرسيَ ، ومنَ الثالثِ باقيَ الملائكةِ .

ثمَّ قسمَ القسمَ الرابعَ أربعةَ أجزاءَ ؛ فخلقَ منَ الأوَّلِ السماواتِ ، ومنَ الثانيْ الأرضينَ ، ومنَ الثالثِ الجنةَ والنارَ .

ثمَّ قسمَ الرابعَ أربعةَ أجزاءٍ ؛ فخلقَ منَ الأوَّلِ نورَ أبصارِ المؤمنينَ ، ومنَ الثانيْ نورَ قلوبِهِمْ ؛ وهيَ المعرفةُ باللهِ تعالى ، ومِنَ الثالثِ نورَ ألسنتِهِمْ ؛ وهوَ التوحيدُ لا إلهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ ... » الحديثَ .

وعلىٰ هذه القسمة لا توجب قسمة الماهية المحمدية ؛ كما لا يوجب الاقتباس من الأنوار قسمتها ولا النقص منها ، وبهذا يندفع الإشكال الآتي قريباً في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «**يا عمرُ يا بنَ الخطابِ ؛ أتدريْ مَن أنا ؟ أنا الذيْ خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ أولَ كلِّ شيءٍ نُورِيْ ؛ فسجدَ للهِ فبقيَ في سجودِهِ سبعَ مئةِ عامٍ ؛ فأوَّلُ كلِّ شيءٍ سجدَ للهِ نورِيْ ولا فخرَ .**

يا عمرُ ؛ أتدريْ مَنْ أنا ؟ أنا الذيْ خلق اللهُ العرشَ من نورِيْ ، والكرسِيَّ منْ نوريْ ، واللوحَ والقلمَ منْ نوريْ ، والشمسَ والقمرَ ونورَ الأبصارِ منْ نوريْ ، والعقلَ منْ نورِيْ ، ونورَ المعرفةِ في قلوبِ المؤمنينَ منْ نورِيْ ولا فخرَ » .

فإن قيل : ما معنىٰ من نور الله ؟ إن أريد نور حادث كان قبله .. نافىٰ أنه أول المخلوقات ، وأن الأنوار من نوره ، غير هذا لا يعقل .

فالجواب : ما قاله بعضهم رحمه الله : (أن الإيجاد إظهار له في المعنىٰ والله أعلم ؛ أظهره من ظهوره ؛ أي : أظهره بلا واسطة بخلاف غيره ؛ إذ معنى اسمه النور : الظاهر لنفسه المظهر للأشياء ، وفيما تقدم من الحديثين بيان السبقية والتقدم ؛ فإن ذلك يفيد الاعتناء بشأن المقدَّم ، وبيان أنه أول ما صدر منه السجود لله تعالىٰ ، ومن ثَمَّ خرَج من بطن أمه ساجداً قد رفع سبابتيه إلى السماء ؛ كالمتضرع المبتهل المسبِّح ، قابضاً بقية أصابعه) .

وكلُّ ما ورد أنه أول مخلوق مما يشعر بخلاف ما ذكر .. فيحمل عليه بالوصف اللائق بتلك الحضرة ؛ بأن يقال في قوله صلى الله عليه وسلم : «**أَوَّلُ ما خلقَ اللهُ القلمَ**» ، و«**أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلَ**» ، وما نُقل عن السلف : («**أولُ ما خلقَ اللهُ ملَكاً**» إنه باعتبار صدفة الوجود ، ويستمر جوهرة ودرة ، وباعتبار نورانيته يستمر نوراً ، وباعتبار وقار علمه يسمى عقلاً ، وباعتبار جريان الأمور وفق متابعته والاقتداء به يستمر قلماً ، وباعتبار مظهريته للعلوم يُسمى لوحاً ، وباعتبار غلبة الصفة الملَكية يستمر ملَكاً ؛ فيُحمل عليه بالوصف اللائق بتلك الحضرة ، ويقال : الأولية في غير نوره صلى الله عليه وسلم إضافية ، وفيه حقيقية ؛ كما نبه على ذلك الأستاذ الشريف الشيخ شيخ بن عبدالله العيدروس في كتاب "السلسلة العيدروسية" وغيره من العارفين نفع الله تعالى بهم .

(**تنبيه**) قوله في الحديث : «**فخلقَ منَ الأوَّلِ السماواتِ ، ومنَ الثاني الأرضينَ**» أي : وهي سابقة على خلق السماوات ؛ كما فُصِّلت في سورة (فصلت) ، وأما قوله تعالى : ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ .. فمعناه : بسطها ؛ كما قاله ابن عباس وغيره ، وكانت مخلوقة من غير دحو ؛ فهذه ينبغي التنبيه عليها .

وقع لسيدي محمد الزرقاني نفع الله به في شرح المواهب اللدنية أنه قال تحت قول الأصل في حقه صلى الله عليه وسلم : (والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس) ما معناه : (أي : من حيث إن الجميع خُلقوا من نوره صلى الله عليه وسلم على ما يأتي في حديث) ، ثم إنه قال عند ذكر حديث عبدالرزاق : (ولا يشكل بأن النور عرَض لا يقوم بذاته ؛ لأن هذا من خرق العوائد) ، ثم إنه قرر في قوله : (من نوره) بأنه من باب الإضافة التشريفية ، والإشعار بأنه خلق عجيب ، وأن له شأناً له مناسبة ما إلى الحضرة الربوبية على حد قوله تعالى : ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ .

ثم قال : (وهي بيانية ؛ أي : من نور هو ذاته ، لا بمعنى أنها مادة خلق نوره منها ، بل بمعنى تعلق الإرادة به بلا واسطة شيء في وجوده) وهذا الذي قاله كله مناسب ، غير أنه قرر خلاف ما تقدم في بعضه ؛

تبعاً لشيخه العلامة الشبراملسي نفع الله به في الحاشية ؛ وذلك عند قوله صلى الله عليه وسلم : «**فلمّا أرادَ اللهُ أنْ يخلقَ الخلقَ .. قسمَ ذلكَ النورَ أربعةَ أجزاءٍ**» ؛ فإنه قال هنا : (أي : زاد فيه ؛ لأنه قسم ذلك النور الذي هو نور المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ؛ إذ الظاهر أنه حيث صوره بصورة مماثلة لصورته التي سيصير عليها ، لا قسمه إليه ولا إلىٰ غيره) انتهىٰ .

وقد تقدم ما يندفع به هذه الإشكال ، ونزيده وضوحاً بما ذكره العلامة سيدي أبو سالم عبدالله العياشي رحمه الله تعالىٰ في رحلته علىٰ سبيل التلخيص فنقول : قال نفع الله به : (قرر شيخنا أبو الحسن الشبراملسي تقريرات عجيبة في حديث : «**أولُ ما خلقَ اللهُ نورَ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ** ... » الحديثَ ، وقرر وجه انقسام ذلك النور وكيفيته ، مع أن الحقيقة الواحدة لا تنقسم ، وليست الحقيقة المحمدية إلا واحدة من تلك الأقسام ، والباقي إن كان منها أيضاً .. فقد انقسمت ، وإن كان غيرها .. فما معنى الانقسام ؟

وحاصل جوابه : أن معنى الانقسام زيادة نور علىٰ ذلك النور المحمدي ؛ فيؤخذ ذلك الزائد ثم يزاد عليه نور آخر ، ثم كذلك إلىٰ آخر الانقسام - قال العياشي - : وهذا جواب مقنِع بحسب الظاهر ، والتحقيق والله أعلم وراء ذلك ، وإنما يدركه على الحقيقة من عرف معنىٰ قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، وتحقيق ذلك علىٰ ما ينبغي ليس يدرك ببضاعة المعقول ، ولا مما تتسلط عليه الأوهام والأفهام ، وإنما يُدرَك بكشف إلهي وإشراق خصَّه من اسمه ذلك النور في قلب العبد ؛ فيدرك نور الله بنوره ؛ فيكون الحق في الحقيقة هو المدرِك لنوره بنوره ، ونسبة الإدراك حينئذ إلى العبد مجاز .

وأقرب تقرير يعطي القرب من فهم معنى الحديث أنه يقال : لَمَّا كان النور المحمدي هو أول الأنوار الحادثة التي تجلىٰ بها النور القديم الأزلي ، وهو أول التعينات للوجود المطلق الحقاني ، وهو مدد لكل نور كائن أو يكون ، فكما أشرق النور الأول في حقيقته فتنورت ؛ بحيث صار هو نور إشراق نوره المحمدي علىٰ

حقائق الموجودات شيئاً فشيئاً ؛ فهي تستمد منه على قدر تنورها بحسب كثرة الوسائط وقلتها وعدمها ، وكلما أشرق نوره وتأخر على نوع من أنواع الحقائق .. ظهر النور في مظهر الاقسام ؛ فقد كان النور الحادث أولَ الأشياء واحداً ، ثم أشرق في حقيقته أخرىٰ فاستنارت بنوره تنوراً كاملاً ؛ بحسب ما تقتضيه حقيقتها ، فحصل في الوجود الحادث نوران ؛ مفيض ومفاض .

وفي نفس الأمر ليس هناك إلا نور واحد أشرق في قابل الاستنارات ؛ فتنور بتعددات المظاهر ، والظاهر واحد ، ثم كذلك كلما أشرق في محل .. ظهر بصورة الانقسام ، وقد شرق نور المفاض عليه أيضاً بحسب قوته على قوابل أخر ؛ فتتنور بنوره ، فيحصل انقسام آخر بحسب المظاهر ، وكلها راجعة للنور الأول الحادث إما بواسطة أو بدونها .

قال : وهذا غاية ما يعطي أن تصل إليه العبارة في هذا التقدير ، ومثله في قصر باعه وعدم تضلعه من العلوم الإلهية إن زاد في التقرير .. خشي على إيمانه ، ولولا تأييد الحق جل وعلا .. ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله على أقل من هذا ، والحمد لله ، وأقرب مثال يضرب لذلك - إذ بالأمثلة تتضح الأشياء بعض الوضوح - نور المصباح الذي ليس في البيت الكبير إلا هو ؛ فتُصبِح منه مصابيح كثيرة ، وهو في نفسه باق على ما هو عليه ، لم ينقص منه شيء .

وأقرب من هذا المثال إلى التحقيق وأبعد عن الإفهام .. نور الشمس في الأهلة والكواكب ، على القول بأن الكل مستنير بنوره وليس لها نور من ذاتها ؛ فقد يقال بحسب النظر الأول : إن نور الشمس منقسم في هذه الأجرام العلوية ، وفي الحقيقة ليس بهذا النور إلا نورها ، وهو قائم بها ، لم ينقُص منه شيء ولم يزايلها منه شيء ، ولكنها أشرقت في أجرام أُخر قابلة للاستنارة فاستنارت .

وأقرب من هذا للفهم ما يحصل في الأجرام السفلية من إشراق أشعة نور الشمس على الماء أو على قوارير الزجاج ؛ فيستنير ما يقابلها من الجدران ؛ بحيث يُلمح فيها نور كنور الشمس ، أشرق بإشراقه ولم ينفصل شيء من نور الشمس عن محله إلى ذلك المحل .

ومن كشف الله حجاب الغفلة عن قلبه ، وأشرقت الأنوار المحمدية على قلبه بصدق اتباعه له .. أدرك الأمر إدراكاً آخر لا يحتمل شكاً ولا وهماً ، نسأل الله تعالى أن ينوِّر بنور العلم الإلهي بصائرنا ، ويحجب عن ظلمات الجهل سرائرنا ، ويغفر لنا ما اجترأنا عليه من الخوض فيما لسنا له بأهل ، ونسأله أن لا يؤاخذنا بما تقتضيه العبارة من تقصير في حق ذلك الجناب) انتهى ملخصاً .

قلت : وقد صرح بعض المحققين بأن ذلك النور ليس بعرَض بل هو جوهر ؛ فليتأمل الجمع بين القولين أو اعتماد أحدهما .

(ولمعةِ القبضةِ الرحمانيةِ)

المشار إليها في حديث القبضتين إشارة خاصة ، المشار إليها إشارة عامة في حديث : الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة ، وهي المشار إليها في حديث جابر المتقدم ، وإليها يشير قول سيدي القطب الإلهي محمد البكري الصديقي سبط آل الحسن نفع الله به :

قبضـــــةُ النـــــورِ مـــــنْ قـــــديمِ أرتْنـــــا   في جميـــــعِ الشـــــئونِ قبضـــــاً وبســـــطا

قال بعضهم نفع الله به : **واعلم** أن الرحمة رحمتان : رحمة خاصة ؛ وهي التي تدارك الله بها عباده في أوقات مخصوصة ، ورحمة عامة ؛ وهي حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبها رحم الله حقائق الأشياء كلها

؛ فظهر كل شيء في مرتبته في الوجود ؛ فلذلك أول ما خلق الله روح محمد صلى الله عليه وسلم ، وبها رحم الله حقائق الأشياء كلها ؛ فظهر كل شيء في مرتبته في الوجود ؛ فرحم الله به الموجودات الكونية . انتهى .

ولما كان سبب إيجاد العوالم هو الرحمانية ؛ التي هي عبارة عن ظهور آثار الأسماء والصفات ، وكان اقتضاء الرحمانية الإيجاد ؛ وهو كاقتضاء الإرادة التخصيص ، ووصف تلك القبضة المذكورة بالرحمانية دون الرحيمية ؛ لأن الرحمة هي مفاد الرحيم خاصة بالمؤمنين ؛ كما يشير قوله تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ؛ فهو إشارة إلى رحمة خاصة يتفردون بها ، وأما مطلق الرحمة المنتفع بها في الدنيا .. فهي عامة للمؤمنين وغيرهم ، ومن رحمة الكافرين عدم تعجيل العقوبة عليهم .

وبالجملة فنعمتان ما خلا موجود عنهما ، ولابد لكل مكون منهما : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ؛ كما في الحكم العطائية ، وهو صلى الله عليه وسلم الواسطة فيهما ؛ إذ لولا سبقية وجوده .. ما وُجد موجود ، ولولا وجود نوره في ضمائر الكون إلى أن برز .. لتهدمت دعائم الوجود ؛ فهو الذي وُجد أولاً وله تبع الوجود ، وصار مرتبطاً به لا استغناء له عنه ، ولله در القطب البكري أبيض الوجه محمد حيث قال :

مـــا أرســـلَ الرحمـــــنُ أو يُرســـلُ	**مـــنْ رحمـــةٍ تصعـَــدُ أو تنـــزلُ**
في ملكـــوتِ اللـــهِ أوْ ملكِـــهِ	**مـــنْ كـــلِّ مـــا يخـــتصُّ أوْ يشمـــلُ**
إلا وطـــهَ المصطفـــى عبـــدُهُ	**نبيـــهُ مختـــارُهُ المرســـلُ**
واسطـــةٌ فيهـــا وأصـــلٌ لهـــا	**يعلـــمُ هـــذا كـــلُّ مَـــنْ يعقـــلُ**

هذا وقد قيل في الحديث الذي رواه الطيالسي وأحمد والترمذي ، وحسَّنه ابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في "العظمة" وابن مردويه والبيهقي في "الأسماء والصفات" ، عن أبي رزين رضي الله عنه ؛ وهو قوله : (قلتُ : يا رسول الله ؛ أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : «**كانَ في عماءٍ ، ما فوقَهُ هواءٌ وما تحتَهُ هواءٌ ، وكانَ عرشُهُ على الماءِ**» : إن المراد بالعماء : الذي هو صورة النفس الرحمانية ، والماء : هو نور النبي صلى الله عليه وسلم .

ووجهُ دلالته على ما ذُكر على الوجه المذكور الذي هو بعض أوجهٍ حُمل عليها معنى الحديث المذكور .. أن (أين) سؤال عن المكان ، ومن المعلوم المعروف أن المكان غير الكائن فيه ، مفادة غير اعتبارية بل حقيقية ، وقد كان الله ولم يكن شيء غيره ؛ فكل ما سوى الله .. فهو مخلوق حادث ، ومن لوازم ذلك أن يكون الحق سبحانه وتعالى غير متحيز ، ومع ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على الصحابي سؤاله بـ(أين) ، بل أقره عليه وأجاب بما أجاب ؛ فدل ذلك بأن الحق وإن لم يكن متحيزاً .. يصح أن تُنسب اليه كينونة في مكان على وجه يليق بجلاله و ذاته .

وهو دليل على أن (أين) في لغة العرب ليس مختصاً بالسؤال عن حصول الجسم في المكان ، بل السؤال عن حصول الموجود في الحيز على الوجه اللائق بذلك المسئول عنه ؛ فيعم ما ليس بجسم ولا جوهر ، ولا يلزم من حدوث المكان المستلزم لحدوثه تلك النسبة قيام الحوادث بذات الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن ذلك الحصول في الحيز صفة اعتبارية لا وجودية ، وتجدد الاعتبارات متفق على صحته بين العقلاء ؛ كما صرح به في "المواقف" .

وحينئذ فنقول : إذا كان العالم حادثاً بجميع أجزائه ، وقلنا : إن (أين) سؤال عن المكان على الوجه المعروف من كونه مغايراً لصاحبه مغايرة حقيقية ، والحق مع كونه غير متحيز يصح أن ينسب إليه الـ(أين) على الوجه اللائق بجلال ذاته .. ظهر لك أن المراد بالخلق في قول الصحابي : (قبل أن يخلق خلقه) ما سوى المكان الذي سأل عنه بـ(أين) ، مع اعتقاد أن ذلك المكان أيضاً مخلوق حادث ، وإذ قد أجيب عن سؤاله بالعماء ؛ فالعماء أول مخلوق ؛ وهو نور النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الماء أيضاً ، عبَّر عنه بأسماء مختلفة ؛ للإشارة إلى جمعيته واشتماله على عبارة .

ولا استبعاد في تسمية النور ماء ؛ فإن الله قد سمى القرآن نوراً ؛ حيث قال : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ ، ثم سماه الله ماء في قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ على ما في "الدر المنثور" من

قوله : أخرج أبو الشيخ عن ابن عيينة في الآية قال : (أنزل من السماء قرآناً ، فاحتملته عقول الرجال) . انتهى .

وهو صلى الله عليه وسلم في أول مراتب خلقه وإن لم يكن ماء عنصرياً ، ولكنه ماء نوري كالقرآن ، ومتضمن للماء العنصري وغيره من الكائنات التي ستُفاض منه بتقدير العزيز العليم ، ووجه المناسبة أن النور لكونه يُهتدى به سبب الحياة المعنوية ، ولهذا سُمي القرآن روحاً في قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ والماء سبب الحياة ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ، وفي معناه آيات كثيرة .

وأيضاً فإن الله قد سماه صلى الله عليه وسلم رحمة في قوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ويسمى الغيث رحمة في قوله تعالى : ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ، فظهر وجه تسمية النور ماء ورحمة ، ثم إن قوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ، وقوله تعالى عن الملائكة : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ .. يدل على أن هذه الرحمة هي الوجود الممكن العام المفاض على القوابل المتعينة لقبوله ؛ فإنها بعد هذا هي التي وسعت كافة كل شيء كالعلم كما لا يخفى .

والقوابل المتعينة هي المعبر عنها بالعالمين في قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ، النبي صلى الله عليه وسلم عدد خلقه ومداد كلماته .. هو الرحمة الواسعة لكل شيء ، فحديث جابر تفصيل إجمال هذه الآية ، وليكن هذا التقرير على بال منك ؛ فإنه ينفعك بإذن الله تعالى في فهم قول الأشعري : (وجود كل شيء عين حقيقته) .

وأما وجه تسميته عماء .. فهو أن العماء على ما في القاموس : السحاب المرتفع أو المطر الرقيق أو الأبيض والكل مناسب ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم من حيث إن تقسيمها من نوره كان مرتفعاً عليها ومحيطاً

بها ، ومن حيث إنه سبب الحياة المعنوية بل والحسية للأولين والآخرين مع بطونه في زمن الأولين وأكثر زمن المتأخرين .. يناسب السحاب الممطر الرقيق ، ومن حيث إنه منكشف للناظر إليه يناسب السحاب الأبيض ، ثم إنه واسطة بين الحق والخلق في الفيض الحسي والمعنوي ؛ كما أن العماء والغيم برزخ بين السماء والأرض .

وإنما قال : ما فوقه هواء وما تحته هواء ؛ لأن العماء عند العرب لما كان هو السحاب المذكور ، ومن المعلوم أن فوقه هواء وتحته هواء .. أزال ما يسبق إلىٰ فهم العرب من ذلك ، فنفىٰ عنه الهواء حتىٰ يعلم أنه لا يشبهه من كل وجه . انتهىٰ من كلام شيخ شيخي ؛ وهو الأستاذ المحقق الشيخ إبراهيم الكوراني خليفة القطب الصفي القشاشي وأجل تلامذته نفع الله بهما .

هذا ومن أسرار تلك الرحمة العامة قول سيدي محيي الدين في "الفتوحات المكية" : (إن من جملة تولية الحق الخلق من حيث عموم الرحمة .. ما أوجده من الرحمة فيهم التي يتعطفون بها بعضهم علىٰ بعض ؛ في الوالدين بأولادهم في تربيتهم ، وبالأولاد علىٰ والديهم ؛ بالبر بهم والاعتماد عليهم ، وبما حصل من شفقة المالكين علىٰ مماليكهم وعلىٰ ما يملكونه من الحيوانات ، وتولي الحيوانات بما جعل فيها من عطف الأمهات علىٰ أولادها في كل حيوان يحتاج الولد إلىٰ تدبير أمه وتولاهم بالأغراض ؛ ليهون عليهم المشقات .

وسمىٰ هذا تسخيراً ؛ فيخرج الشخص لفعل غرضه فيما يزعم ، وهو من حيث التوالي الإلهي ما خرج إلا في حق الغير ، وهو يتوهم أنه في حق نفسه ؛ كالتجار وأمثالهم ، فألقىٰ في نفس التاجر المسافر طلب الربح في تجارته ، فقام نشِط النفس واشترىٰ من البضاعات ما يحتاج إليه ذلك البلد الذي يقصده ؛ فيجوب الأمصار ويركب البحار ، ويتعدى الأماكن من أجل حاجة أهل البلد الذي يقصده بما جعل الله في قلبه من ذلك ؛ فإذا وصل إلىٰ ذلك البلد .. باع بربح أو خسارة ، ونال أصحاب تلك المدينة أغراضهم ، ووصلوا إلىٰ حوائجهم ، وهذا المسخَّر يتخيل في نفسه أنه ليس بمسخر وإنما مشىٰ ليكتسب ؛ فلو خرج بنية التسخير

وجعل الكسب تبعاً .. كان مستريح الخاطر إن كسب أو لم يكتسب ، وما جاءت الشرائع إلا لأجل التعريف بما هي الدار الآخرة عليه ، ولو كانت مقصورة على مصالح الدنيا .. لوقع الاكتفاء بالنواميس الحكمية المبدعة التي ألهم الله من ألهم من عباده لها ؛ لوجود المصالح) انتهى ملخصاً .

وقال في موضع آخر :(ومن ذلك تولية الخلْق بعضهم بعضاً بما في نفوسهم ؛ من إعطاء القوة المعلومة في الكون ؛ فهم مسخَّرون بعضهم لبعض ؛ الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، وهذا لا ينكره عاقل ؛ فإنه الواقع ؛ فإن من أعلى مراتب المَلِكْ المُلْك ، وهو مسخَّر في مصالح الرعايا والسوَقة ، والرعايا والسوَقة مسخرون للملك ، وتسخير الملك للرعايا ليس من أمر الرعايا ، ولكن بما تقتضيه المصلحة لنفسه ، وينتفع الرعايا بحكم التبع لا لأنهم المقصودون بذلك الانتفاع الذي يعود عليهم من التسخير .

وتسخير الرعايا على وجهين : الوجه الواحد يشاركون فيه الملك من أنه لا يبعثهم على التسخير إلا طلب المنفعة العائدة عليهم من ذلك ؛ كما يفعله الملك سواء ، والتسخير الثاني : ما هم عليه من قبول أمر الملك في العسر واليسر والمنشط والمكروه ، وبهذا ينفصلون عن تسخير الملوك ؛ فهم أذلاء أبداً لا يرتفع لهم رأس أبداً مع حاجة الملوك اليهم ...) إلى آخر ما قاله نفع الله به .

(وأفضلِ الخليقةِ الإنسانيةِ)

أي : أعدلها وأحكمها ، وأتقنها وأحسنها ، وأشرفها وأكملها ، ومن شواهد ذلك ما ذكروه في حليته الشريفة مما هو معروف ومشهور ومذكور في مظانه ، ومن ذلك قول الشيخ محيي الدين قُدِّس سره في "الفتوحات المكية" في الباب الثامن والأربعين ومئة ، وهذا الباب ذكر فيه فراسة أهل الكشف وفراسة الحكماء ، وأن الأولى لا تخطي أبداً بخلاف الثانية ؛ فإنها قد تخطي ؛ وذلك قوله : (قالت الحكماء : إن أعدل

الخَلْقية وأحكمها أن تكون نشأة صاحبها معتدلة ليس بالطويل ولا بالقصير ، لين اللحم ورطبه ، بين الغلظ والرقة ، أبيض مشرباً بحمرة وصفرة ، معتدل الشعر طويله ، ليس بالسبط ولا بالجعد القطط ، في شعره حمرة ، ليس بذلك السواد ، أسيل الوجه أعين ، مائلة عينه إلى الفتور والسواد ، معتدل عظم الرأس ، سائل الأكتاف ، في عنقه استواء ، معتدل اللبة ، ليس في وركه ولا صلبه لحم ، خفي الصوت ، صاف ما غلظ منه وما رقَّ ؛ مما يستحب غلظه أو رقته في اعتدال ، طويل البنان ترفه ، بسِط الكف ، قليل الكلام والضحك إلا عند الحاجة ، ميل طباعه إلى الصفراء والسوداء ، في نظره فرح وسرور ، قليل الطمع في المال ، لا يريد التحكم والرياسة علىٰ أحد ، ليس بعجل ولا بطيء) .

قال : (وفي هذه الصورة خُلق نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فصحَّ له الكمال في النشأة ؛ كما صح له الكمال في الرتبة ، وكان أكملَ الناس من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً) ، إلىٰ أن قال : (أما كون الإنسان أعين .. فصحة النظر في الأمور ، وأما كون عينه مائلة إلى الفتور والسواد .. فهو النظر في المغيبات ، واستخراج الأمور الخفية ، وأما اعتدال عظم الرأس .. فتوفير العقل ، وأما كونه سائل الأكتاف .. فاحتمال الأذىٰ في الغيبة من غير أثر .

وأما استواء العنق .. فالاستشراف على الأشياء من غير ميل إليها ، بخلاف الطول الزائد في العنق ؛ فإنه يدل على الاستشراف علىٰ ما لا ينبغي مثل التجسس ، وأما اعتدال اللبة .. فاستقامة العبارة بالوزن الذي به تقع المنفعة عند المخاطب ، وأما قلة اللحم في الورك والصلب وهو نظره في الأمور التي يتورك عليها ويعول عليها أن تخلصه لأحد الطرفين ؛ فإنها إن كانت برزخية .. فقد تعذر به في غالب الأمور ، وأما اعتدال اللحم في الرطوبة بين الغلظ والرقة .. فهو اعتدال الإنسان في البرزخيات بين المعنىٰ والحس ؛ كاللحم بين العظم والجلد .

وأما اعتدال الشعر .. فهو إقامته بين القبض والبسط ، وأما كونه أسيل الوجه .. فهي الطلاقة والبشاشة ، وأما كونه خفي الصوت .. فهو حفظ السر في موضع الجهر ، وأما صفاء الصوت .. فهو أن لا يزيد فيه شيئاً ، وأما طول البنان .. فلطلاقة التناول ، وأما بسط الكف من الدنيا من غير تعلق ، وأما قلة الكلام والضحك .. فنظره في مواقع الحكمة ؛ فيتكلم ويضحك بحسب الحاجة .

وأما كونه ميل طباعه إلى المرتين .. فهو أن يغلب عليه في الصفراء الجنوح إلى العالَم العلوي ، وفي السوداء الجنوح إلى العالَم السفلي ؛ لاستخراج ما خفي فيه من قرة أعين مما تحجب الطبيعة أكثر العقول في النظر فيه ؛ لما سبق في أفهامهم من ذمِّه ، وأما كونه في نظره فرَح وسرور .. فهو استجلاب نفوس الغير إليه بالمحبة ، وأما كونه قليل الطمع في المال .. فهو البعد عن كل ما لا يميله إلى ما لا فائدةَ له فيه ، وأما كونه ليس يريد التحكم عليك ولا الرياسة .. فهو شغله بكمال عبوديته لا بك .

وأما كونه ليس بعجِل ولا بطيء – أي : ليس سريعَ الأخذ مع القدرة – ولا عاجزاً ... إلى أن قال ما ملخصه : لا حسن تقع به المنزلة عند الله ، ولا قبح يقع باجتنابه الخير من الله إلا ما حسَّنه الشرع وقبحه ، والإنسان لا يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة بالنظر إلى الشارع ؛ فهو إما يكون باطنياً محضاً ؛ وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالاً وفعلاً ، وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرع كالباطنية ، والعدول عن ما أراد الشارع بها ، وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة دينية مشروعة .. فهو مذموم بالإطلاق عند كل مؤمن .

وأما أن يكون ظاهرياً محضاً متغلغلاً متقوِّلاً ؛ بحيث أن يؤديه ذلك إلى التجسيم والتشبيه ؛ فهذا أيضاً مثل ذلك ملحق بالذم شرعاً ، وإما أن يكون جارياً من الشرع على فهم اللسان ؛ حيثما مشى الشارع .. مضى ، وحيثما وقف .. وقف قدَماً بقدم ، وهذه حالة الوسط ، وبه صحة محبة الحق له ؛ قال الحق تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، فاتباع الشارع صلى الله عليه وسلم واقتفاء آثاره .. يوجب محبة الله تعالى للعباد ، وصحة السعادة الدائمة) انتهى .

(وأشرفِ الصورةِ الجسمانيةِ)

أي : أحسنها ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أعطي الحسنَ كلَّه ، وأما سيدنا يوسف عليه السلام .. أعطي شطر الحسن ، ومن ثَمَّ قال سيدنا علي كرم الله وجهه : (لم أرَ قبله ولا بعده مثله) ، وإنما سُتر حسنه بالهيبة والوقار ؛ لتستطيع رؤيته الأبصار ، ومع ذلك فقد قال سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه : (لما نظرت إلى أنواره صلى الله عليه وسلم .. وضعت كفي على عيني ؛ خوفاً من ذهاب بصري ، ومن ثم للطافته ونورانيته صلى الله عليه وسلم لم يكن له ظل ، ويرحم الله من قال شعراً :

دخـلَ العـالمَ في ظـلِّ الـذي مـا لـهُ ظـلٌّ وللأغيـارِ يمحـو

هذا ولولا أن الله تعالى ستر جمال صورته بالهيبة والوقار ، وأعمى عنه آخرين .. لما استطاع أحد النظر إليه بهذه الأبصار الدنيوية الضعيفة ، ومن ثَمَّ قال بعضهم نفع الله به : (ما أدرك الناس منه صلى الله عليه وسلم إلا على قدر عقولهم البشرية ، فما ظهر لهم من ذلك .. فهو نعمة عليهم ؛ ليعرفوا قدره ويعظِّموا أمره ، وما خفي عليهم من أموره .. فهو رحمة من الله تعالى بهم ؛ إذ لو ظهر لهم مع عدم قيامهم بالحقوق .. لكان فتنة لهم ، والله تعالى أرسله رحمة للعالمين ؛ فكانت النعمة فيما ظهر ، والرحمة فيما ستر) .انتهى .

وما أحسن ما قيل فيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ويروى أنه من كلام الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها وعن أبويها ونفع بهم :

وأجمـلَ منـك لم تـرَ قـطَّ عيـنيْ وأكمـلَ منـكَ لمْ تلـدِ النسـاءُ
خلقْـتَ مـبرأً مـنْ كـلِّ عيـبٍ كأنـكَ قـدْ خُلقـتَ كـما تشـاءُ

وهذا من قبيل صورته الظاهرة ، وأما حقيقتها .. فلا يعلمها إلا اللـه تعالى ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه : «**والذيْ بعثَنيْ بالحقِّ نبياً ؛ لم يعلمْنيْ حقيقةً غيرُ ربيْ**» ، ومن ثَم قال

سيد التابعين أويس القرني رضي الله عنه : (ما رأىٰ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من النبي صلى الله عليه وسلم إلا ظلَّه) فقيل : (ولا ابنُ ابي قحافةَ ؟!) قال : (ولا ابنُ أبي قحافةَ !!!) .

(ومعدنِ الأسرارِ الربانيةِ)

لأنه مرآة لتجلي أسرار الذات العلية ، وأنوار الصفات السنية ، قد أودع الله خزانة أسراره أسراراً لا تبدو إلا لديه ، ولا تتجلىٰ عرائسها إلا عليه ، قال صلى الله عليه وسلم : «**أورثَنيْ ربيْ علوماً شتَّى ؛ فعلمٌ أخذَ عليَّ كتمانَهُ ، وعلمٌ خيرَني فيهِ ، وعلمٌ أمرَني بتبليغِهِ إلى الخاصِ والعامِ**» ، وقال صلى الله عليه وسلم – والذي من علومه علم اللوح والقلم – : «**إنَّ اللهَ خلقَ ألفَ ألفِ أمةٍ ، لم يطَّلعْ عليها اللوحُ المحفوظُ ولا صريفُ القلمِ ، وكلُّ أمةٍ منْ هذهِ الأمةِ لمْ تعلمَ أنَّ اللهَ خلقَ سواها**» ، وقال صلى الله عليه وسلم : «**أنا مدينةُ العلمِ وعليٌ بابُها ؛ فمَنْ أرادَ العلمَ .. فليأتِ البابَ**» .

وقال الحافظ السيوطي نفع الله به في الخصائص : (إنه صلى الله عليه وسلم أوتي علم كل شيء ، إلا الخمس التي في آخر سورة لقمان ، وقيل : إنه أوتي علمها أيضاً في آخر الأمر ، لكنه أُمر فيها بالكتمان لها ، وهذا القول هو الصحيح ، ومع هذا فقد قال صلى الله عليه وسلم : «**أحمدُ ربيْ بمحامدَ يومَ القيامةِ لا أعلمُها الآنَ**» .

هذا وقد أمره الله تعالىٰ بأن يقول : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ؛ فبان بذلك أنه لم يزل في كل نفَس مترقياً في الكمالات والعلوم التي لا تتناهىٰ ؛ لطيفة العلوم التي في اللوح المحفوظ هي إلىٰ أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ويبقىٰ ما وراء ذلك ، ولو سئل اللوح المحفوظ عن ما خط فيه من العلم .. لم يعرفه ؛ هكذا نبه علىٰ ذلك بعض العارفين نفع الله بهم .

(وخزائنِ العلومِ الاصطفائيةِ)

وذلك أنه لما كانت الروح المحمدية مشتملة على الخلافة بالتبعية .. كان لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء من حيث مرتبته ، وإن كان يقول : «**أنتمْ أعلمُ بأمورِ دنياكم**» من حيث بشريته ؛ فهو ملكوتي الباطن بشري الظاهر ، وهذه الرتبة لها الإحياء والإماتة ، واللطف والقهر ، والرضا والسخط ، وجميع الصفات {لتتصرف}اكمال النقص ص ٤٣٥ مكتوبة تحت } في العالم في نفسها وبشريتها أيضاً ؛ لأنها منه .

وبكاؤه صلى الله عليه وسلم وضجره وضيق صدره .. لا ينافي ما ذكرته ؛ فإنه بعض مقتضيات ذاته وصفاته ، هذا ومما يحسن كتابته هنا بمناسبة لما في الأصل قوله صلى الله عليه وسلم : «**وضعَ يدَهُ ربيْ بينَ ثدييَ** – من غير تكييف ولا تحديد – **فوجدْتُ بردَها بينَ كتفيَّ ؛ فأورثنيْ علمَ الأوَّلينَ والآخرينَ**» ، وقول بعض ذريته وورثته ؛ وهو سيدي عبدالقادر الجيلاني : (إن النبي صلى الله عليه وسلم فتح فاه ليلة الإسراء ، فقطرت فيه قطرة من بحر العلم الأزلي ؛ فعلم بها ما هو كائن أو كان) .

وقد ذكر سيدي الشريف عبد القادر العيدروس نفع الله به في بعض كتبه ؛ كما نقله عنه ابن أخيه في كتاب السلسلة العيدروسية أنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ روحه في ليلة الاسراء والمعراج في صورة ملَك ؛ فعرفه حق المعرفة ، وذكر في ذلك حديثاً أورده في كتاب السلسة العيدروسية ، ولم نذكره هنا خوف الإطالة ، قال : (وروحه صلى الله عليه وسلم هي المذكورة في القران في قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ، وفي تفسير البيضاوي ما يؤيد ذلك ، وذكر السيوطي في المنتهىٰ أن الروح المذكورة في الآية قدر أهل المحشر وحده ، وأن في أرض المحشر بعض ملائكة خطوة أحدهم أربعة آلاف سنة .

وقول بعض ذريته وورثته ؛ وهو سيدي أحمد الرفاعي قدس الله سره ؛ كما نقله عنه صاحب كتاب المغنم وعمدته عليه : (إن لله أسماء بعدد جميع ما خلق من الأمم كلها ونبات الأرض وأشجارها وأوراقها وأثمارها وأزهارها ، قال : والأمم ثمان مئة ألف أمة ، تأكل وتشرب وتروث وتنكح ، ولا يكون الرجل رجلاً حتىٰ يعرفهم ، ويعرف كلامهم وصفاتهم وأسماءهم ، وأرزاقهم وآجالهم) قال : (ولله في السماء بحر رمل ، يجري كجريان الرياح القاصفة ، له منذ خلق الله السماوات والأرض إلىٰ يوم القيامة ، لا يُدرىٰ من أين ولا إلىٰ أين ، ولله سبحانه بعدد كل ذرة منه دنيا مثل دنياكم هذه) قال : (وما من ساعة تمضي من ليل أو نهار إلا ولله فيها قيامة تقوم علىٰ أقوام ، وميزان ينصب ، وصراط يُمر عليه ، وقوم يدخلون الجنة ، وقوم يدخلون النار ، وهما غير الجنة والنار اللتين أُعدتا لنا) انتهىٰ .

ومن ذلك قول بعض ذريته وورثته سيدي الجد العيدروس عبدالله بن أبي بكر : (لو شئت أن أصنف علىٰ حرف الألف ألفَ مجلد .. لفعلت) ، وقوله : (هل من مبارز في جميع العلوم ؟) ، وقول عمه سيدي عمر المحضار نفع الله به : (لو أردتُ أن أملأ من تفسير ﴿مَا نَنسَخْ﴾ مئة ألف بعير .. لفعلتُ) ، وقد رأىٰ بعض الأشراف من بني علوي بعض أولياء بلدتنا من بيت أبي فضل يقول له : (يا شريف ؛ وجدنا تحت كل حرف من القرآن أربع مئة ألف لك من المعاني ، وكل حرف منه له معان في موضع غير المعاني التي له في موضع آخر) .

وقال سيدي علي الخواص نفع الله به : (إن الله أطلعني علىٰ معاني سورة الفاتحة ؛ فظهر لي منها ألف علم وأربعين ألف علم وتسع مئة وستة وتسعون علماً) انتهىٰ .

هذا وأشباه ذلك ونظائره كثيرة لا يخفىٰ علىٰ من تتبعه ، والله واسع عليم .

(لطيفة) وقفت بعد كتابة هذه التعليقة في كلام أبيض الوجه البكري تحت قوله صلى الله عليه وسلم : «**فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ**» ، وعرفت ما حاصله : (أنه يمكن أن يكون ذلك التجلي ما هو إلا أن وقع ، ثم ألقى الله سبحانه وتعالىٰ عليه أستار العزة الإلهية ، وأذهب بقاء ذلك منتقشاً بصورته في لوح القوة الذاكرة النبوية ؛ إقامة لنواميس الربوبية ، وإرجاعاً إلىٰ منازل العبودية ؛ فيكون الكشف الأول لتكرمته صلى الله عليه وسلم ، والحجّب بعد ذلك لما قررناه الآن ، علىٰ إننا إنما أشرنا لعدم بقائه في الذاكرة فقط) انتهى الغرض منه .

وقد ذاكرني بعض الأصحاب في أنه يلزم أن يساوي علمه صلى الله عليه وسلم علم الله تعالىٰ إذا قلنا : (إنه يعلم كل شيء) ؟.

فأجبته : بأنه لا يلزمه شيء من ذلك ؛ لأن ذلك لله تعالىٰ بالأصالة ، وله صلى الله عليه وسلم بالتبعية ، وكذا من علم شيئاً أو أحاط به ؛ فإنه بإعلام الله وتحييطه ، فأعجبه هذا الجواب واشتهر . انتهىٰ .

(وصاحبِ القبضةِ الأصليةِ)

إشارة إلى المقام المحمدي الخاص به صلى الله عليه وسلم ، وهو المسمىٰ بمقام أو أدنىٰ ؛ وهو ولايته الخاصة ، والمقام المحمدي الثاني يسمىٰ بمقام قاب قوسين ؛ وهو ولايته العامة ؛ فلولايته العامة الفيض بواسطته على النبيين والمرسلين والملائكة والأولياء عموماً وخصوصاً حسب مرتبة كل واحد منهم وقابليته ، ومن هنا الإشارة بقوله تعالىٰ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ ، وإنه مرسل للكل ؛ وذلك ظاهر في المكلفين ، وأما غيرهم .. فمن حيث حقيقته التي هي حقيقة الحقائق ، ومبدأ البدايات ، شعرٌ :

وكلُّهـــمْ مـــنْ رســـولِ اللـــهِ ملـــتمِسٌ   غرْفـــاً مـــنَ البحـــرِ أو رشْـــفاً مـــنَ الـــديَم

فإنـــهُ شـــمسُ فضـــلٍ هـــمْ كواكبُهـــا يظهـــرْنَ أنوارَهـــا للنـــاسِ في الظَّلَـــمِ

فلولايته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد وجوباً ولا بالاستخلاف أيضاً هي أو أدنى ، ولا يتصف بها غيره ولا يطيقها على تقدير الفرض والتقدير لا استخلافاً ولا غيره .. قال صلى الله عليه وسلم : « **ليْ حالٌ معَ ربيْ** » أو قال : « **وقتٌ لا يسعَني فيهِ ملَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ** » ، ونفى بقوله : « **ولا نبيٌّ مرسَلٌ** » نفسه أيضاً من حيث نبوته ورسالته ، وإنما أعلى مراتبِه صلى الله عليه وسلم في الولاية العامة هي الموروثة .

فالخليفة فيه هو الإنسان الكامل ، وبتلك الخلافة العظمى ليست إلا ظهور القطب بالتصرف العام غايته ، وناهيك بها أن يتحقق بمظهرية اسم الجلالة الذي هو علَم على الذات المستجمعة لصفاتها ، فالمظهر هذا الاسم مظهرية الألوهية ؛ أعني : مظهرية فقط لا تحققاً ولا اتصافاً ولا تسمية ، وإنما هو تعلق ليس إلَّا ، فصار الاسم ربه ومُظْهِره ، وصار هو مَظهرَ الاسم ؛ أي : مربوبَه استخلافاً لا أصالة .

وبالجملة فالولاية المحمدية الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم في معناها كالوجوب في معناه اللائق به ؛ فكما أن الوجود الواجب خاص ومفيض .. فكذلك الولاية المحمدية الخاصة به ، ومفيضة للولاية العامة ؛ فالولاية الخاصة لا يتصف بها أحد لا بالأصالة ولا بالاستخلاف ، وإنما لورَّاثه بالتبعية ، وورَّاثه ولايته الخاصة به من العامة به التي هي قاب قوسين ، لا الخاصة به المحجورة عليه التي هي أو أدنى .

واعلم أن لكل نبي من هذه الولاية العامة التي هي الدائرة العظمى وجهاً خاصاً بذلك النبي ؛ هو ولايته الخاصة به لا يشاركه فيها أحد ؛ إذ هي أفضل من نبوته ، وكذلك نبوته أفضل من رسالته ؛ لأن النبوة في ذات النبي صلى الله عليه وسلم أعمُّ وأشرف ؛ فإنه يدخل فيها ما اُختصَّ به في نفسه و أُمر بتبليغه لأمته الذي هو منه رسول .

نعم ؛ وكما أن باب النبوة مسدود عن الغير .. فكذلك ولاية النبوة الخاصة به أحرىٰ وأولىٰ ؛ إذ هي أفضل منها ؛ فإنها حالة النبي مع الحق تعالىٰ ، ونبوته حالة مع الخلق إن كان مرسلاً ، وحالته مع نفسه إن كان غير مرسل .

واعلم أن منزلة القرب المشار إليها في الآية بـ ﴿**أَوۡ أَدۡنَىٰ**﴾ ثابتةٌ له صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من حيث ذاته ، وفي غير ذلك من حيث روحه وسره ، وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : «**أبيتُ عندَ ربيْ ، يطعمُنيْ ويسقيْنيْ**» ، وإلىٰ ذلك يشير قول القطب البكري نفع الله به شعراً :

ومَــــــــنْ بـــــــالعينِ أُبـــــــصرُهُ فعنْـــــــــهُ قـــــــطُّ لا يُحجَـــــــبُ

هذا وقد أطلنا الكلام في هذا المبحث بأكثر مما هنا في شرحنا الكبير على الأبيات العيدروسية ؛ فليرجع إليه من أراده .

ولنذكر هنا ما ذكره سيدي عبدالقادر العيدروس في كتابه **"الزهر الباسم"** ؛ حيث فيه ذكر الولاية الخاصة والعامة ؛ فنقول : قال نفع الله به : (روي عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالىٰ محمد بن أحمد البلخي قدس الله سره قال : سافرت من بلخ إلىٰ بغداد وأنا شاب ؛ لأرىٰ الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه ، فوافيته يصلي العصر بمدرسته ، وما كنت رأيتُه ولا رآني قبل ذلك ، فلما سلَّم وهرع الناس للسلام عليه .. تقدمتُ عليه فصافحته ، فأمسك بيدي ونظر إليَّ مبتسماً وقال : « مرحباً بك يا بلْخي يا محمد ؛ قد رأى الله مكانك وعلم نيتَكَ » ، قال : فكان كلامه ذلك دواء للجريح وشفاء للعليل ، فذرفتْ عيناي خشية ، وارتعدت فرائصي هيبة ، وخفقت أحشائي شوقاً ومحبة ، فاستوحشتْ نفسي من الخلق ، ووجدتُ في قلبي أمراً لا أُحسِن أن أعبِّر عنه ، ثم ما زال ذلك ينمو ويقوىٰ وأنا أغالبه .

فلما كان ذات ليلة .. قمت إلىٰ داري وكانت ليلةً مظلمة ، فبرز لي من قلبي شخصان بيد أحدهما كأس ، وبيد الآخر خلعة ، فقال لي صاحب الخلعة : «أنا علي بن أبي طالب ، وهذا أحد الملائكة المقربين ،

وهذا كأس شراب المحبة ، وهذه خلعة من خلع الرضى» ، ثم ألبسني تلك الخلعة ، وناولني صاحبه الكأس ، فأضاء بنوره المشرقُ والمغرب ، فلما شربته .. كُشف لي عن أسرار الغيوب ، ومقامات أولياء الله تعالىٰ ، وغير ذلك من العجائب .

فكان مما رأيتُ مقاماً تزِلُّ أقدام العقول في سرِّه ، وتضَل أفهام الأفكار في حاله ، وتخضع رقاب الأولياء لهيبته ، وتذهل أسرار السرائر في بهائه ، وتدهش أبصار البصائر لأشعة أنواره ، لا تسامته طائفة من الملائكة الكروبيين والروحانيين والمقربين إلا خرَّ لظهورها علىٰ هيئة الراكع ؛ تعظيماً لقدر ذلك المقام ، ويتحقق الناظر اليه أن كلَّ مقامٍ لواصل ، أو وصال لمحدث ، أو سر لمحبوب ، أو علَم لعارف ، أو تصريف لولي ، أو تمكن لمقرَّب .. فمبدؤُه وموئله وجملته وتفصيله وكله وبعضه وأوله وآخره فيه استقر ، ومنه نشأ ، وعنه صدر و وبه كمل .

فمكثت مدة لا أستطيع النظر إليه ، ثم طُوقتُ النظر إليه ، ومكثت مدة لا أستطيع مسامتته ، ثم طُوقتُ مسامتته ، ومكثت مدة لا أعلم بمَن فيه ، ثم بعد مدة علمتُ بمن فيه ؛ فإذا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن يمينه آدم وإبراهيم وجبريل ، وعن شماله نوح وموسىٰ وعيسىٰ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وبين يديه أكابر أصحابه رضي الله عنهم والأولياء قدَّس الله أرواحهم قياماً علىٰ هيئة الحلقة ؛ كأن علىٰ رؤوسهم الطير من هيبته صلى الله عليه وسلم .

وكان ممن عرفت من الصحابة أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة والعباس رضي الله عنهم ، وممن عرفت من الأولياء معروف الكرخي والسري السقطي والجنيد وسهل التستري وتاج العارفين أبو الوفاء والشيخ عبدالقادر الجيلاني والشيخ عدي والشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنهم ، وكان من أقرب الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أبوبكر ، وكان من أقرب الأولياء إليه الشيخ عبدالقادر ، فسمعت قائلاً يقول : «إذا اشتاقت الملائكة المقربون ، والأنبياء والمرسلون ، والأولياء المحبوبون إلىٰ رؤية محمد صلى الله عليه

وعلىٰ آله وصحبه وسلم .. ينزل من مقامه الأعلىٰ عند ربه الذي لا يستطيع النظر اليه أحد إلىٰ هذا المقام ؛ فتتضاعف أنوارهم لرؤيته ، وتزكو أحوالهم بمشاهدته ، ويعلو مكانهم ومقاماتهم ببركته ، ثم يعود إلى الرفيق الأعلىٰ» ، قال : فسمعت الكل يقولون : «سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير» .

ثم بدت لي بارقة من القدس الأعظم ، فغيبتني عن كل مشهود ، واختطفتني عن كل موجود ، وأسقطت مني التمييز بين مختلفَينِ ، وأقمت علىٰ هذه الحال ثلاث سنين ، فلم أشعر إلا وأنا سائر والشيخ عبدالقادر رضي الله عنه قابض علىٰ صدري وإحدىٰ رجليه عندي والأخرىٰ في بغداد ، وقد عاد إليَّ تمييزي وملَكتُ أمري ، فقال لي : «يا بلخي ؛ قد أُمرتُ أن أردَّك إلىٰ وجودك ، وأملكَك حالك ، وأسلبَ عنك ما قهركَ» .

ثم أخبرني بجميع مشاهداتي وأحوالي من أول أمري إلىٰ ذلك الوقت إخباراً يدل على اطلاعه عليَّ في كل نفَس ، وقال لي : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع مرات حتىٰ طُوقتَ النظر إلىٰ ذلك المقام ، وسبع مرات حتىٰ طُوقتَ مسامته ، وسبع مرات حتى اطلعتَ علىٰ مَن فيه ، وسبع مرات حتىٰ سمعتَ المنادي ، وقد سألتُ الله فيك سبع مرات وسبع مرات وسبع مرات حتىٰ لاحتّ لك تلك البارقة ، وكنتُ من قبلُ سألتُه فيك سبعين مرة حتىٰ سقاكَ كأساً من محبته ، وألبسَك خلعة من رضوانه ، ويا بُنيَّ ؛ اقض جميع ما فاتك من الفرائض» انتهىٰ .

(والبهجةِ السنيَةِ)

أي : في ذاته وصفاته وأفعاله ، كيف لا وهو رحمة للعالمين ؟! والرحمة خير محض ، قال سيدي الأستاذ أبوالعباس المرسي نفع الله به : (جميع الأنبياء عليهم السلام خُلقوا من الرحمة ، ونبينا هو عين الرحمة)

انتهى ، واذا كان عين الرحمة .. فهو أصل الرحمات وينبوعها ، ولا رحمة خارجة عنه ، وكل مرحوم ومسهوم منه .

هذا ومن بعض ما ذكروه من بهجة صورته الشريفة أنه كان يزهر المكان المظلم من إشراق لونه ، وأنه إذا ابتسم .. تسطع الحيطان من نور ثغره الشريف ، وقال فيه الصديق والفاروق رضي الله عنهما : (كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كدارة القمر) ، وقال جرير بن عبدالله رضي الله عنه (لما رأيت محمد صلى الله عليه وسلم .. لقد رأيت وجهه أحسن من البدر) ، وسقطت إبرة في بيت السيدة عائشة فأبصرتْها بضياء طلعته الشريفة ، ولما كان جسمه الشريف نورانياً شفافاً .. لم يُرَ له ظلٌ أصلاً .

وكان صلى الله عليه وسلم حلوَ النطق ، عذب الكلام ، في صوته بُحَّة مستحَسنة ، وكان سهل الصوت ليِّنه ، أحسن الناس نغمة ، يبلغ صوته كرامةً من الله ما لا يبلغ صوت غيره ، وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه : « **ما بَعث الله نبياً إلَّا حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم صوتاً ، وأحسنهم وجهاً** » إلى غير ذلك من بهجة محاسنه الشريفة .

وعلى كل حال لو أراد الباحث البحث عن محاسن عضو منه أن يحصيها جميعها .. لم يقدر على ذلك ، وإلى ذلك يشير سيدي عمر بن الفارض قدس الله سره بقوله شعراً :

وعلى تفننِ واصفيهِ بحسنِهِ ... يفنى الزمانُ وفيهِ ما لم يوصفِ

(والرتبةِ العليةِ)

المشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم : «**الفقرُ فخرِيْ وبهِ أفتخرُ**» وإيضاح ذلك بلسان أهله هو : أن الله تعالى كان ولم يكن شيء غيره ؛ فالله اسم لمرتبة الأحدية التي بها الإطلاق ، والنبي صلى الله عليه وسلم

مظهره ؛ فإنه صاحب مقام أو أدنىٰ ، فله الإطلاق اختصاصاً إلهياً ؛ إذ لا يصح أن يكون مظهراً للاسم الجامع لجميع الأسماء ، الغني عما سواه لذاته ؛ إذ بالفقر التام والسعة التامة ، وهو صلى الله عليه وسلم لكونه برزخ البرازخ .. صاحب هذا المقام اختصاصاً إلهياً ، والظهور بصورة أحدية الجمع لا رتبة فوقه أصلاً .

(مَنِ اندرجتِ النبيونَ تحتَ لوائِهِ ؛ فهمْ منهُ وإليهِ)

المعنوي والحسي ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : «**آدمُ ومَنْ دونَهُ تحتَ لوائِي يومَ القيامةِ**» ؛ فهم منه كما سبق الكلام علىٰ ذلك ، ومنه قول العارف المرسي قدس الله سره : (جميع الأنبياء خُلقوا من الرحمة ، ونبينا هو عين الرحمة ، وهم الكل إليه ؛ إذ لا غنىٰ لأحد عن واسطته) كما قال القطب الصدِّيقي نفع الله به شعراً :

وأنـــــتَ بــــابُ الله أيُّ امـــــرىء ... أتــــاهُ مــــنْ غـــيرِكَ لا يــــدخلُ

ولأنهم في الحقيقة أُمناؤه وخلفاؤه ونوابه الحاكمون ببعض شرائعه وطرقه صلى الله عليه وسلم ؛ فهو آدم الأكبر الحقيقي ، ومن ثَمَّ يقول له آدم عليه السلام إذا لقيه : (يا ولد ذاتي ووالد معناي) وقد نبَّه علىٰ هذا المعنىٰ سيدي عمر بن الفارض قُدِّس سرُه بقوله شعراً :

وإنِيْ وإنْ كنــــتُ ابـــنَ آدمَ صــــورةً ... فـــليْ فيـــهِ معنـــى شـــاهدٍ بـــأبوَّتيْ

ونحوه قول السيد سالم بن شيخان العلوي الحسيني قُدِّس سره في همزيته المرفوعة شعراً :

فــــإلى المرســـلينَ أنــــتَ رســـولٌ ... منـــكَ حقـــاً غشـــتْهمُ الأضـــواءُ
أنــــتَ أصــــلٌ لكــــلِّ أصـــلٍ ... فكـــلٌّ عنـــكَ فـــرعٌ وإن هـــمْ آبـــاءُ

ومن ثَمَّ كان آدم عليه السلام وارثاً منه علم الأسماء ، وإن كان نبينا صلى الله عليه وسلم ورثه منه في الظاهر لكن بطريق الترقي والتدلي بحسب القبضتين ؛ فأول حصول ذلك كان للنور المحمدي الذي هو

أول الأشياء حقيقة ، فتلقاها أولاً من الحق بلا واسطة ، ولما كان أصلها منه .. صار ماء لها ، ولله در البوصيري إذ قال :

وكـــلُّ آيٍ أتـــى الرســـلُ الكـــرامُ بهـــا فإنَّمـــا اتصـــلتْ مِـــنْ نـــورِهِ بهـــمِ
فـــإنَّهمْ شـــمسُ فضـــلٍ هـــمْ كواكبُهـــا يُظهـــرْنَ أنوارَهَـــا للنـــاسِ في الظُّلـــمِ

قال العلامة ابن مرزوق رحمه الله - أي : في شرح البردة - : (يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل .. فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أحسنَ قولَه :

.... فإنَّمـــا اتصـــلتْ مِـــنْ نـــورِهِ بهـــمِ

فإنه يعطي أن نوره صلى الله عليه وسلم لم يزل قائماً به ولم ينقص منه شيء ، ولو قال : فإنما هي من نوره .. لتوهم أنه وُزِّع عليهم وقد لا يبقى له منه شيء ، وإنما كانت آيات كل واحد من نوره صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه شمس فضل هم كواكب تلك الشمس يُظهرن - أي : تلك الكواكب - أنوارَ تلك الشمس للناس في الظلم ؛ فالكواكب ليست مضيئة بالذات ، وإنما هي مستمدة من الشمس ؛ فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس ، وكذلك الأنبياء قبل وجوده صلى الله عليه وسلم كانوا يُظهرون فضلَه ، ولله درُّ بعضهم حيث قال :

فـــإنْ جـــاءَ بعـــدَ الأنبيـــاءِ مؤخَّـــراً لقـــدْ كـــانَ قبـــلَ الأنبيـــاءِ مقدَّمـــا
وكـــانوا لـــهُ الحُجَّـــابُ في موكـــبِ الهـــدى ولا غـــروَ للحُجَّـــابِ أنْ تتقدَّمـــا
أقـــامَ قنـــاةَ الديـــنِ بعـــدَ اعوجاجِهـــا فمِـــنْ بعـــدِهِ مـــا أعـــوجَّ مـــا كـــانَ قوِّمـــا

قال رضي الله عنه : (وإلى بعض ذلك يشير ما ورد من قول جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله أمرني أن أصلي عليك هكذا : السلام عليك يا أولُ ، السلام عليك يا آخرُ ، السلام عليك يا

باطنُ ، السلام عليك يا ظاهرُ» ، وبهذا كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم في المواجهة بالمدينة المنورة سيدي القطب الصفي القشاشي وشيخه الشناوي قُدس سرهما) .

ومما يفصل بعض إجمال ما تقدم ما قاله في كتاب "السلسلة العيدروسية" نفع الله به بعد إيراده كلاماً يتعلق بها ذكره في الجملة : (والدليل على قوله صلى الله عليه وسلم : «**كنتُ نبياً**» أي : مستفيضاً من الله ، ومفيضاً على خلقه ، ولذا لم يقل : كنت إنساناً ولا موجوداً ، بل أخبر أنه صلى الله عليه وسلم صاحب النبوة قبل وجود الأنبياء والمرسلين ؛ فهو صاحب الشرع أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً ، والذي نسخه من شرعه المتقدم ما أراد الله أن ينسخ منه ، وأبقى ما أراد الله أن يبقى منه ؛ كما ثبت بعد وجوده صلى الله عليه وسلم ، وكان المنسوخ من الأحكام خاصة لا من الأصول ، فاعتقاد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين متحد في التوحيد ، لكنهم مختلفون في الشرائع ؛ لاختلاف أمزجة الأمم ، وذلك لا يقدح في وجود الأصل وظهوره صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان جسماً وروحاً ؛ لأنه لو كان موجوداً بجسمه من لدن آدم .. لكان من بعده تحت شريعته ؛ فيلزم أن لا يبعث أحد من الأنبياء والمرسلين ، فتقدمه صلى الله عليه وسلم روحاً لأبداننا ، وبعث الأنبياء والمرسلين إلى أقوام مخصوصة ؛ لظهور حِكَم إلهية في ذلك ، ولم تعمَّ رسالة أحد ؛ لتحقيق نيابة كل واحد منهم ؛ يعني : عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولذا يَحكم عيسى عليه السلام حين ينزل آخر الزمان بشرعه صلى الله عليه وسلم ؛ فيقرر شرعه الشريف في الظاهر ، لكن لمَّا لم يتقدم في عالم الحس أوَّلاً وجوده صلى الله عليه وسلم .. نُسب كل شرع إلى من بُعث به وهو في الحقيقة شرعه صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ ولم يقل : فبهم اقتده ؛ لأن هداهم من الله تعالى ، وهو شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى : الزم شرعك الذي ظهر به نوابك قبل ظهور جسدك الشريف ، وقال الله تعالى : ﴿ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ فهو صلى الله عليه وسلم مأمور باتباع الدين ؛ لأن أصله من الله تعالى لا باتباع أحد من الأنبياء .

والخلاف في هذه المسألة عند علماء الظاهر .. منتشر كثير معلوم غير مجهول ، لكن ليس هو من العلماء المتبحرين المحققين ببال ، ولا تحته طائل للعوام ، بل هو فتنة عليهم بلا محال ، وإنما هو ديدن المتوسطين والكل في ذلك على صراط مستقيم ؛ فجزاهم الله عن الأمة جنات النعيم) انتهى .

(تنبيه) ظاهر قوله تعالى : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : «**وأُرسلتُ إلى الخلق كافةً**» .. يعطي كونه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى كل مخلوق من الحيوانات والنباتات والجمادات ، ولا مانع من إجرائهما على ظاهرهما ، وقد تقدم بعض ما يدل على ذلك ، وما ذاك إلا أن كل مخلوق دلت ظواهر الكتاب والسنة على أنه حي عالم قادر مريد ناطق وإن تفاوتت مراتب حياتها وإدراكاتها وبقية كمالاتها ؛ فصح أن يُكلف تكليفاً بحسب عالمه وطوره ومرتبة كمالاته ؛ فإن الإنسان المكلَّف بالإجماع أيضاً يختلف تكليف أفراده بحسب اختلاف أحوالهم في الوسع اختياراً واضطراراً ؛ فيباح لهذا ما يحرم على ذلك ، وعلى هذا فقس بقية الأحكام .

وحديث : «**ما صِيدَ صَيْدٌ ، ولا عُضِدتْ عضاةٌ ، ولا قُطعتْ وشيجةٌ إلا بقلةِ التسبيحِ**» .. يدل على أن التكليف لسائر الأشياء كثرة التسبيح ؛ فمن قصَّر فيما كُلف به .. جوزي بما يقتضيه العدل الإلهي ويعفو عن كثير ، ومن شواهد الدلائل في ذلك قول الشيخ محيي الدين قدس الله سره في الفتوحات المكية تحت قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ما ملخصه : (هذا التسبيح ، وليس هذا التسبيح بلسان الحال ؛ كما يقوله أهل النظر ممن لا كشف له بل هو بلسان المقال ؛ فالعالم كله في مقام العبادة والشهود إلا كل مخلوق له قوة على التفكر ، وليس إلا النفوس الناطقة الإنسانية والحيوانية خاصة من أعيان أنفسهم لا من حيث هياكلهم ؛ فإن هياكلهم كباقي العالم في التسبيح والسجود ؛ فأعضاء البدن كلها مسبِّحة ناطقة ، ألا تراها تشهد على النفوس المسخرة لها يوم القيامة من الجلود والأيدي والأرجل والألسنة والسمع والبصر وجميع القوى ؛ فالحكم لله العلي الكبير) .

وقال في موضع آخر : (وهذا التسبيح فطري ، وسجود ذاتي عن تجلي لهم ، فأحبوه وانبعثوا إلى الثناء عليه من غير تكليف ومشقة بل اقتضاء ذاتي ، وهذه العبارة الذاتية التي أقامهم الله فيها بحكم الاستحقاق الذي يستحقه)انتهى .

وقال في موضع آخر من "الفتوحات" : (فما من إنسان إلا وجميع أجزائه مسبحة بحمد الله ، ولا قوَّة من قواه إلا وهي ناطقة بالثناء على الله ، حتى النفس الناطقة المكلفة من حيث خلقها وعليها كسائر جسدها الذي هو ملكها .. مسبحة أيضاً لله ؛ فما عصى وخالف الأمر واحد من هذه الجملة المعبَّر عنها بالإنسان ...) إلى آخر ما أطال نفع الله به .

(لطيفة) اعلم أنه يحصل للسالك سماع ذلك من جميع الموجودات ، لكن هناك نكتة ؛ وهو أنه إن سمعها مشتغلة بالذكر الذي هو عليه .. فكشفه خيالي لا حقيقي ، وإنما ذلك حالة أقيم له في الموجودات ، وإن شهد فيها تنوعات الاذكار .. فهو الكشف الصحيح ، ومثله إذا شاهد شيئاً بعينه : فإنه إن غمض عينيه وبقي له شهود ذلك .. فهو خيال ، وإن لم يبق .. فالكشف صحيح ، وهذا هو الفرق بين الكشف الحسي و الخيالي .

(تنبيه آخر) قيل : (إن عيسى عليه السلام كان أزهد الأنبياء ، وأنه يجوز أن يكون في المفضول خصلة لا يوجد مثلها في الفاضل) ، قال بعض أهل التحقيق : (وفيه بحث ؛ لأن نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام عُرضتْ عليه الدنيا بحذافيرها فلم يلتفت إليها ، وما زاغ بصره وما طغى لديها ، حتى منع بعضُهم من إطلاق الزهد عليه صلى الله عليه وسلم ؛ معلِّلاً بأن لا قيمة للدنيا عنده حتى يزهد فيها ، وهذا بناء على أن الزهد حبس النفس ، أما لو فُسِّر بأنه عدم الميل بالمرة .. فيجوز اتصافه به) هكذا نبَّه بعضهم نفع الله بهم .

وفي كتاب "الشفاء" وغيره : (أن جبريل عليه السلام قال : إن الله تعالى يقول لك : « **أتحبُّ أنْ أجعلَ لكَ هذهِ الجبالَ ذهباً ، وتكونَ معَكَ حيثُ كنْتَ ؟**»فأطرق ساعة ثم قال : « **يا جبريلُ ؛ ماليْ وللدنيا ؛**

الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ لهُ ، ومالٌ لمنْ لا مالَ لَهُ ، وقدْ يجمعُها مَنْ لا عقلَ لَهُ » فقال له جبريل عليه السلام : (ثبتك الله بالقول الثابت) ، وفي رواية أخرىٰ : «**أريدُ أنْ أجوعَ يوماً فأصبرَ ، وأشبعَ يوماً فأشكرَ**» فاختار الفقر والغنىٰ ، فكلاهما له كان اختياراً لا اضطراراً ، وما ذاك إلا لأنه صلى الله عليه وسلم مظهر للكمال ، الجامع بين مطلع الجمال والجلال ، معتدل في الأحوال ، متوسط بين الخوف والرجاء ؛ كما يقتضيه مقام الرضا بالقضاء .

واذا كان صلى الله عليه وسلم دائمَ البِشر ، كثير التبسم ، متواصل الاحزان ، وعيسىٰ عليه السلام كان الغالب عليه الخوف ، ولذا كان يمتنع عن كثير من تمتعات الحلال ، وأيضاً كان {يمتنع} مبعوثاً إلىٰ جمع محصور من أرباب الجاه والمال ؛ فأظهر كمال الزهد فيهم ؛ ليقتدوا به ، ولذا ظهرت الرهبانية فيهم ، لكنهم ابتدعوها وما رعوها حق رعايتها .

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .. فكان مبعوثاً لعامة الخلق ، وهو الرحمة للعالمين ، وقد أَمر الحق له أن يقول للخلق : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ فاختار طريقاً جامعاً ومسلَكاً واسعاً يسع الخلق كلهم أن يتبعوه ؛ صغيرهم وكبيرهم ، وضعيفهم وقويهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وملوكهم وصعلوكهم ؛ فتارة يأكل خبز الشعير اليابس والتمر الردي ، وتارة يأكل الرَّطب الجَنِي والعيش الطري .

وتارة يلبس الثوب الفاخر وأخرىٰ يلبس الكساء الخلِق الطاهر ، وتارة يرقد على السرائر وفرشه الثياب ، وتارة على الحصير والتراب ، وتارة يلبس القلنسوة مع العمامة ، وأخرىٰ يكتفي بالقلنسوة ، وتارة يركب الجمل والفرَس ، وأخرىٰ يركب البغل والحمار وربما يُردِف ، وتارة يمشي منفرداً وأخرىٰ مع جماعة .

وتارة يصوم حتىٰ يُظنَّ أنه لا يفطر ، وأخرىٰ يُفطر حتىٰ يُظنَّ أنه لا يصوم ، وكذا في صلاة الليل ؛ فتارة يصلي حتىٰ لا يُظن أنه يرقد ، وأخرىٰ ينام حتىٰ يُظن أنه لا يصلي ، ومع هذا ما أحيا الليل كله ، وربما رقد عن صلاة التهجد ؛ فأداها في النهار ، وما ذلك كله إلا تسهيلاً للأمة ، وتهويلاً لمتابعة جميع الأمة .

وتارة يعطي عطاء الملوك ؛ استغناء بغنى الحق ، وأخرىٰ يقترض من يهودي ؛ إظهاراً للافتقار وتواضعاً مع الخلق ، كل ذلك لتكون شريعته سهلة ، وطريقته سمحة لا فيها عِوج ولا حرج ، ومن ثَمَّ كان التشدد في العبادة منهي عنه كالتراخي عنها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : «**أَمَّا أنا .. فأقومُ وأنامُ ، وأصومُ وأفطرُ...**» الحديثَ .

(**مهمة ينبغي التنبيه عليها**) نقل سيدي القطب عبدالوهاب الشعراني في "درر الغوَّاص" عن سيدي علي الخوَّاص نفع الله بهما أنه قال : (لا تجعل بينك و بين الله واسطة أبداً من نبي أو غيره) فقلت له : (كيف ؟!) قال : (لأنَّ الرسول إنما هو واسطة بين العبد وربه في الدعوة إلى الله تعالىٰ لا إلىٰ نفس ؛ فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالىٰ من عباده .. ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك ، وصار الحقُّ تعالىٰ أقربَ إلى العبد من نفسه ومن رسوله ، ولم يبق للرسول صلى الله عليه وسلم إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع و الاتباع ؛ كما في حال المناجاة في السجود سواء ؛ فنفْس الرسول تغار من أمته أن يقفوا معه دون الله تعالىٰ ؛ فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ ؛ كما حصل له الأجر علىٰ ذلك ، وكما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ سنَّ سُنةً حسنةً .. فلهُ أجرها وأجرُ مَنْ يعملُ بها إلى يومِ القيامةِ**» .

وانظر يا أخي إلىٰ غَيرة الحق تعالىٰ علىٰ عباده بقوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ؛ فأعلَمنا الحق تعالىٰ أنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذي جعله لنا واسطة في كل خير ، مع أنه تعالىٰ بالغ في مدحه صلى الله عليه وسلم حتىٰ كاد أن

يصرِّح بأنه هو ؛ بكثرة ما وصفه بالكمال في نحو قوله تعالىٰ : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ، وبقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ، ومع ذلك قــال : ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ الآيةَ ؛ فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم) انتهىٰ .

قال العلامة ابن زكريا رحمه الله تعالىٰ في "شرح الصلاة المشيشية" بعد نقله ذلك ما ملخصه : (لا يهولنَّك أمر هذا الكلام مع ما حققناه من أن الاستغناء عن وساطته صلى الله عليه وسلم لا سبيل لأحد إليها وإن وصل ما وصل ؛ كما سبق تفصيله وبيانه في كلام الشيخ المحقق سيدي عبدالرزاق العثماني قُدِّس سره ، وهذا سيدنا الشيخ أبو العباس المرسي الذي لا نشك في قطبانيته ؛ كما شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلي وغيره بذلك قال : «لو احتجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفةَ عين .. ما عددت نفسي من المسلمين» .

وقد تقدم غير مرة من غير واحد ما معناه : أن كل من به حصلت له رحمة في الوجود ، أو خرج له قسم من رزق الدنيا والآخرة ، والظاهر والباطن ، والعلوم والمعارف والطاعات .. فإنما خرج له ذلك علىٰ يدَيه وبواسطته صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي يقسم الجنة بين أهلها ، ولهذا عدُّوا من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه أعطي مفاتيح الخزائن ، قال بعض العلماء نفع الله بهم : وهي خزائن أجناس العالم فإنما يعطيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بيده المفاتيح ؛ فلا يخرج من الخزائن الإلهية شيء إلا علىٰ يديه صلى الله عليه وسلم ، وهو معنى اسمه الخليل وخليفة الله .

وقد سبق أنه لا طاقة لأحد بالتبليغ والشهود بدون واسطته صلى الله عليه وسلم ، وأنه المرآة الكبرىٰ والمجلى الأعظم ، وأن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف له ، والمعرفة لا نهاية لها ؛ فما دام الإنسان يترقىٰ فيها .. فهو يغترف من بحره صلى الله عليه وسلم ، ويستمد منه حتى الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم ، شعرٌ :

**وكلُّهُمْ مِنْ رسولِ اللهِ ملتمسٌ		غرْفاً مِنَ البحرِ أو رشْفاً مِنَ الدِّيَمِ**

غاية الأمر أن صاحب الفناء لا يشعر بذلك وقت فنائه في الله ؛ لغيبته فيما فني فيه ؛ فالمنتفي إنما هو شعوره ، وأما استمداده منه وتوجه الفتح له علىٰ يديه صلى الله عليه وسلم .. فثابت في نفس الأمر ، فإن نُبِّه لذلك بعد إفاقته .. اعترف به ؛ بدليل ما مر : أنه لا يخرج شيء من الخزائن إلا علىٰ يديه ، وسبق في كلام غير واحد من أئمة الطريقة المقتدَىٰ بهم أن الاشتغال بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم طريق الفتح ، وأنها من ذكر الله تعالىٰ ، وكونُ الله تعالىٰ أقربَ إلى العبد من نفسه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم .. مما لا إشكال فيه ، ولا ينافيه شيء مما ذكرنا .

وبعد ثبوت الإيمان للعبد لا يستغني عن خلفائه ووسائطه صلى الله عليه وسلم من المشايخ المهتدين في التوصل إلى المعرفة .

نعم ؛ بعد الوصول التام يستغني عنهم ولا يُستغنىٰ عنه صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل الشيخ أبو الحسن الشاذلي نفع الله به فقيل له : (مَن هو شيخك يا سيدي ؟) فقال : (كنت أنتسب إلى الشيخ عبدالسلام بن مشيش ، وأنا الآن لا أنتسب إلىٰ أحد ، بل أعوم في عشرة أبحر ؛ خمسة من الآدميين : النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم ، وخمسة من الروحانيين : جبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وإسرافيل ، والروح) وقد سبق في كلام أويس القرني وكلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي أن الخلفاء الأربعة ، تفاوتوا في معرفته صلى الله عليه وسلم ، وأن معرفتهم بالله تعالىٰ علىٰ حسب ذلك .

ولعل مقصود هذا الكلام الذي قاله سيدي علي الخوَّاص .. التنبيهُ على الاحتراز من الغلط في شهوده صلى الله عليه وسلم ؛ بأن يجعل المشاهدة الواسطة كالمقصد ؛ فيقف عندها ولا ينفذ إلى المقصد ، وهذا إنما يقع لبليد قاصر ؛ إذ الدلالة لأقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم على الله .. ثابتة ؛ فالوقوف عند الدال مع عدم فهم دلالته غاية في القصور وفي الجهل بالدال .

ولا يُستغرب هذا ؛ فإن مصائب الجهل لا تنحصر ، وقد حُكي عن بعض المشايخ أن مريداً أصدق في محبته والاقتداء به ، لكنه توغل بالتمسك به والوقوف معه ؛ فصار ذلك له كالحجاب ، فصعد معه يوماً علىٰ سطحه ، فأمر بطرحه من فوق السطح ، فجاء يلوذ به فدفعه عنه فطرحوه ؛ فحين كان نازلاً في الهواء .. انقطع رجاؤه منه فُفتح له ، وكثير يقع لهم الغلط في صحبة المشايخ ؛ فيرون النفع والضرر منهم ، غافلين عن جانب الربوبية ، حتىٰ أن بعضهم ينقطع عند ظهور عجزهم له عن قضاء ما يريده .

وبالجملة فليُحترز كل الاحتراز عن حال مَن به يقع له الغلط في شهود الواسطة حتىٰ يجعلها كالمقصد ، وليستحضر أنه لولا تعريف الله تعالىٰ لنا به صلى الله عليه وسلم .. ما عرفناه ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، اللهم ؛ لولا أنت ما اهتدينا .

قلتُ : وإلى الإشارة إلىٰ بعض ما نقلناه هنا يشير قول سيدي أبي الحسن الشاذلي قُدس سره : (قرأت ليلةً قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «أنا ممَّنْ يعلمُ ولا أُغنيٌ عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً») وفي الحديث الصحيح : (أنه لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ .. دعا صلى الله عليه وسلم قريشاً ، فاجتمعوا وحضروا ، فطلب منهم أن ينقذوا أنفسهم من النار إلىٰ أن قال : «**يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ، يا صفيةُ بنتَ عبدِ المطلبِ ، يا بني عبدِالمطلبِ ؛ لا أملك لكم من الله شيئاً ، غيرَ أنَّ لكمْ رحِماً سأبلُّها ببلالِها**» ؛ يعني : سأصلها بصلتها .

وأخرج الشيخان عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاراً غير سر يقول : «**إنَّ آلَ أبي فلانٍ ليسوا بأوليائيْ ، إنما وليِّيَ اللهُ وصالحو المؤمنينَ ، لكنَّ لهم رحماً سأبلُّها ببلالِها**») يعني : سأصلها بصلتها ، وأخرج البخاري في الأدب المفرد : «**إنَّ أوليائيْ يومَ القيامةِ المتقونَ ، وإنْ كانَ نسبٌ أقربُ مِن نسبٍ ، لا يأتِيْ الناسُ بالأعمالِ وتأتونَ بالدنيا تحملونَها على رقابِكم ؛ فتقولونَ : يا محمدُ ، فأقولُ : هكذا وهكذا** -وأعرض في كلا عطفيه - » .

فإن قلتَ : هذه أحاديث تنافي الأحاديث الواردة في فضلهم ؟

قلتُ : لا تنافي ؛ كما قاله المحب الطبري وغيره من العلماء رحمهم الله تعالىٰ : (إنه صلى الله عليه وسلم لا يملك لأحد شيئاً لا نفعاً ولا ضراً ، لكنَّ الله عز وجل يُملِّكه نفعَ أقاربه بل وجميع أمته بالشفاعة العامة والخاصة ؛ فهو لا يملك إلا ما يملكه له مولاه ؛ كما أشار اليه بقوله : «**غيرَ أنَّ لكمْ رحِماً سأبلُّها ببلالِها**» ، وكذا معنىٰ قوله : «**لا أملكُ لكمْ مِنَ اللهِ شيئاً**» أي : بمجرد نفسي من غير ما يكرمني الله به منه ، من غير شفاعة ومغفرة .

وخاطبهم بذلك ؛ رعاية لمقام التخويف والحث على العمل ، والحرص علىٰ أن يكونوا أوَّلَ الناس حظاً في تقوى الله تعالىٰ وخشيته ، ثم أومأ إلىٰ حق رحِمه ؛ إشارة إلىٰ إدخال نوع طمأنينة فيه ، وقيل : (هذا قبل علمه بأن الانتساب إليه ينفع ؛ بأنه يشفع في إدخال قوم الجنة بغير حساب ، ورفع درجات آخرين ، وإخراج قوم من النار) .

ولما خفي طريق الجمع علىٰ بعضهم .. حمل حديث «**كلُّ نسَبٍ وسبَبٍ** ...» علىٰ أن المراد أن أمته صلى الله عليه وسلم يُنسبون إليه ، بخلاف أمم الأنبياء لا ينسبون إليهم ، وهو بعيد وإن حكاه شيخ الإسلام النووي رحمه الله وجهاً له في الروضة ، ويرده ما سنذكره عن عمر رضي الله عنه في إسناده إليه في الحرص علىٰ تزوجه بأم كلثوم رضي الله عنها ، وإقرار علي والمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم له علىٰ ذلك ، وكأن هذا القائل لم يطلع علىٰ ذلك .

ويرده أيضاً ذكر الصهر والحسب مع السبب والنسب كما سيجيئ ، وغضبه صلى الله عليه وسلم لما قيل : إن قرابته لا تنفع ، علىٰ أن في حديث البخاري ما يقتضي نسبة جميع بقية الأمم إلىٰ أنبيائهم ؛ فإن فيه : «**يجيءُ نوحٌ عليْهِ السلامُ وأمتُهُ ، فيقولُ اللهُ : هل بلغتَ ؟ فيقولُ : أيْ ربِّ ؛ نعمْ ، فيقولُ لأمتِهِ : هلْ بلَّغكمْ** ...» الحديثَ ، وكذا جاء عن غيره .

واعلم أنه استفيد من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق : «**إنَّ أوليائي منكُمُ المتَّقونَ**» ، وقوله : «**إنَّ وليِيَ اللهُ وصالحو المؤمنينَ**» .. أن نفع رحمه قرابته وشفاعته للمذنبين من أهل بيته وإن لم ينتف ، لكن ينتفي عنهم بسبب عصيانهم ولاية الله ورسوله ؛ لكفرانهم .

نعم ؛ قرب النسب إليه بارتكابهم ما يسوؤه صلى الله عليه وسلم عند عرض عملهم عليه ، ومن ثَمَّ يعرض عمن يقول له منهم في القيامة : يا محمد ؛ كما في الحديث السابق ، وكفى بذلك بلاء ونقمة فوا سوأتا من الله ورسوله وإن حصل الغفران ودخول الجنان .

وحينئذ ينبغي لأهل هذا البيت المطهَّر أن يسلكوا على طريقة مشرِّفهم عليه الصلاة والسلام وسنته ؛ اعتقاداً وعملاً وعبادة وزهادة وتقوى ، ناظرين إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل أيُّ الناس أكرم ؟ قال : «**أكرمُهمْ عندَ اللهِ .. أتقاهُمْ**» إلى غير ذلك من الأخبار .

ولنذكر ما سبق الوعد به ؛ من ذكر حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ؛ وهو أنه لما قال صلى الله عليه وسلم : «**ما بالُ أقوامٍ يزعمونَ أنَّ قرابتي لا تنفعُ ، أمَا كلُّ سببٍ ونسبٍ منقطعٌ يومَ القيامةِ إلا سببِيْ ونسبِيْ ، وإنَّ رحِمِيْ موصولةٌ في الدنيا والآخرةِ**» .. قال سيدنا عمر : (فتزوجت بأم كلثوم بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنها ؛ لما سمعتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ؛ فأحببت أن يكون بيني وبينه سبب ونسب ، ولما خطبها إلى علي كرم الله وجهه .. اعتلَّ بصغرها ، وقال : «أعددتها لابن أخي جعفر الطيار رضي الله عنه» ، فقال عمر رضي الله عنه : «والله ؛ إني ما أردت الباءة ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : «**كلُّ سببٍ ونسبٍ منقطعٌ يومَ القيامةِ إلَّا سببِيْ ونسبِيْ**» .

وفي رواية : (ما حملني علىٰ كثرة ترددي إليك إلا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**كلُّ حسبٍ ونسبٍ وصهْرٍ ينقطعُ يومَ القيامةِ ، إلَّا حسبِيْ ونسبِيْ وصهرِيْ**» ، وفي رواية أخرىٰ : (والله ؛ ما حملني على الإلحاح علىٰ علي في ابنته .. إلا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**كلُّ سببٍ ونسبٍ وصهرٍ ينقطعُ يومَ القيامةِ إلَّا سببِيْ وصهرِيْ ، وإنَّهما يأتيانِ يومَ القيامةِ فيشفعانِ لصاحبِهما**» .

هذا .. وقد انجرَّ بنا الكلام هنا ، حتىٰ خرجنا عن المقصود أو كدنا أن نخرج منه ، وعلىٰ كل حال .. فالمدار على الفائدة ، والأعمال بالنيات والمناسبات ، ولو كانت من وجه لابأس بذكرها ، ولنرجع إلىٰ ذكر باقي الأصل فنقول :

(وَصلِّ وسلِّمْ وباركْ عليْهِ وعلى آلِهِ)

الآئلين إليه ، ومنهم الذرية الفاطميَّة الطاهرة ؛ فإنهم أعظم الناس حظاً في ذلك ، قال الشيخ محيي الدين في "الفتوحات" : (وموت الجهل شر موت ، وقد عصم الله منه أهل البيت) ، وفي كتابنا "عقد الجواهر في فضل أهل البيت النبي الطاهر" ما فيه إقناع لمن وقف عليه .

وبالجملة .. فأهل البيت كالسفينة ، والصحابة كالنجوم ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : «**مَثلُ أهلِ بيتيْ كسفينةِ نوحٍ ؛ مَنْ ركبَها .. سلِمَ ، ومَن تركَها .. غرِقَ**» ، وقال : «**أصحابِي كالنجومِ ؛ بأيِّهم اقتديْتُمْ .. اهتديْتُمْ**» ، ولا شك أنَّ من لا يركب السفينة .. يغرق ، ومن ركبها ولم يهتد للنجم .. يضل ؛ فلا بد من الجميع يا محب الجميع .

قلتُ : ولا مانع من أن يراد بالآل هنا ما هو أعم من مؤمني بني هاشم والمطلب وصحبه ؛ وهم من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم حال حياته مؤمناً ومات مؤمناً ولو لحظة وإن لم يره ولم يروِ عنه أو غير

مميز ، ومن ثم عدُّوا محمد بن أبي بكر رضي الله عنه صحابياً مع أنَّ ولادته قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر وأيام .

واختُلف فيمَن رآه بعد موته أو اجتمع به وإن لم يره قبل دفنه : هل تحصل له تلك الصحبة أم لا ؟ أعني : هل يُعدُّ من أصحابه حقيقة شرعية أم لا ، وأما من حيث غير تلك الحقيقة .. فالظاهر أنها تشمله أيضاً ؛ فتكون صحبة معنوية ، وهي الواقعة لكثير من أولياء الله تعالىٰ من اجتماعهم به صلى الله عليه وسلم في اليقظة ؛ كسيدي عبدالقادر الجيلاني ، وسيدي أبو الحسن الشاذلي ، وتلميذه أبو العباس المرسي ، وسيدي محيي الدين بن العربي ، وسيدي إسماعيل الجبرتي الهاشمي العقيلي الزبيدي ، وسيدي عبدالله بن أبي جمرة ، وسيدي علي وفا ، وسيدي القطب القسطلاني ، وسيدي السيد نور الدين اللائحي ، وسيدي الحافظ السيوطي ، وسيدي محمد بن أبي الحمائل شيخ العلامة ابن حجر نفع الله بهم .

وما نُقل إلينا أنه وقع لذلك من أسلافنا حسب ما يحضرني الآن سيدي الجد الأعلىٰ محمد بن علي الشهير بالفقيه المقدم ، وولده علوي ، وولد ولده وهو محمد بن علي بن علوي المذكور المعروف بمولى الدويلة ، وولده سيدي عبدالرحمن المشهور بالسقاف ، وولده سيدي أبوبكر بن عبدالرحمن المشهور بالسكران ، وأخوه سيدي عمر المحضار ، وولده العيدروس عبدالله بن أبي بكر ، وصاحبه سيدي سعد ، والسيدة سلطانة الزبيدية ، وسيدي الشيخ أبي بكر بن سالم السقاف ، وسيدي عبدالله باحسين السقاف ، وابن عمه سيدي عبدالرحمن ، وزوجة سيدي عبدالرحمن السيدة الشريفة العلوية السقَّافية ساكنة المدينة المنورة وهي الشهيرة بالعيدروسية ، وقد صافحتها باليد التي أخبرتني أنها صافحت بها جدها المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم في اليقظة ، والحمد لله علىٰ ذلك .

وتفصيل ذلك يطول ، ذكرنا بعضه في شرحنا الكبير على الأبيات العيدروسية ، وقد كان جد الجد الأعلىٰ وهو سيدي علي بن علوي الملقب بخالع قسم إذا قال في صلاته أو غيرها : السلام عليك أيها النبي .. يسمع جده النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : وعليك السلام يا ولدي .

واعلم أنه قد يراه صلى الله عليه وسلم جمع كثيرون في آن واحد ، في أماكن متعددة ، والمدير لتلك الصورة التي رأوها الروح المحمدية ؛ كما تدور روحك الواحدة جميع أجزاء بدنك ، ومن ثم انقسم ولده العيدروس عشرة آلاف صورة ، انتهىٰ .

ويقال : إن صحبته صلى الله عليه وسلم بالمعنى الذي ذكرناه تشمل أيضاً غير من ذُكر ؛ فيدخل فيها من رآه في المنام ؛ لأن ذلك حق ، وقد صرَّح بكون هذه صحبة معنوية سيدي الجد القطب علي زين العابدين العيدروس نفع الله به .

قلت : وقد رأيته صلى الله عليه وسلم في المنام مرات كثيرة والحمد لله علىٰ كل نعمة ، وقد ذكرت بعض ذلك مفصَّلاً في شرح الأبيات العيدروسية المذكورة ، قولنا : لأن ذلك حق دليله ما روى البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « **مَنْ رآني في المنامِ .. فقدْ رآنِيْ ؛ فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتمثلُ بِيْ** » ، وروى الشيخان عن أبي قتادة أنه صلى الله عليه وسلم قال : «**مَنْ رآني .. فقدْ رأَى الحقَّ ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتزيَّا بِيْ**» .

وقوله : «**فقدْ رأَى الحقَّ**» ؛ أي : المنام الحق ؛ وهو الذي يريه المَلَك الموكَّل بضرب مثال الرؤيا بطريق الحكمة ؛ بشارة أو نذارة أو معاتبة ؛ ليكون علىٰ بصيرة من أمره وبينة من أمر ربه ، وقوله : «**لا يتزيَّا بِيْ**» هو بالزاي المعجمة لا بالراء المهملة .

وقال صلى الله عليه وسلم : «**من رآني في المنامِ .. فيرانيْ فيْ اليقظةِ ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ بيْ**» رواه أبو داوود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه أيضاً الطبراني وزاد : «**ولا بالكعبةِ**» ، وقوله : «**فيراني في اليقظةِ**» أي : في الآخرة بصفة القرب والشفاعة عند جميع ، ومنهم آخرون منهم سيدي ابن أبي جمرة : بل وفي الدنيا .

ومما أفاده نفع الله به أن الشيطان ممنوع مطلقاً عن التصور بصورته صلى الله عليه وسلم على أي هيئة كانت ، ولم يشترط ما اشترطه غيره من كونه يراه صلى الله عليه وسلم على الصورة المجسَّدة التي كان عليها في دار الدنيا ؛ حين أنه يراه صلى الله عليه وسلم مكسور الثنية اليمنى السفلى ؛ فإن لم يره بهذه العلامة .. فما هو ذلك ، بل قال نفع الله به : (فمن رآه صلى الله عليه وسلم في صورة حسنة .. فذلك حسَن في دين الرائي ، وإن كان في جارحة من جوارحه شين أو نقص .. فذلك خلل في دين الرائي - قال - : هذا هو الحق وبه جُرب كذلك فلم ينخرم ، وبه تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه ، حتى يظهر الرائي هل عنده خلل أم لا ؛ لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم نوراني كالمرآة المجلوة الصقلية ؛ فما كان في الناظر منها مِن حسن أو غيره .. يتصور فيها ، وهي في ذاتها حسنة لا نقص فيها ولا شين ، وكذا يقال في كلامه في النوم ؛ فإن وافق سنته .. فهو حق ، وما لم يوافقها .. فهو خلل في سمع الرائي ؛ فرؤيا الذات الكريمة حق ، والخلل إنما هو في سمع الرائي ...) إلى آخر ما قال نفع الله به .

وقال العلامة عبدالرؤوف المناوي نفع الله به : (فإن قيل : عظمة الحق أتم من عظمة كل عظيم ، مع أن اللعين تزيا لكثير من النساك وخاطبهم بأنه الحق ليضلهم ؟!

قلنا : كل عاقل يعلم ويجزم بأن الباري جلَّت قدرته لا صورة له معينة توجب الاستثناء ، بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً فمقتضى حكمة الحق سبحانه وتعالى أن يُضلُّ به من

يشاء من خلقه ، بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه مبعوث بالهداية ظاهرة بصورتها ؛ فيجب عصمة صورتها عن مظهرية الشيطان ، فتدبر ذلك) .

(لطيفة) رأىٰ بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم سقاه في النوم لبناً ، فقام من النوم وأدخل أصبعه في حلقه ؛ ليزداد طمأنينة بالحديث الوارد ، فتقايأ لبناً فحصل له بذلك حق اليقين ، غير أنه فاته من العلم بقدر ما أخرجه من اللبن ؛ لأن شرب اللبن في النوم يؤول بالعلم .

أو يقال : بأن صحبته صلى الله عليه وسلم بالاعتبار الذي قلناه تشتمل أيضاً غير من ذُكر ، وشاهده قول سيدي علي وفا قدس الله سره ونفع به شعراً :

علامـــــةُ أصـــــحابِ النبـــــيِّ كـــــما رووا	**لنـــا أنَّهـــم كالنجـــمِ هـــادٍ لمهتـــدي**
فمهـــما تـــرى نـــوراً إلى الحـــقِّ مرشـــدا	**فـــذاكَ مِـــنَ الأصـــحابِ فاتبعْـــهُ تهتـــدي**

(عددَ ما خلقْتَ ورزقتَ وأمَّتَ وأحييتَ إلى يومِ تبعثُ مَن أفنيتَ)

كل ذلك معناه ظاهر ، وهنا ننبهك علىٰ شيء ؛ وهو أنه اختلف العلماء رحمهم الله تعالىٰ علىٰ أقوال ثلاثة فيما اذا صلى الإنسان على النبي صلى الله عليه وسلم بمثل ما ذُكر ، لو قال : (سبحان الله وبحمده عدد خلقه) ونحو ذلك ؛ من كل ما ذكر جامع لعدد ؛ فقيل : يحصل لقائله ثواب ذلك علىٰ ما هو به من العدد مع التضعيف ، وقيل : بدون تضعيف في غير المكرر ، وفيه مع التضعيف .

وسئل العلامة ابن حجر الهيتمي نفع الله به كما في الفتاوىٰ : عن شخص سبح بنحو : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ؛ هل المرَّة منه أفضل ممن يسبح سبحان الله وبحمده وبعدد من ذلك ألف مرة مثلاً ؟

فأجاب بقوله : (نعم ؛ أفضل من ألوف مؤلفة ؛ كما دل عليه الحديث الصحيح أنه دخل صلى الله عليه وسلم علىٰ بعض أمهات المؤمنين وعندها حصيات كثيرة سبحت بعددها ، فقال : «**لقدْ قلتُ كلمةً عدلَتْ جميعَ ما قلتِ ؛ سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ عددَ خلقِهِ** ... » الحديثَ) واستدل أيضاً بما تركته اختصاراً إلىٰ أن قال : (وبه تُقاس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فمن قال : اللهم ؛ صل علىٰ سيدنا محمد عدد خلقك .. كُتب له صلوات بعدد الخلق ، هذا كله من فضل الله وكرمه ومنته) انتهىٰ .

(لطيفة أخرى) تتعلق بقول الأصل : (ورزقت) والتنبيه علىٰ أن الرزق قسمان مضمون وغير ذلك ، قال حجة الإسلام الغزالي وغيره نفعنا الله بهم : (فالمضمون ما تقوم به بُنيَة العبد من مطعوم ومشروب وملبوس أو ما يقوم مقام ذلك ، ومعنىٰ كونه مضموناً : أن الله تعالىٰ أعلمنا بأنه يوصله إلينا لتسكن نفوسنا ، وإلَّا .. فالتقدير شامل للجميع ، وما زاد علىٰ ذلك من التوسعات .. فهو غير مضمون ، ولهذا لم يفصل سبحانه وتعالىٰ في ضمانه بين حيوان وحيوان .

واجتهاد الناس في الغالب إنما هو في غير المضمون ، والشك في الحصول وعدمه إنما يتصور منهم فيه ، وأما المضمون .. فكل أحد يعلم أنه يجري إليه إلى انقضاء أجله حتىٰ مَن قُدِّر موته بالجوع والعطش ، ومنهم المرضى في أيام اشتداد المرض وإن وجدوا ما يأكلون ، ودخلوا في قولنا : أو ما يقوم مقام ذلك حفظ القوة بمحض القدرة ؛ كما في حق أهل الطي ؛ كالمرض .

وفي ذلك لطف عظيم وحكمة باهرة ؛ وذلك أنه خصَّ الآدميين بزيادة ثروة من غير المضمون ؛ لما علم من طيشهم وقلقهم وشغلهم بالحرص علىٰ جميع الأموال ، وأنساهم بذلك الاهتمام بما ضمن لهم بما يقيم البُنية ؛ لئلا يقع في قلوبهم شيء من التهمة له في ضمانه ؛ فيستوجبون مقته وغضبه ؛ لأن في التهمة ما يشير إلى التكذيب ؛ فكان حرصهم عليها أهون بما تنتجه الهمة في الاجتهاد في خصوص المضمون أقل الواقع ، وفي غير المضمون أكثر الواقع .

وقد قيل : إن في الإنسان جزءاً لا يزال يضطرب في طلب الدنيا ؛ فإذا وجدت عنده .. سكن ، ولهذا كان كثير من الصحابة والتابعين يدَّخرون ويبقون عندهم شيئاً من الدنيا ، ومن دعاء بعض السلف : (اللهم ؛ اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا) ، وعنه صلى الله عليه وسلم : «**إنَّ الفاقةَ لأصحابي سعادةٌ ، وإنَّ الغنى للمؤمنينَ في آخرِ الزمانِ سعادةٌ**» ؛ وسبب ذلك أن جلَّ الناس الآن ناظرون إلى الدنيا ، وأهل الصدر الأول كان نظرهم إلى الدين ، وقد شحت أهل الدنيا بها حتىٰ بالقدر الواجب ؛ فاحتاج أهل العلم والصلاح إلى الدنيا ؛ ليستغنوا بها عن أهلها ؛ فإن من احتاج إليهم .. هان قدره عليهم ولديهم .

ومن المناسبات هنا قول الشيخ والدي سيدي عبدالله الحداد العلوي نفع الله بهم ؛ كما نقله عنه تلميذه العارف بالله سيدي عمر البار نفع الله به : (إنما كان تمثيل الدنيا في القرآن بالماء ؛ لأن القليل منه لا غناء عنه ، والكثير مغرق) ثم قال : (واليوم ما نكره لأصحابنا ما يسترهم من المال وما يُغنيهم عن الناس ؛ لضعف أهل الزمان وقلة مواساة الأغنياء للفقراء ، وكان للسلف يقين - أو قال - : إيمان كامل يصبرون به على الشدائد ، وكان في أهل الأموال مواساة بعكس هذا الزمان المبارك) انتهىٰ .

وفي كلام بعض أهل التحقيق نفع الله بهم ما صورته : (أمر الله السيدة مريم بالسبب بعد المعرفة ؛ إثباتاً للأسباب لمقتضى الحكمة الإلهية ، وهذا تحقيق التوكل وأعلىٰ درجاته ، وهو مقام محققي المتوكلين ، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « **لوْ توكلتُمْ على اللهِ حقَّ توكلِهِ .. لرزقَكُمْ كما يَرزقُ الطيرَ ؛ تغدوا خماصاً وتعود بطاناً** » ، فأثبت لها الغدو والرواح وهو سبب ، ودونه السكون إلى الله من غير اضطراب بالأسباب ؛ كمقام مريم الأول ، وهذا مقام عالي في المتوكلين ، ودونها الاضطراب بالأسباب من غير اعتماد عليها ، وهو مقام عامة المتوكلين .

فالمحققون لَمَّا علموا علماً جهله من دونهم .. علموا أن الله سبحانه وتعالىٰ ما وضع الأسباب عبَثاً إلَّا ثَمَّ ما يرجىٰ به في العالمِ ؛ فأثبتوا ما أثبتت له الحكمة الإلهية ، وعملوا به ؛ تحققاً للعبودية ، والله هو العليم

القادر الحكيم ، ولله درُّ العلامة الشهاب الخفاجي حيث يقول : (والرزق مقسوم وقد يثمر فيه الطلب ؛ كعقلنا غريزة ومنه يكتسب)وبذلك يعلم أن كمال العالم أن يراعي الشخص حكمة الأسباب عند ورود الأقدار ؛ فإن الاستناد إلى العلم بالمقدورات من غير رؤية حكم الأسباب .. نقصان ، ورؤية الأسباب من غير ملاحظة الأقدار أيضاً .. نقصان ، والكمال أن يراعي كليهما ؛ لأنه سبحانه وتعالى جعل العوائد والوسائط والأسباب حُجُبَ قدرته وسُحب شمس أحديته ؛ فواقف عندها مخذول ، ونافذ منها إليه هو بالعناية موصول ، وإلَّا .. فقدرته لا تتوقف على الأسباب والعوائد ، بل هو حاكم عليها ليست حاكمة عليه .

على أنَّ عالم القدرة لا يخلو عن الأسباب أيضاً إلَّا أن الأسباب فيه خفية ، بخلاف عالَم الحكمة ، ويؤيد ذلك قول العارف أبي العباس المرسي نفع الله به : (للناس أسباب ، وسببنا تحت الإيمان والتقوى ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾) ، ويؤيده قول العارف القشاشي نفع الله به : (والرزق قد كتبه الله تعالى لك ، وهو مرهون بأوقاته وآجاله وأمكنته التي كتب الله لك أن تناله بها وفيها ؛ فأسبابه كائنة ما كانت هي واسطة فيه ، وهي من جملة الرزق لا تجتمع بدونها ؛ لإذن الحق بذلك ، لا لكون أمر الحق موقوفاً عليها ، بل لقضاء الحق بها وحكمه فيها بحكمة يريدها ؛ لقوله تعالى : ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ، وأنت من جملة الدواب ورزقك عليه لا عليك ، وإليه أمرك لا إليك .

ومن البشائر قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو نعيم : «**إنَّ مِنَ الذنوبِ ذنوباً لا يكفرُّها الصلاةُ ولا الصيامُ ولا الحجُّ ولا العمرةُ**» ، قال أبو هريرة : (فما يكفرها ؟) قال : «**الهمومُ في طلبِ المعيشةِ**» . انتهى ،

قال بعضهم رحمه الله تعالىٰ : (وسر ذلك أن الذنوب كالأمراض ، والمكفِّر كالأدوية ؛ فكل صنف منها يكفِّر صنفاً من الذنوب ؛ كما أن الدواء يدفع المرض المضاد له) انتهىٰ .

(لطيفة) ذكر سيدي القطب محمد العيدروس نفع الله به في كتاب **"أسرار علوم المقربين"** أنه روي أن سيدنا موسىٰ عليه السلام قال : (يا رب ؛ جعلت رزقي علىٰ بني إسرائيل ؛ يغديني هذا ويعشيني هذا) ، فقال له الرب تعالىٰ : «**هكذا أفعلُ بأوليائِيْ ؛ أجريْ رزقَهمْ على أيدي البطَّالينَ مِنْ خلقي ؛ لِيُؤجَرُوا فيهم**» انتهىٰ . وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين أوَّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

(الخاتمة) أحسن الله خاتمتنا في كل شيء ، وقع في بعض المواقع من هذه الكتابة ما يشير إلىٰ منهج القائلين : (إن وحدة الوجود بالذات وكثرته بالاعتبارات) ، وقد يقول القائل : وما هو المُكَلَّف بفتح اللام عند أهل هذا المشرب ؟

والجواب - كما قالوه ملخَّصاً من كلام بعض مشايخ شيخنا ، نفع الله به الجميع - : أن المكلف عندهم هو عبارة عن وجود شخصية من الوجود ، مفاض بجود الله تعالىٰ علىٰ أعيان الممكنات العلمية ؛ من تجلي الوجود المطلق ، مفيدة بتعينها ؛ أي : بظهورها بمقتضى استعداد المعين التي انبسط عليها ذلك الوجود من لوازمها وأحكامها ، التي من جملتها التكليف بها ، وهذا الوجود المفاض حادث عقلاً ونقلاً وكشفاً ، لكن حدوثه هو بمعنىٰ تعينه بأحكام الاستعدادات الأعيانية الممكنة .

هذا مع أنه ليس غير الوجود المطلق من كل وجه ؛ لأن الغير في عُرْفهم هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ؛ كما أن ليس عيناً ؛ لما بين التقييد والإطلاق من تقابل التضاد ؛ فالوجود وإن كان واحداً عندهم وعند جماعة من المتكلمين ، إلَّا أن الموجودات متعددة بالضرورة التي لا ينكرها عاقل فضلاً عن فاضل ، فضلاً عن واصل .

فواجب الوجود ؛ وهو المطلق تعالىٰ بالإطلاق الحقيقي .. هو الإله القديم الواحد ، وممكن الوجود علىٰ تكاثر أفراده ؛ وهو الحاصل من تعيين الوجود عند إشراق تجلي الوجود المطلق بوجوده على الأعيان الممكنة العلمية المعلومة عند أنفسها .. هو الحادث ؛ فليس له بنفسه وجود .

ثم هذا القول يورث شبهة على القول بالوحدة ؛ فيقال : إن القول بوجوب الوجود المطلق ينافي التكليف الشرعي ؛ لأنه إما على العدم من حيث هو عدم أو على الوجود من حيث هو وجود ، لكن وقوعه علىٰ أحدهما باطل ؛ لامتناع تكليف العدم بالضرورة ؛ إذ لا يتأتىٰ منه امتثالاً ولا انتهاء ولا تصورهما ، وامتناع تكليف الوجود إذا كان واجباً ؛ إذ لا يجب عليه شيء بالاتفاق وجوبه ؛ كما ذكره الإمام المحقق الشيخ علي المهانمي قدس الله سره في " شرح أدلة التوحيد" أن حصر محل التكليف في نفس الوجود ؛ فنفس العدم باطل ؛ إذ لا تكليف للوجود نفسه بالاتفاق ولا للعدم نفسه بالضرورة ، بل للوجود المتنوِّر بنور الوجود الحق المعدوم بنفسه .

ولا يمتنع تكليف مثله ؛ فإنما يمتنع تكليف العدم المحض ، وليس بثابت أصلاً فضلاً عن ثبوته في الموجودات ، ولذلك نقول : كل موجود وإن كان في نفسه عدماً .. له وجه إلى الوجود الواجب بالذات ، به صار موجوداً صالحاً لقبول التكليف ؛ من حيث اتصافه بالحياة والعلم والقدرة عن تجلي تلك الصفات الوجودية عليه ، والثواب والعقاب عن ملاقاة ما يلذُّ المظهر أو يؤلمه عن تجليات أسماء اللطف والقهر . انتهىٰ .

قال بعضهم : (وبهذا تبين قول الشيخ محيي الدين العربي نفع الله به شعراً :

العبـــــــدُ عبـــــــدٌ والــــــــربُّ ربْ	**يـــــا ليــــتَ شــــعريْ مَــــنَ المكلَّـــــفْ**
إنْ قلــــــتْ عبــــدٌ فــــــذاكَ ميْـــــتٌ	**أوْ قلَـــــــتَ ربٌّ أنَّــــــــى تكـــــــلَّفْ**

يشير إلىٰ أن العبد من حيث ذاته فإنه عدم لنفسه ؛ فليس مكلَّفاً من هذا الوجه بل من حيث إنه موجود بالله تعالىٰ ، وملاحظة هذا المعنىٰ هو الإخلاص الخاص بالخواص ، وهو روح الأعمال ؛ فمن عبدالله تعالىٰ علىٰ بساط هذه المعرفة .. كان من أهل الطريقة التي لا لائمة فيها ؛ كما قال القطب سيدي أبو الحسن الشاذلي شعراً :

إنْ أردْتَ الطريــقَ التــيْ لا لائمــهْ فيهــا ... فلـــيكنِ الفــرقُ عــلى لســانِكَ موجــودا

والجمــــعُ في قلبِــــكَ مشــــهودا

وهو مقام الإحسان المذكور في الحديث المشهور . انتهىٰ .

(لطيفة) قال بعض أهل هذا الفن نفع الله بهم : ما عليه علماء الظاهر حسن ، ومانحن عليه أحسن ، هذا وقد أنكَر مسألة الوحدة من الصوفية نفع الله بهم الشيخ علاء الدولة السنهاني ، والشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ، وأثبتها كثيرون منهم ، ومن أجمع ما أُلِّف فيها تأليف شيخ شيخنا وهو الملا ابراهيم الكوراني المدني ، خليفة القطب القشاشي نفع الله بهم ، وما ذلك إلا لتمكنه من العلوم الظاهرة والباطنة ، واستدلاله في كلامه بالدلائل العقلية والنقلية والكشفية ، وبالجملة فقد قالوا : (إنه لا يكمل أحدهم في فهم معنىٰ هذه المسألة إلا إن حصل له الذوق الصحيح والكشف الصريح ، وإلَّا .. فهي محل مزلة الأقدام إلَّا من حفظه الله) ، ومن ثم يعبِّرون عنها في اصطلاحهم بالمسألة الغامضة ؛ لكونها أغمض المسائل وهنا أختم وأقول :

اللهمَّ ؛ أرِنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، يا من هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم .

اللهمَّ ؛ اختم لنا ولأحبابنا بالخاتمة الحسنىٰ ، وكن لنا ولهم في الحسِّ والخيال والمعنىٰ ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

انتهى الكلام على شرح الصلاة المنسوبة للعارف الكامل ، والقطب الواصل ؛ سيدي أحمد البدوي نفع الله ببركاته ، وأفاض علينا من إمداده آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تقريض للحبيب شيخ الجفري رحمه الله تعالى ونفعنا به

وحوضٌ للنبيِّ هناكَ حالٍ ... بما لاحَ لي منْ دونَ سؤالي
عظيمُ النيلِ هذا الشرحُ بحرٌ ... فمَنْ غاصَ بهِ حازَ اللآلي
كتابٌ قدْ حوى ما قدْ حواهُ ... مِنَ القولِ الرفيعِ في المقالِ
صغيرٌ للحجمِ معناهُ كبيرٌ ... لناظرهِ بأعيانٍ وبالِ
عظيمُ النيلِ هذا الشرحُ بحرٌ ... فمَنْ غاصَ بهِ حازَ اللآلي
بهِ اندمجتْ معاني كلِّ لفظٍ ... وبانَ بيانُها في كلِّ حالِ
وقدرُ اللؤلؤِ المكنونِ قلَّتْ ... لهُ عارفْ منْ دونِ اختلالِ
فما النفحاتُ للأغيارِ تبدوْ ... ولا سيِّما لأربابِ الجدالِ
فنفحاتُ الصمدِ ليستْ لكلٍّ ... وتلكَ هيْ لأربابِ الوصالِ
كمثلِ مؤلفِ هذا المؤلَّفْ ... وجيهُ الدينِ مَنْ حازَ المعالي
شريفٌ هاشميٌ علويٌ ... حُسينيٌ جعفريٌ منْ خيرِ آلِ
هوَ الشارحْ صلواتِ الوليِّ ... أبو فرَاجِ يُدعى في الرجالِ
وبالبدويِّ مشهورٌ وحضري ... بلا شكٍّ بفصلٍ واتصالِ
هوَ المشهورُ في شرقٍ وغربٍ ... جلاليٌ جماليُ الفعالِ
فمنذْ طالعتْهُ ازددْتُ حُباً ... على حبٍّ بسرٍّ قدْ بدا لي
فمِنْ حبِّ الإلهِ وحبِّ طهَ ... سيبلغُ ما يؤملُ في المآلِ
لعامِ وا وياءٍ را وغينٍ ... وبالرقمِ قمْ أرخْ ذاتَ الجمالِ
وختمي بالصلاةِ والسلامِ ... أقولُ بعدَ حمديْ ذا الجلالِ

الفهرس :

ترجمة الحبيب عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس ١

ترجمة الشيخ حسن بن عوض مخدم ٢

كتاب الأصداف على جواهر الأشراف شرح الحكم ٣

وصية ونصيحة للإخوان في دين الله من أهل السنة والجماعة والطريقة العلوية ٩١

فتح الرحمن شرح صلاة أبي الفتيان سيدي القطب أحمد البدوي ١٠٧